الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة إدرار

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

قسم التاريخ

فرانتز فانون و الثورة في إفريقيا

(1925-1961م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ

تخصص:التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:

ماضي مسعودة

إشراف الأستاذ:

الدكتور/ بوصفصاف عبد الكريم

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة الأصلية
عيسى قرقب	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	الجامعة الإفريقية-أدرار
عبد الكريم بوصفصاف	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	الجامعة الإفريقية-أدرار
محمد حوتية	أستاذ محاضر (أ)	عضوا	الجامعة الإفريقية-أدرار
حسينة حماميد	أستاذة محاضرة (أ)	عضوا	جامعة العقيد لخضر-باتنة

السنة الجامعية 1429-1430هـ/ 2008-2009م

9 B 2 MASTER

فرانتز فانون و الثورة في إفريقيا

(1925-1961م)

المقدمــة:

يعد موضوع هذا البحث من الموضوعات الحيوية التي تعالج تراجم الشخصيات الفاعلة في التاريخ زمنيا ومكانيا. والتي تثير الكثير من الجدل والنقاش بين الباحثين المتخصصين والكتاب الهاوين بصورة عامة. أما الشخصية محل الدراسة في هذه الرسالة فهي شخصية رجل لغز أسال كثيرا من الحبر وشغل جيلين من الكتاب. ظلوا يتسابقون إلى استجلاء كنهه، والتعريف بحقيقته التي طالما ظلت مستعصية على العقول والافهام. متسائلة عن من هو هذا الرجل؟ وإلى أية أمة ينتمي ومن أي ثقافة أستلهم معارفه؟ وفي أية مدرسة إنسانية تلقى تعاليمه ومبادئه الإنسانية؟

إنه ذلك الرجل الثائر، إنه ذلك الرجل الحائر، إنه فرانتز فانون الانتيلي المولد والإفريقي الأصول والفرنسي الثقافة والإنساني المشاعر .

ولد في يوليو– جويلية 1925م في جزيرة المارتنيك التي لم تكد تستفيق من وقع الحرب الكونية الأولى (1914–1918م) حتى وقعت تحت تأثير الأزمة الاقتصادية العالمية سنة 1929م والتي كانت آثارها وخيمة عليها. ثم اندلعت الحرب الكونية الثانية(1939–1945م) فشارك فيها فرانتز فانون إلى جانب قوات فرنسا الحرة باعتبار جزيرة المارتنيك مقاطعة تابعة لفرنسا في هذه الفترة.كانت تلك التجربة أول اصطدام حقيقي له مع العنصرية، فخابت آماله ووضعت حدا لأوهامه فتبلورت

أفكاره وتغيرت قناعاته، ومن هنا فقط بدأت تتضح معالم حياته القادمة التي ستتحول من النقيض إلى النقيض من حياة الاستقرار والرغد إلى حياة النضال والكفاح، من قارة أمريكا إلى القارة السمراء أرض آباءه وأجداده الأوائل.

نعم لقد التحق فانون مند سنة 1953م بمستشفى الأمراض العقلية بالبليدة،و من ثم تعمق شعوره الثوري وزاد تعلقه بالجزائر من خلال معاينته لمرضاه واحتكاكه بالمجتمع الجزائري عن قرب، حتى أصبح من أبرز منظري الثورة الجزائرية ومن خلالها انتقل إلى إفريقيا جنوب الصحراء وهناك بحث عن سبل الوحدة الإفريقية وحاول تجسيدها فعليا بالتعاون والتنسيق مع بعض الرجال البارزين في الثورة، وذلك من خلال فكرته حول إقامة جبهة جنوبية تدعم الثورة الجزائرية بالسلاح والرجال.وفي وسط هدا المسار الصعب كان لفانون إنتاج فكري زاخر، عالج فيه العديد من الظواهر، وَنَظَّرَ للكثير من الموضوعات كالعنف والعنصرية والاستعمار والمرأة ...الخ، واستطاع أن يثبت فعالية نظرياته تلك في وقت كان العالم يعيش مخاضا صعبا هز العملاق الاستعماري ورفع راية الاستقلال في كل مكان.

2/ أسباب اختيار الموضوع:

هناك عدة أسباب دفعتني لاختيار الموضوع أهمها .

- قلة الأعمال الأكاديمية حول هذه الشخصية عموما، وندرتها في الجزائر بصورة خاصة. مع أنها شخصية عالمية أسست لفكر جديد أثبت فعاليته في العديد من الموضوعات.
- يعد الحديث عن فرانتز فانون مدخل هام للحديث عن الثورة الجزائرية من جوانبها الفكرية والفلسفية والأدبية وما كان لها من تأثير عميق على المجتمع الجزائري وعلى القارة الإفريقية قاطبة .
- إن كتابات فرانتز فانون هي كتابات واقعية وليست مجرد تنظير مجافي للواقع إستمدها من خلال احتكاكه بالثورة الجزائرية، وما أتاحته له من اتصالات جديدة مع العالم الخارجي ولا سيما إفريقيا، غايته الأولى .

- إن المطلع على كتابات فانون يدرك أنه حقق من خلالها تنوعا كبيرا في حديثه عن الكثير من الموضوعات، فمن الزنوجة إلى الثورة الجزائرية ومنها إلى القضايا الإفريقية، والعديد من التنظيرات حول مواضيع مختلفة كالعنصرية والعنف والاستعمار وتأثيره على الشعوب، وعلاقته بالعالم الثالث وكلها موضوعات تستحق التحليل والمناقشة .
- إعجابي الكبير بهذه الشخصية التي تنكر لها أبناء وطنها،وضيق الخناق على كتاباتها، وهمشت وعاشت في الظل طيلة العقدين الأخيرين. ولكن الجزائر لم تنس أبنها فانون وليست هذه الدراسة إلا دليلا على ذلك.
- الرغبة في تتبع مسيرة فرانتز فانون بدقة لتخليصها من الكثير من اللبس الذي أحاط بها ومن الأوصاف المختلفة التي ألصقت بها في خضم الفكر المعاصر.

3/ إشكالية البحث:

تتمحور الإشكالية العامة لهذا البحث، حول الأسباب الحقيقية التي جعلت هذا الرجل المتعدد الانتماءات يعيش ويموت من اجل القضايا الإفريقية وفي مقدمتها القضية الجزائرية.والإحاطة بالأسباب الموضوعية والذاتية المختلفة المتعلقة بشخصيته الغامضة وذلك قصد معرفة وتبيان اختياراته الثورية والإنسانية والتي جاء من أجلها إلى القارة الإفريقية. وناضل في سبيلها طوال حياته.

وهي إشكالية عميقة تتطلب المزيد من البحث والتركيز على العوامل الرئيسة التي جعلت هدا الرجل إنسانا آخر، ليس كأبناء جزيرة المارتنيك التي ولد وترعرع فيها، إنها إشكالية كبرى تتطلب الأدلة التاريخية الدقيقة،والشواهد الفكرية والسياسية

والثورية العميقة التي جعلت منه متعدد الاهتمامات والإبداعات السياسية والأدبية والفكرية. ولتوضيح هذه الإشكالية أكثر يمكن طرح التساؤلات الآتية:

1. ما هي الظروف السياسية والفكرية التي نشأ وترعرع فيها فانون؟ كيف استطاع أن يتغلب على الثقافة الفرنسية الاستعمارية وأن يطوعها في خدمة الشعوب المستعمرة؟

2. ما هي الأسباب الحقيقية التي جعلت مترجمنا يتبنى قضايا شعوب لم يعرفها من قبل، إلا من خلال بعض القراءات الضئيلة التي التقطها من الكتابات الفرنسية أو من الرحلة العابرة التي حملته إلى شمال إفريقيا إبان الحرب الكونية الثانية؟

3. ما هي المرجعيات الفكرية التي استلهم منها فانون آراءه ونظرياته التي تضمنتها كتبه ومقالاته التي هزت أركان الدول الاستعمارية لاسيما فرنسا في زمن قياسي لم يكن فيه فانون قد تخطى بعد عتبة الثلاثينات من عمره؟ وكيف أصبح واحدا من كبار منظري الثورة الجزائرية؟

4. وإلى أي مدى أسهمت أفكاره السياسية والإيديولوجية في تنامي الثورة في إفريقيا؟

5. وهل كرمته الثورة الجزائرية بنفس التكريم الذي كرم به هو الجزائر عندما ترك عمله كطبيب في مستشفى البليدة وانضم إلى صفوف الثورة؟

4/ إطار البحث :

ستتناول هذه الدراسة كل الفترة التي عاش فيها فانون (1925–1961م) وهي فترة عرفت تحولات جوهرية، ليس على المستوى الإفريقي فحسب بل على المستوى العالمي أيضا. إذ ظهر الميثاق الأطلسي وما تضمنه من مبادئ ديمقراطية جذبت إليها الشعوب المضطهدة التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار والاستعباد في القارات الثلاث(إفريقيا، آسيا، أمريكا). وسجل سقوط النازية والفاشية منعرجا حاسما في تاريخ الإنسانية وانهيار القوى الكبرى في العالم.

وكانت هزيمة ديان بيان فو الشهيرة عام 1954م الشرارة التي حطمت مقولة أن فرنسا لا تقهر، وبدأت البلدان الإفريقية تفلت من كماشة الاستعمار خاصة بعد مؤتمر باندونغ 1955م. إذ يعتبر هذا المؤتمر نقطة تحول عميق في تاريخ الشعوب الإفريقية التي أصبحت بعده تشهد حركة تحرر شاملة ضد كل أشكال الاستعمار والاستيطان و الامبريالية في القارة .

وكان للثورة الجزائرية الأثر الواضح على فكر فانون وتحوله بتلك السرعة غير المحسوبة،من طبيب نفساني يعالج العقدة النفسية والأمراض العقلية إلى مناضل ومفكر في صفوف جبهة التحرير الوطني حتى وفاته سنة 1961م .

5/ مناهج البحث:

لقد زاوجت في هذه الدراسة بين المنهج التاريخي الوصفي الذي استخدمته في وصف الأحداث، ومتابعة التحولات وربطها زمنيا ومكانيا وترتيبها حسب الأهمية.

وبين المنهج التحليلي النقدي وذلك لشرح وتحليل ونقد المفاهيم التي تحملها النصوص المعتمدة سواء من مصادرها الأساسية أو من الدراسات التي كتبت عن

فرانتز فانون والثورة الجزائرية والثورة الإفريقية...الخ. علاوة على المنهج المقارن لمقارنة بعض النماذج المتشابهة من حيث الأفكار والنظريات لفلاسفة ومفكرين عاصروا فرانتز فانون.

6/ صعوبات البحث:

أما صعوبات البحث التي لا يكاد يسلم منها أي باحث فهي:

أولا : صعوبة الحصول على المصادر والمراجع التي تعد أساس أي بحث أكاديمي.

ثانيا:صعوبة الموضوع المختار للدراسة إذ أنه موضوع متشعب فدراستي لشخصية كشخصية فانون تستلزم الإلمام والإحاطة بكل إنتاجه الفكري، خاصة وأنه كتب في الكثير من المواضيع وكلها شائكة ومعقدة، تستوجب الإلمام والإحاطة بكثير من العلوم الأخرى كعلم النفس، علم الاجتماع، العلوم السياسية...الخ.

ثالثا: إن الدراسات التي كتبت حول هذه الشخصية كانت معظمها باللغات الأجنبية بما فيها كتابات فرانتز فانون نفسه وكان ذلك يحتاج إلى جهد إضافي ووقت أطول. ولا شك أن هذه الدراسة ستكون واحدة من مختلف الدراسات التي كتبت وستكتب عن هذه الشخصية الفذة المتشعبة الاهتمامات والأدوار.

7/ الدراسات السابقة حول الموضوع :

لقد توسعت دائرة الاهتمام بكتابات فانون وأفكاره ونظرياته واتسع صداها في اتجاهات مختلفة من العالم، فاحتضنته ثورة الزنوج بأمريكا، واعتبرت فكرة إنجيلا لها،

وجعلته موضوعات لدراسات علمية، وأقيمت الملتقيات والأيام الدراسية حوله وصدرت أربع مجلدات لمؤلفاته في بريطانيا، وصدرت حوله كتابات متنوعة أجنبية في معظمها أهمها :

1- Cherki Alice. Frantz Fanon portrait, éditions du seuil, paris, septembre 2000.

2- Philippe Lucas . Sociologie de Frantz Fanon (contribution à une anthropologie de la libération), SNED, 1971.

3- ووديس جاك: نظريات حديثة حول الثورة، تعريب محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت, 1978م.

4- السمان غادة: فرانز فانون، الازدواجية والاستعمار (جنوب افريقيا كحالة دراسة) رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، فلسطين،2006م.

5- الميلي محمد: فرانز فانون والثورة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشرة والتوزيع الجزائر، بدون تاريخ.

6- كوت دافيد: فرانتز فانون، ترجمة عدنان كيالي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، طبعة الأولى،1971م. وهذا الكتاب عبارة عن أطروحة دكتوراه.

8/ أهم مصادر البحث ومراجعه :

استعنت في معالجة موضوعي بمجموعة من الكتب أهمها مؤلفات فانون نفسه وهي أربعة مصادر أساسية:

بشرة سوداء أقنعة بيضاء سنة 1952م اعتمدته في الحديث أساسا عن العلاقة بين الأبيض والأسود أي في الحديث عن العنصرية، ويقول عنه صاحبه أنه دراسة عيادية سريرية، يدعو فيه للتخلص من العنصرية بكل أشكالها .

أما كتابه " معذبو الأرض" سنة 1961م أفادني خاصة في التعرف على نظرة فانون للعنف وعلاقته بالاستعمار، وكيف أنه يري فيه الحل الوحيد للتخلص من المستعمر (بكسر الميم) في حين اعتمدت كتابه "الثورة الجزائرية في عامها الخامس" (سوسيولوجية ثورة) في توضيح الصورة الحقيقية لمقاومة الجزائريين ضد الاستعمار الفرنسي خاصة من خلال المرأة التي شكلت الحصن المنيع للحفاظ على الهوية الوطنية، واستفدت من كتابه" من أجل إفريقيا" في التعرف على أفكاره وتنظيراته خصوصا أنه عبارة عن مجموعة من المقالات حول الاستعمار والجزائر وإفريقيا ومن خلال تلك المقالات خاصة، اكتشفت فانون ككاتب ومفكر ومناضل .

9/ خطة البحث:

يتألف هذا البحث من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وملاحق وببليوغرافيا وفهارس تناولت في المقدمة الخطوات المنهجية التي تم تصنيفها على النحو التالي :

التعريف بالموضوع، أسباب اختيار الموضوع، إشكالية البحث، إطار البحث، مناهج البحث، صعوبات البحث، الدراسات السابقة حول الموضوع، أهم مصادر البحث ومراجعه، خطة البحث. ولتوضيح أكثر للخطوات، سأستعرض باختصار الفصول وما جاء فيها:

الفصل الأول: "**فرانتز فانون البيئة والحياة ومفهوم الثورة**".

تناولت في مبحثه الأول: "**البيئة الجغرافية والاجتماعية**"، التعريف بالبيئة التي سادت جزيرة المارتينيك مع مطلع القرن العشرين، وتأثيراتها على فانون وكيف تبلورت من خلالها توجهاته السياسية والاجتماعية لأنه في الأخير هو نتاج هذه الأوضاع.

أما المبحث الثاني: "**مولده ونشأته**"، فقد خصصته للحديث عن شخصية فرانتز فانون من حيث المولد والنشأة وأبرز المحطات التي ترسخت في ذهنه بداية من طفولته مرورا بتحصيله العلمي والمعرفي، وكل العوامل التي أسهمت في تكوين شخصيته. كذلك تعرضت إلى أهم ألأشخاص الذين تأثر بهم وكانوا سببا في توجهاته الفكرية وخياراته السياسية فيما بعد، أمثال: جون بول سارتر وإيمي سيزر.

وتحدثت في المبحث الثالث: "**فانون من فرنسا إلى الجزائر**"، عن انتقال مترجمنا من جزيرة المارتينيك بجزر الأنتيل بأمريكا الوسطى، إلى شمال القارّة الإفريقية واستقراره في مستشفى جوانفيل في البليدة بالجزائر، حيث عمل كطبيب مختص في الأمراض العقلية، وكيف لاحظ استفحال مرض الجنون بين الجزائريين فاستنتج أن ذلك ناتج عن المعاناة الاستعمارية المختلفة، وهناك بدأ احتكاكه الحقيقي بالمجتمع الجزائري. وأصبح بحق واحدا من أبناء الجزائر.

أما المبحث الرابع:"**مفاهيم عن الثورة في إفريقيا**"، وضّحت فيه مفهوم الثورة باعتبارها الميزة الأساس التي ميزت البلدان الإفريقية التي خضعت لكل أشكال الاستعمار، وباعتبارها كذلك مظهرا من مظاهر المقاومة والشعور بالاحتقار والدونية والقهر، وهي ظواهر ناتجة عن الممارسات الاستعمارية. هذا عن الفصل الأول.

أما الفصل الثاني: "**فانون والثورة الجزائرية**"، فقد تضمن أربعة مباحث تناولت في المبحث الأول: "**فانون واندلاع الثورة التحريرية** "، موقف فانون من

انفجار الثورة الجزائرية وكيف تعمق فيها وأصبح يعالج مناضليها ويشارك في نشاطاتها وكان هذا المبحث رصدا لمختلف الأحداث التي مرت بها الثورة الجزائرية وكيف تفاعل فانون معها، وقد دعمت هذا المبحث بآراء ومواقف بعض المفكرين من النخبة الفرنسية تجاه الثورة التحريرية وكذا موقف اليسار الفرنسي منه.

في حين تحدثت في المبحث الثاني: "**فرانتز فانون يلتحق بقيادة الثورة الجزائرية في تونس**"، والمبحث الثالث: "**فانون في خدمة القضية الجزائرية بتونس**" عن انتقال فانون إلى تونس ونشاطه فيها باعتبارها كانت حليفا للثورة الجزائرية وإحدى معاقلها، وفي هته الفترة تضاعفت جهود فانون لخدمة القضية الجزائرية. خاصة من خلال المقالات التي كان يحررها في جريدة المجاهد لسان حال جبهة التحرير الوطني، والمؤتمرات التي كان يحضرها متحدثا باسم الجزائر.

أما المبحث الرابع والأخير: "**فانون والحكومة الجزائرية المؤقتة**"، فقد درست فيه التحول الجذري الذي شهدته الساحة الجزائرية وهو إنشاء الحكومة الجزائرية المؤقتة بكل معطياتها والتحولات التي فرضتها، وكيف كانت هته الخطوة الدافع الرئيس وراء تلك القطيعة بين فانون واليسار الفرنسي من جهة وبينه وبين كل أوروبا من جهة أخرى، لأنه وجد ضالته في الثورة الجزائرية. كما تحدثت فيه عن نشاط فانون المختلف في هذه الفترة، وكيف كانت الثورة الجزائرية منفذا له على إفريقيا جنوب الصحراء خاصة بعدما عين سفيرا للجزائر في غانا.

وقسمت الفصل الثالث: "**تضال فرانتز فانون من أجل القضايا في إفريقيا**"، إلى خمسة مباحث.

عالجت في المبحث الأول: "**التحاق فرانتز فانون بالثورة في إفريقيا**" الأوضاع العامة في القارة وبداية الحركات التحررية وأسبابها وعلاقة فانون ببعض

الزعماء الأفارقة وردود أفعاله حول استفتاء ديغول 1958م، وموقف البلدان الإفريقية منه، كما تتبعت فيه اغتيال كل من باتريس لومومبا وفليكس موميي ومدى تأثر فانون بمقتلهما الذي اعتبره مقتلا للنضال والكفاح في إفريقيا .

وتعرضت في المبحث الثاني: "**إسهامات فرانتز فانون في المؤتمرات الإفريقية**"، إلى مشاركات فانون في مختلف المؤتمرات الإفريقية والتي كانت بلا شك خطوات عملية وسريعة لمحاولة الوصول إلى الاستقلال .

وتحدثت في المبحث الثالث: "**فانون منظرا للثورة الإفريقية**"، عن آراء فانون وتنظيراته حول الكثير من القضايا الحاسمة في القارة، كالوحدة الإفريقية، البرجوازية وتأثيراتها، نظام الحزب الواحد وآثاره وتنبؤات فانون حوله، والقادة الأفارقة ونظرته لهم بعد استقلال بلدانهم...الخ وكلها مواضيع تحدث فيها فانون وعالجها بعمق ودقة .

أما المبحث الرابع: "**فانون من التنظير إلى التنفيذ**"، فتحدثت فيه عن مشروع فرانتز فانون حول إنشاء جبهة جنوبية، لدعم الثورة الجزائرية بالسلاح والرجال من إفريقيا جنوب الصحراء، والذي لم يكتب له النجاح على الرغم من أن فانون أراد من خلاله تجسيد الوحدة الفعلية بين شمال القارة وجنوبها.

في حين خصصت المبحث الخامس: "**وفاته**"، للحديث عن إصابة فرانتز فانون بسرطان الدم وعودته من إفريقيا إلى تونس وتتبعت فيه رحلة فانون العلاجية، التي لم تأت بثمارها و كذا تفاصيل وفاته في ديسمبر 1961م. هذا عن الفصل الثالث.

أما الفصل الرابع والأخير: "تنظيرات فانون في بعض القضايا الحاسمة" فضمنته أربعة مباحث، تحدثت في المبحث الأول: "**الاستعمار**"، عن رؤية فانون للظاهرة الاستعمارية وكيف حلّلها وماذا اقترح للتخلص منها.

في حين خصصت المبحث الثاني: "**العنف**"، للحديث عن نظرة فانون للعنف ولماذا يدعوا له؟ وكيف يرى فيه قوة مطهرة للنفوس ومخلصة لها من عقد الدونية وأوردت في هذا السياق بعض الآراء المناقضة لآرائه لتوضيح موقفه أكثر.

أما في المبحث الثالث: "**العنصرية**"، فطرحت فيه فكرة العنصرية، وكيف كان أول اصطدام لفانون بشبحها، وكيف كان يدعوا إلى التخلص منها لأنه كان يرى فيها ظاهرة مقيتة تمسّ الإنسان من الأعماق.

في حين أفردت المبحث الرابع والأخير: "**المرأة**"، للحديث عن مكانة المرأة في الثورة الجزائرية ودورها في الحفاظ على الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية ومختلف التحولات التي أعقبت دخولها واندماجها في الحياة السياسية في الجزائر.

الفصل الأول: فرانتز فانون البيئة والحياة ومفهوم الثورة

المبحث الأول: البيئة الجغرافية والاجتماعية لفانون

المبحث الثاني: مولده ونشأته

المبحث الثالث: فرانتز فانون من فرنسا إلى الجزائر

المبحث الرابع: مفاهيم حول الثّورة في إفريقيا

الفصل الأول: فرانتز فانون البيئة و الحياة ومفهوم الثورة

سأتطرق في هذا الفصل إلى الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي لجزيرة المارتنيك، باعتبارها الإطار والبيئة الجغرافية التي تمت داخلها جميع التحولات التي تأثر بها فرانتز فانون "Frantz Fanon "، واستلهم من خلالها تجاربه الثقافية والسيّاسية التي شكّلت قاعدته الأيديولوجية والفكرية والتي بلورت فيما بعد اختياره النضال والكفاح من اجل الشعوب المضطهدة .

كما سأعالج حياة فرانتز فانون من حيث نشأته ووسطه الاجتماعي ومساره الدراسي، لأن ذلك كان له التأثير الكبير في تكوين شخصيته، وتوجيهه ثقافيا وسياسيا وتوضيح مختلف المرجعيات التي حددت توجهه الأيديولوجي، إضافة إلى محاولتي توظيف مفهوم الثّورة التي اعتنقها فانون منذ صغره باعتبارها رد فعل طبيعي وحتمي للممارسات الاستعمارية بكافة أشكالها.

المبحث الأول: البيئة الجغرافية والاجتماعية

تقع جزيرة المارتينيك مسقط رأس فانون في جزر الأنتيل، أو ما يطلق عليها جزر الكرائيب [*]، وهي جزر صغيرة متتابعة بأمريكا الوسطى[1] .اكتشفها كريستوف كولمب سنة 1493م، وسماها المارتينيك، لأنّها اكتشفت في عيد القديس مارتان[2] .

تطل من الشمال على قناة عرضها حوالي ثلاثين كيلومتر، يفصلها عن جزيرة الدومينيك، ومن الجنوب على قناة أخرى تفصلها عن جزيرة سان لوسي

---

[*] جزر الكرائيب: نسبة إلى سكانها الأوائل الهنود الكرائيب.

[1])- فرانتز فانون: سوسيولوجية ثورة، ترجمة ذوقان قرقوط، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1970، ص5.

[2])- Gauchet et Alexis Marie : la France coloniale, A. mame et fils, tours, 1888, p. 345.

(saint- Lucie) يحدها من الشرق المحيط الأطلسي، ومن الغرب بحر الكرائيب تبلغ مساحتها حوالي ألف ومائة كيلومتر مربع، وهي بذلك تحتل المرتبة الثالثة من حيث المساحة من مجموع جزر الأنتيل[1]، قدّر عدد سكانها عام 1987م حسب الإحصاء الرسمي الفرنسي حوالي ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة، بكثافة سكانية تقدر بـ: ثلاث مائة وسبعة وثلاثين نسمة في الكيلومتر المربع الواحد. تبعد عن فرنسا بحوالي سبعة ألاف كيلومتر[*] يقطن بها الزنوج، وهم الهنود الكراييب إضافة إلى الفرنسيين. يدين معظمهم بالمسيحية.

أما مناخها فيتميز بفصلين فقط، شتاء جاف ومنعش، وصيف ممطر وساخن إضافة إلى المد والجزر والزلازل والأعاصير التي تحدث الكوارث[2]. وجزيرة المارتينيك هي إحدى المستعمرات الفرنسية، إذ احتلها الضابط الفرنسي بيار بيلان دسنامبوك "pierre belain d'esnambuc" سنة 1635م [3] ، وجعل عاصمتها سان بيار وبقيت كذلك إلى غاية سنة 1802م، وهو تاريخ تدميرها على إثر انفجار بركان جبل بيلي فنقلت العاصمة إلى فوردوفرانس (Fort- de- France) .

أما سكانها الأصليون فقد أبيدوا عن آخرهم من قبل المعمرين، وعوضوا بالأفارقة السود، الذين جلبوا إلى هذه الجزيرة على عهد جاك ديباركي[**][4] للعمل في مزارع السكر بعد اكتشافه والبن والموز لحساب الأوربيين، ذلك أن الهنود الكراييب لم يتحملوا مشقة العمل في تلك المزارع فتزايدت تجارة الرقيق وازدهرت. إذ كانت

---

[1]- آمنة أبو حجر: الموسوعة الجغرافية لبلدان العالم، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2008، ص ص.464-465.

[*]- وهي مسافة تقطعها طائرة البوينغ من نوع "747" في حوالي ثماني ساعات ونصف.

[2]- آمنة أبو حجر: المرجع السابق، ص. 464-465.

[3]-المكان نفسه.

[**]- جاك ديباركي: هو ابن أخت بيار بيلان داسنامبوك، الذي استعمر الجزيرة عام 1635م، لحساب فرنسا، وقد تولى ديباركي الحكم بعد وفاته.

[4]- المرجع نفسه، ص. 165.

البواخر تأتي محملة من إفريقيا بأولئك السود الذين كانوا يصطادون كالحيوانات[1]. وبقيت الوضعية على حالها(استغلال الأبيض للأسود) حتى تم إلغاء الرق[2]، بعد مرسوم 27 أفريل 1848م في عهد الجمهورية الفرنسية الثانية، وقد احتاجت المارتينيك إلى شهرين كاملين حتى تصل إليها أخبار ذلك المرسوم.

وفي 22 ماي 1848م، كانت آخر ثورة للعبيد ضد الرق، وأصبح ذلك اليوم يوم عطلة مدفوعة الأجر في المارتينيك، منذ وصول اليسار الفرنسي إلى السلطة سنة 1981م[3]، ونتيجة لذلك النظام الذي ساهمت فرنسا في تكريسه لمدة أكثر من قرنين، كانت تلك الجزر عموما وجزيرة المارتينيك بوجه خاص تعاني التخلف والفقر والاستغلال و الحرمان وترزح تحت وطأة التبعية الاستعمارية لفرنسا، على الرغم من أنها كانت تملك بعض الموارد الطبيعية، كالبن، القرنفل، جوز الطيب، الأناناس والموارد الحيوانية كالسمك[4] .

وقد شهدت الجزيرة من حين لآخر ثورات للمطالبة بالمساواة، وبعد الحرب الكونية الأولى اتخذت فرنسا مجموعة من التدابير لإيجاد نوع من التقارب الشكّلي بين سكان تلك الجزيرة و بين الفرنسيين ومن تم القضاء على تلك الثورات التي كانت تنشب من حين إلى آخر[5] . فوفرت مثلا لكل أطفال المارتينيك حق الدراسة والغذاء واللباس ومنحت الأشخاص العاطلين عن العمل، والمرأة الوحيدة التي تربي أطفالها منحة البطالة.

---

[1])- محمد شرقي: " المجتمع الجزائري في تصور فرانتز فانون (1953-1961)"، ط1، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، قسنطينة:2008، ص. 163.

[2])- Françoise verger : Abolir l'esclavage, une utopie coloniale, les ambiguïtés d'une politique humanitaire, Albin Michel, 2001, p. 28.

[3])- Marcel Manville : "périssent les colonies", le monde diplomatique, avril 1998, pp.16-17.

[4])- Gauchet et Marie Alexis, Op.Cit., p.343.

[5])-الزبيري الطاهر: المثقفون و الثورة،منشورات المتحف الوطني للمجاهد،المؤسسة للاتصال و النشر والاشهار،الجزائر ، 1995 ص. 139.

ولكن تلك التدابير لم تدم طويلا فسلطة البيض على الجزيرة حالت دون تطبيقها[1] ذلك أنها كانت تسيطر عليها أقلية بيضاء لا يتعدى أفرادها ألفي نسمة من مجموع السكان يدعون بـ البيكي[*] (BEKEI)، فسيطروا على الممتلكات ونهبوا الثروات، واحتكروا البنوك والمزارع وأرباح صناعة السكر ولم يختلطوا بالسكان وحافظوا على الزواج بينهم[2].

أما إداريا فكانت هذه الجزيرة عمالة فرنسية، تشتمل على ثلاث دوائر وأربع وثلاثين بلدية ينتخب رؤساءها من قبل الأهالي. أما الأمن والإدارة فتترك للفرنسيين فعانت هذه الجزيرة من الفقر والحرمان إذ كان سكانها لا يملكون حتى الخشب لصناعة توابيت لموتاهم،و يعتمدون في معاشهم على بعض الصناعات والموارد المحلية، كتكرير الملح واستخراج الزيت من جوز الهند، والاعتماد على القمح اللين وعلى الموز القادم من قوادالوب[*] [3]، وعلى الرغم من ذلك كله ظهرت برجوازية محلية "زنجية" شكّلت الأغلبية تؤّيد وتدعّم الاندماج في الإطار الفرنسي مهملة الاستقلال الوطني[4] .

ولكن في المقابل كانت هناك أقلية من النخبة تدرك جيدا أن تبعيتها لفرنسا ليست إلاّ شكّلا من أشكال الاستعمار، وهو لا يعني إلا الاستغلال والاستبداد والاضطهاد، وأن الأنتيل كما ترى هذه النخبة لن تكون بأي شكّل من الأشكال فرنسية، حتى لو حاولت ذلك، فالاختلاف جوهري في التاريخ والعادات والتقاليد والماضي، وفي لون البشرة، والاستقلال الحالي ليس إلاّ استقلالا شكّليا واهما، ولكن

---

[1])- المكان نفسه .

[*]- البيكي: هم المنحدر ون من تزاوج السود مع الأوروبيين.

[2])- غادة السمان: فرانتز فانون والازدواجية والاستعمار جنوب إفريقية (حالة دراسية) ، جامعة بيرزيت فلسطين،2006، ص. 6.

[*]- قوادالوب: هي جزيرة مجاورة لجزيرة المارتينيك.

[3])- Alice Cherki, Frantz fanon, portrait, éditions du seuil, Paris, 2000, P. 20.

[4])- محمد الميلي: فرانتز فانون والثورة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، بدون تاريخ، ص. 10.

هذه الأقلية لم يكن لها التأثير الكافي لتحقيق الانفصال عن فرنسا، ذلك أن الاعتقاد الذي كان سائدا لدى الأغلبية آنذاك، هو أن الإنتيلي متفوق على الإفريقي، وأن الأخير هو الممثل الحقيقي للعرق الزنجي وأنه مصدر العبيد. إلى درجة أنهم – الأنتليين– كثيرا ما كانوا يقولون: " إذا أردت زنجيا فابحث عنه في إفريقيا"، وكان الأنتيلي عندما يقدّم في المجتمع الباريسي الراقي يؤكد دائما على أنه أنتيلي من أصل "مارتينكي"، بل لقد كان يُعتقد أن الانفصال عن فرنسا معناه الجوع والضياع[1] .

المبحث الثاني: مولده ونشأته:

في هذه البيئة الجغرافية والاستعمارية ولد فرانتز فانون في العشرين من يوليو – جويلية سنة 1925م، وسط عائلة ميسورة الحال [2] ، تتكون من ستة أولاد(أربعة ذكور وبنتين) وهو الثالث في الذكور، كان أبوه يدعى "كزمير" (casimir) وهو من أصول إفريقية زنجية، موظف مفتش بالجمارك، عرف بكتمانه وأمانته، أما أمه "ليونور"، فكانت شريفة النسب لأن والدتها ألزاسية بيضاء من عائلة هوسفلدر (Housfelder) جرمانية الأصل كانت تملك محلا تجاريا في فوردوفرانس، ويرى البعض أن علاقته بها لم تكن وطيدة، وأن فانون لم يكن ابنها المفضّل، ذلك أنه لم يكن يتحدث عنها كثيرا[3]، بينما تؤكد كلودين شولي[*] أن علاقة فانون بوالدته كانت وطيدة جدّا وأن ذلك كان سببا أساسا في دفعه إلى الأمام وعاملا رئيسا في تكوين

[1])- الطاهر الزبيري:المرجع السابق، ص139.
[2])- سعاد شيخا ني: فرانتز فانون (رؤية لدور الكاتب والأدب الإفريقي باللغة الفرنسية) ،ط1، معهد الإنماء العربي، بيروت،1982م ، ص. 9.
[3])- محمد شرقي: المرجع السابق، ص 163.
[*]كلودين شولي: رفيقة فانون في النضال من اجل القضية الجزائرية.

شخصيته[1] ، ويبدوا أن هذا الرأي الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة، لأن كلودين شولي عرفت فانون عن قرب، وكانت على اتصال مباشر به.

أمّا من ناحية إخوته فكان له أخ موظف بالجمارك أيضا، وأخت كان يثق بها كثيرا ويصارحها في كثير من أموره الخاصة عن طريق الرسائل واللقاءات المختلفة.

بناء على هذه الصورة الواضحة الجلية عن منشأ فانون، يمكن القول أنه عاش سعيدا في طفولته وبين أفراد أسرته المستقرة، التي كانت على الرغم من عددها الكبير تنعم برغد العيش وانسجام العلاقات العائلية، ومع ذلك كله فسنرى في الفصول الآتية من هذه الرسالة أن تطور حياة فانون وفكره لم يكن منسجما مع تلك الحياة الهادئة التي تعيشها أسرته، بل فقد عاش ثائرا على كل أشكال الاستغلال والسيطرة طوال حياته.

كان فانون طفلا عاديا لطيفا، كريما، يحب الرياضة وألعاب الأطفال، حسّاسا متشكيا كثير النزاع[2]يدين بالمسيحية على طريقة أفراد أسرته، شأنه شأن جميع سكان المارتينيك، و قد عمل رجال الدين الكاثوليك في هذه الجزيرة على إرساء المسيحية ومساندة المحتل ووضعوا أنفسهم في خدمته، وكانوا لا يسمحون لأي تطوّر أو وعي قومي جديد بالظهور[3] .

التحق فانون كغيره من أبناء الجزيرة بالمدرسة في السن القانونية المسموح بها للدراسة، وبعد مرور سنوات قصيرة على تعلمه، بدأ يدرك الفروق الواضحة بين اللهجة المحلية الكريول[*] (Créole) التي يتحدّث بها أبناء الجزيرة ولغة الوطن الأم

[1])-فرانتز فانون: معذبو الأرض، بحث تقديم ك، شولي، ترجمة السيدة منور، موفم للنشر، الجزائر: 1990م، ، ص. 8 .
[2])- Alice Cherki, Op. Cit., p. 17.
[3]) – Ibid., p. 17.
[*]الكر يول: اللغة التي يتحدث بها سكان الانتيل الفرنسية وهي خليط من الفرنسية و الانجليزية و الاسبانية و اللهجات الاروبية.

(فرنسا) [1] ومما بقي عالقا بذاكرته من أيام المدرسة تلك الزيارة التي نظمتها مدرسته وهو في العاشرة من عمره لمشاهدة النصب التذكاري لشولشر (Schoelcher) [(**)] [2]

حيث كانت هذه الحادثة نقطة تحول مبكرة في حياة فانون الطفل، فلقد تساءل عند مشاهدته لهذا النصب عن صاحبه من هو؟ لماذا هو بالذات؟ ولمّا عرف الحقيقة بدأ فكره يتغير شيئا فشيئا، وقد عبّر عن ذلك فيما بعد فانون الرجل، فقال: " فهمت لأول مرّة أنهم كانوا يحكوا لنا قصة كتبت على إنكار، وكانوا يوجهوننا إلى نظام مزوّر، واصلت اللعب وممارسة الرياضة، والذهاب إلى السينما، لكن ليس كما في السابق، وكأنّه فتحت عيناي وأذناي"[3].

فهذه الفقرة تبيّن بجلاء أن فانون أدرك الحقيقة وعرف أنّ هذا التمثال هو لذلك الرجل محرّر العبيد بهذه الجزيرة، ومنذئذ تغيّرت مفاهيمه وتغيّر إدراكه للأشياء لذلك يتفق كتّاب سيرة فانون على أن هذا المشهد كان أخطر حدث في حياته، جعله يتمرّد على الذهنية التي تكّونت لدى سكان الجزيرة، وربّما أدرك منذئذ طريق الحرية على نطاق واسع، مما جعله يتحول في شبابه إلى شخص متميز عن أقرانه في جزيرة المارتينيك.

ولما جاءت الحرب الكونية الثانية (1939–1945م) بلغ فانون سن الرابع عشرة، فانتقل إلى ثانوية شولشر وكان له صديق تربطه به وبأخيه الأكبر جوبي صداقة وطيدة إذ كان زميلا لأخيه في تلك الثانوية إنه مارسيل مانفيل[(*)] [4] Marcel Manville) ، وهو شاب يتيم الأب والذكر الوحيد من بين ثمانية أخوات، ربطته به

---

[1])-محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 10.

[(**)]شولشر: (1804-1893)كان رئيس لجنة إلغاء الرق التي انشئتها الحكومة الفرنسية في 1848لعب دور كبير في صدور مرسوم إلغاء الرق في 1848/04/27 .

[2])-Alice Cherki, Op. Cit., p. 19.

[3])-Ibid., p. 17.

[(*)]مارسيل مانفيل: (1922-1998) مناضل مارتنيكي مناهض للاستعمار و كان محامي مناضلي جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة التحريرية(1954-1962)

[4])- Alice Cherki., Op. Cit. p. 19.

في البداية علاقة قوية حول كرة القدم وسرعان ما توطدت تلك العلاقة وتطورت بينهما إلى آخر يوم في حياته، وفي هذه المرحلة من حياة فانون وهو بالثانوية جدّ الكثير من الأحداث التي شكّلت محّطات هامة في حياته أهمها: لقاءه مع الأستاذ سيزر [**] ، وهو أستاذ مادة الفلسفة بثانوية شولشر وتذكر بعض المراجع أن فانون لم يدرس مباشرة على يد سيزر، وإنما قد اكتفى بما كان يأخذه عن أخيه الذي كان تلميذا عنده ومع ذلك فإنه قد تأثر به تأثرا بالغا[1] .

والحق أن سيزر قد عمل منذ ظهوره على مسرح الحياة السيّاسية والفكرية في المارتينيك على تغيير معتقدات الأنتليين، فلقد صرّح ذات يوم تصريحا لم يسبق لأحد أن سمعه في تلك الجزيرة في ذلك الوقت حين قال: " إنه جميل وطيّب أن يكون الإنسان زنجيا"[2] ، وقد عدّ هذا التصريح بمثابة سابقة خطيرة، واعتبر سيزر حينها رجلا معتوها، بل فقد راح بعض تلامذته يدققون ويشرحون أعراض ذلك المرض لأنّ هذا التصريح في نظرهم كان فضيحة كبيرة غير مسبوقة في وقت كان يعتقد فيه أن الزنوجية شقاء[3] .

وقد كانت الزنوجية عبارة تطلق على كلّ من له بشرة سوداء أو سمراء من أبناء المستعمرات في إفريقيا والقارّة الأمريكية عموما، وبعد الحرب الكونية الأولى أصبحت قضية وراءها تاريخ طويل، إنه تاريخ العبودية والاضطهاد والاستغلال، إذ كان الرجل الأبيض دائما يرى أن الأسود متخلّف همجي، غبي، دوني، حفيدا للعبيد، هذه هي الزنوجية التي أعطاها سيزر معنا آخر واكتشفها منذ مجيئه إلى فرنسا، إذ قال: " لما

[**] إيمي سيزير من مواليد سنة 1913 شمال جزيرة المارتينيك أحد أهم أعضاء الحركة السريالية، وهو أحد مؤسسي حركة الزنوجية، مناضل في الحزب الشيوعي الفرنسي من منتصف الثلاثينات إلى 1956م، وصاحب حزب التقدم المارتينكي الذي أنشأه في 22 مارس 1958م.

[1])- Christiane chaulet Achour *:* le flamboyant et le guerrier silex aimé Césaire et Frantz fanon, disponible sur "htpp://www.christianeachour.net", consulté le 20/01/2009

[2])-محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 14.

[3])-المكان نفسه.

ذهبت إلى فرنسا ... لم أكتشف فرنسا بل اكتشفت إفريقيا، كان ذلك بالنسبة إلى نورا عظيما أضاء كياني كلّه"[1].

وفي نهاية عام 1939م وبداية عام 1940م وصل الأميرال الفرنسي روبار (Robert)[*] الذي عين من قبل بيتان petain كمحافظ سامي في جزر الأنتيل، إلى بلدة فوردوفرانس رفقة عشرة ألاف بحري قادما من بريست (brest) الفرنسية، بعد أن فروا من حصار القوات الألمانية على الرغم من إن هذا الأميرال كان مواليا لهتلر، وبحضور هؤلاء البحّارة إلى فوردوفرانس مارسوا أشكالا من العنصرية والاحتقار والعجرفة ضد السكّان، وعمل وجودهم على تفكيك العلاقات الأسرية إذ أن الفتيات المارتينيكيات حاولن إقامة علاقات مشبوهة معهم، فضاع الود والاحترام بين أفراد العائلات المارتينكية وأثيرت حفيظة الشباب من هذه التصرفات العنصرية[2].

ولم يندمج هؤلاء البحارة مع المارتينيكيين، الذين ضلوا متقوقعين منغلقين على أنفسهم، لأنّهم كانوا يحتقرونهم ويرون أنهم أقل منهم، وبذلك زال القناع وانقشعت الحقيقة التي كان يخفيها أولئك البحّارة[3] ، ولشدة ارتباط سكان المارتينيك بفرنسا الأم، فإنهم راحوا يفسرون تلك التصرفات العنصرية تفسيرات تبرئ الأم وتحافظ على صورتها الجميلة في أذهانهم، فكانوا يقولون أو يقنعون أنفسهم أن هؤلاء البحّارة هم فقط العنصريين وليس كل سكان فرنسا، بل اعتبروهم بحّارة ألمان ليسوا فرنسيين على الإطلاق [4] .

---

[1])- بيوس ديالو :" حوار مع آخر عمالقة الزنوجية الشاعر إيمي سيزير" مجلة جون افريك بالعربية، العدد، 2 أوت 2004.

[*])- الأميرال روبار: المحافظ السامي للجمهورية الفرنسية في جزر الانتيل الفرنسية إبان حكم الماريشال بيتان.

[2])- Alice Cherki, Op, Cit., pp . 19-20.

[3])- Ibid., p. 15.

[4])- Ibid., p. 17.

وفي نهاية عام 1943م شكّل الكولونيل الفرنسي "تورتي" (Tourtet) المساند لديغول، جيشا مكونا من الأنتليين، وقاد تمردا ضد الأميرال "روبار" (Robert)، مما أدى إلى رحيله دون دماء، وعيّن "تورتي" بعدها من قبل ديغول الذي كانت لديه مساندة شعبية قوية لدى سكان المارتينيك[1] لإعادة الشرعية للجمهورية هناك، فأعاد هذا الأخير تنظيم الجيش، وجنّد فيه كل من المارتينكيين قوادالوب، وقواياني [*] وكلهم تطوّعوا في القوات الفرنسية الحرّة، ذلك أنه في هذه الفترة كانت الحرب دائرة رحاها بين فرنسا وحليفاتها إنجلترا وأمريكا ضد ألمانيا وإيطاليا في نطاق الحرب الكونية الثانية.

إذن شارك شباب الأنتيل إلى جانب قوات فرنسا الحرّة بقيادة ديغول وكان من بينهم الشاب فانون وكان عمره لا يزيد عن الثماني عشرة سنة. وتؤكد أليس شاركي (Alice cherki)[**] أن صديقه مارسيل مانفيل ذكر أن فانون غادر المنزل وقت الغذاء يوم حفل زفاف أخيه الأكبر "فليكس" (Felix) حاملا معه قطعتي قماش باعهما ودفع ثمنهما إلى الأشخاص الذين مرّروه إلى جزيرة الدومينيك المجاورة لينتقل بعدها ورفاقه إلى مواقع التدريبات والمواجهات[2] .

كان ذلك عام 1943م، وكان التحاقه انتقاما لنفسه ولكل الأنتليين من أولئك البحّارة العنصريين الذين تعاملوا معهم باحتقار وفضاضة، وكذلك للكفاح ضد حكومة فيشي [***] العميلة. لقد كانت مشاركته إذن تعبيرا عمليا عن رفضه للممارسات العنصرية واستجابة لنداء ضميره بوصفه فرنسيا ومدافعا عن الحق في أي ظرف

---

[1]- محمد الميلي: المصدرالسابق، ص. 17.

[*]- المستعمرات الفرنسية القديمة في حزر الأنتيل الصغرى: المارتينيك، القوادالوب، القوايان، ريونيون.

[**]- أليس شاركي (Alice Cherki): طبيبة مختصة في الأمراض العقلية، كانت زميلة فرانتز فانون في مستشفى البليدة في الجزائر وجارته بالمنزه في تونس، وكذا في مستشفى منوبة بتونس ورفيقته في النضال لتأييد القضية الجزائرية.

[2]- محمد شرقي: المرجع السابق، ص. 164.

[***]- حكومة فيشي: اسم الحكومة التي ترأسها المارشال بيتان والتي كان مقرها منطقة فيشي الفرنسية غير المحتلة من قبل الألمان.

مهما كان، وقد كان يقول[1]: "كلّما تعلق الأمر بكرامة وحرية الإنسان نكون معنيين بيضا أو سودا أو صفر، وفي كل مرّة يتعرّضون للتهديد في أي مكان، سأنضم بدون عودة" ، وبمشاركته هته إصطدم فانون بشبح العنصرية.

لقد كان المتطوعون مزيجا من أجناس مختلفة (من المستعمرات القديمة، من الأنتيل، من السنغاليين الذين يتكونون من الجنود ذوي الأصول الإفريقيّة السوداء ومجموعة أخرى مشكّلة من الطابور المغربي (les tabors)[*]، الجزائريون وفرنسيو إفريقيا الشمالية، ومتطوعون هاربون من فرنسا)[2]. نقلوا على متن سفينة في جنح الظلام، وكأنهم عبيد. لقد مورست ضدّهم العنصرية بكافة أشكالها، إذ رتبّوا في نظام تدريجي عنصري، بحيث فرّق بينهم في نوعية الخيام ومساكن الجنود، وفي نوع القبّعات التي كانوا يضعونها على رؤوسهم الأوربيون كانوا يضعون القبعة أما الأفارقة فيحملون الشاشية، وكان السود منهم يتعرّضون للضرب أحيانا، وقد تعرّض فانون نفسه وصديقه مانفيل لذلك[3], كما كانت كتائب الفرنسيين تعزل عن كتائب الأفارقة، وكان الفرنسيون يسخرون من هؤلاء السود ويذكرّونهم أنهم من الدرجة الثانية.

وإذا كان فانون قد أعلن في بداية انضمامه للقوات الفرنسية عن المثل العليا التي جعلته ينخرط في هذا الجيش، فإن تلك التّجربة التي عاشها بعد ذلك أثناء الحرب، قد هزت كيانه من الداخل، وكانت زلزالا طهّر كيانه من كل المثالية التي كان يعتنقها لقد أدرك أنّه كان يدافع من أجل قضية لا تعنيه وليس كما كان يعتقد من قبل[4]، ولقد عبّر عن استياءه ومعاناته وخبرة انخراطه في الجيش الفرنسي من خلال رسالة وجّهها إلى والديه في الثاني عشرة من نيسان–أفريل 1945م.

---

[1])- Alice Cherki, Op.Cit., p. 22.

[*]- الطابور المغربي: هم الريفيون المغاربة الذين جندوا تحت اللواء الفرنسي.

[2]) - Alice Cherki, Op.Cit., p. 23.

[3])-Ibid., p. 24.

[4])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 17.

ومما قال فيها[1] : "مرّت سنة على رحيلي من فوردوفرانس لماذا؟ للدفاع عن مثل مهملة ! ؟ أشك في كل شيء حتى في نفسي، إذ لم أعد، وإذا علمتم يوما ما أنني مت في مواجهة العدو، عزّوا أنفسكم، ولكن لا تقولوا أبدا أنني مت من أجل قضية جميلة" إن هذه الرسالة كانت على ما يبدوا أوّل انقلاب حدث في تلك القيم التي كان يعتنقها فانون، لقد كان وهو في جزيرته ينظر إلى فرنسا على أنّها تمثل الحرية والإنسانية، بل وربما المحبة أيضا، ولكن عندما اصطدم بالحقيقة المرّة وهو في الجيش الفرنسي على أرض إفريقيا أدرك ما كان خفيا عنه من قبل وهو أن تلك المثل التي كان ينسبها للوطن الأم (فرنسا) هي لأبنائها الحقيقيين فقط، وليس لأبناء جزر الآنتيل، ومن هنا يستطيع الباحث أن يقرّر أنّ هذه هي التّجربة الحقيقية التي نقلت فانون من مدافع عن فرنسا إلى مقاوم لها، كما سنرى في فصول هذه الرسالة.

لقد كان تطوّع فانون ضمن صفوف القوّات الفرنسية أوّل احتكاك له مع إفريقيا، فلقد انتقل ورفاقه إلى شمالها عام 1944م ليتلقى تدريبات هناك للتحضير لهجمات عن طريق إيطاليا وجنوب فرنسا، فمّر بالمغرب(قرصيف)، ومنها إلى بجاية بالجزائر ليتلقى تدريبات عسكرية تؤهلّه كضابط، ثم انتقل إلى وهران بالغرب الجزائري[2] لقد التقى فرانتز فانون أخيرا بأصوله البعيدة وزنوجته التي كان ينكرها أو ربّما كان لا يواجهها.

هذا وقد أظهر خلال هذه الرحلة الطويلة والمواجهة العسكرية الشرسة في أوروبا شجاعة نادرة، وأبلى البلاء الحسن في المقاومة، حتى أصيب بجروح في ظهره من خلال مشاركته في معارك قرب الحدود السويسرية بالألزاس سنة 1945م فكوفئ الشاب فانون عن ذلك بتقليده وساما للشجاعة،–من قبل راوول صالان[*] ومنها عاد

---

[1])- In Revue (sud –nord), N°22, éditions ERES, 2008. P. 19.

[2])- محمد شرقي: المصدر السابق، ص. 165 .

[*])– راوول صالان: أصبح فيما بعد قائد الجيش الفرنسي في الجزائر، وقائد المنظمة العسكرية السرية.

إلى جزيرته الأم المارتينيك[1] إذ استأنف دراسته الثانوية، وتحصل على شهادة البكالوريا في العام ذاته.

وبهذا الإنجاز العلمي الذي حققه فانون بعد عشرين عاما من حياته يكون قد أنهى نظام تمدرس استعماري، كان الفرنسيون من خلاله يحاولون تعميق قيم الطاعة والإخلاص والوفاء للاستعمار وتمجيد عظمة تلك الحضارة الأوربية المسيحية، وكان التعليم يتم لغاية واحدة وشعار واحد هو: "تعليم أبناء المستعمرات حتى يسهل استعبادهم"، ولقد أدرك فانون ذلك فيما بعد، حيث عرف أنّ السود يحسّون أن تلك المفاهيم لا تجعلهم سوى عبيدا "سودا بأقنعة بيضاء"[2] .

بعد عودة فانون إلى الجزيرة كما أسلفت، ساند أستاذه الروحي سيزر في ترشحه للبرلمان ممثلا عن الحزب الشيوعي الفرنسي لتشكيل أوّل مجلس وطني للجمهورية الفرنسية، ولقد كانت مساندته لأستاذه في هذه المهمّة رد فعل عن السلوكيات التي عانى منها أثناء وجوده في الجيش ودعما لفكرة سيزر في مبدأه "جمال الزنوجة".

إن هذا الموقف من فانون إزاء أستاذه وإن دل على الروابط المعنوية التي تكونت بينهما من قبل، فإنّها كانت تعبيرا واضحا عن طبيعة توجهّه الفكري الجديد في هذه الفترة، هذا وقد ذكر في مقال له بمجلة إسبري" ESPRIT" سنة 1955م بعنوان "إنتيليون وأفارقة"، أن أولئك الآنتليين الذين انتبهوا أخيرا إلى أنّهم أفارقة راحوا يسعون إلى التعلق بالزنوجة، ولكنهم في المقابل لاقوا رفضا من أولائك الأفارقة الذين اتهموهم أنهم باعوا إفريقيتهم، وبالتالي لا يحق لهم الانضمام إليهم، وقد عبّر فانون في هذا المقال ذاته عن ميلاد البروليتاريا في جزيرة المارتينيك، مما يعني أن سكان هذه الجزيرة قد تتكون لديهم طبقة عاملة تستطيع أن تكون أداة ضغط على الحكومة

[1])- فرانتز فانون: معذبوا الأرض، المصدر السابق، ص. 8.
[2])- محمد شرقي: المرجع السابق، ص. 172.

الفرنسية المحتلة لهذه الجزر، ونحن نفهم من خلال هذا التعبير أن فانون كان يبحث عن أدوات الضغط والمقاومة من أجل إنسانية أبناء جزيرته الذين كان ينظر إليهم نظرة منحطّة من قبل السكان البيض الأوربيين[1].

ولا شك أن الدارس لحياتي فانون وسيزر، يدرك ولأوّل وهلة أنّ الشيء الذي كان يجمع بين الرجلين هو اللّون الأسود، والمواطنة الفرنسية، والمولد الواحد المارتينيكي وحبّهما للشعر والأدب، ولكنّه يدرك في المقابل أنّ الرجلين كانا يختلفان في النّظرة إلى فرنسا، فبينما كان سيزر يؤثر على مواطنيه بفصاحة اللّغة الفرنسية وافانينها لخدمة الثقافة الفرنسية ومصالحها الكبرى، كان يستخدمها فانون لصالح الشعوب المضطهدة في كل مكان من العالم الذي تهيمن عليه الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية.

ويلاحظ أنّ اشتراك الصديقين في الحرب الكونية الثانية إلى جانب فرنسا كان يختلف اختلافا جوهريا، فبينما كان سيزر يرفض رفضا مطلقا مشاركة الطلبة الثانويين في قوات فرنسا الحرة، بقيادة ديغول، كان فانون من المتحمسين إلى تلك القوات التي أنقذت فرنسا من براثين النازية والفاشية.

والحق أن فانون كان يشعر في نفسه أن أستاذه سيزر خائن لقضية الشعوب المضطهدة بإخلاصه لفرنسا، ولكنه لم يكن يستطيع التعبير عن ذلك بلسانه نظرا للعلاقة القائمة بينهما[2] . وعلى الرغم من اشتراكهما في ثقافة واحدة وهي الثقافة الفرنسية، فإن كلاّ منهما تشرب من مبادئ وقيم تختلف عن مبادئ وقيم الآخر

---

[1])- Benjamin Stora,:" la vie de Frantz fanon, et la guerre d'indépendance Algérienne", in (pensé aujourd'hui avec Frantz fanon), actes du colloque fanon ,CSPRP-université, paris 7, février 2008 édition on ligne disponible sur "http:// www.csprp.univ-paris-diderot.ffactes_fanon.html, consulté le 04/012009

[2])- دافيد كوت : فرانتز فانون، ترجمة عدنان كيالي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، كانون الثاني 1971م، ص. 96.

فبينما ظلّ سيزر وفيا للدولة الفرنسية المستعمرّة التي فرضت ثقافتها على الجزيرة منذ قرون خلت كان فانون معاديا لهذه الدّولة لما كان يراه من عنصرية وتفاضل بين الشعوب في سياستها بل في ثقافتها عموما.

وعند المقارنة بين الرجلين وبين شخصيات ثورية عالمية أخرى، فإننا نجد فانون أقرب من سيزر لـ:

أرنستوا شي جيفارا(1928–1967م)Arnesto Che Guevara وغاريبالدي(1807–1882)Garibaldi وأحمد سكوتوري(1922–1984م) Ahmad Sekoutouri وكوامي نكروما(1909–1972م) Nekromah ومالرو(1901–1976م) André Malraux وهي شخصيات كافحت كلها من أجل المضطهدين والمظلومين في العالم [1].

أما إذا عدنا إلى الحديث عن دراسة فانون بعد حصوله على شهادة الثانوية العامة، فإننا نجده من بين الطلبة المحظوظين، لأنّه كوفئ بمنحة دراسية من جامعة ليون الفرنسية، وبينما تذكر بعض المراجع أن أستاذه سيزر هو الذي مكّنه من هذه المنحة [2]، تشير مراجع أخرى إلى أنّ هذه المنحة جاءت مكافأة له من إدارة الجامعة على مشاركته في الحرب، والشيء المهم في هذا السياق هو أن فانون على الرغم من انقطاعه عن الدراسة والتحاقه بصفوف الجيش الفرنسي أثناء الحرب الكونية الثانية فإنه بمجرد أن خلع البزّة العسكرية عاد على التو إلى حقل الدراسة، واستطاع في السنة ذاتها أن يحصل على شهادة البكالوريا التي ستغير حياته بعد ذلك.

وقبل التحاقه بالجامعة اقترح عليه أحد أصدقاءه وهو موزول"Mozol" دراسة طبّ الأسنان، ولكن تكوين فانون الفكري والفلسفي جعله يختار شيئا آخر يتصل

[1])- - دافيد كوت ، المرجع نفسه، ص ص . 86- 94.
[2])- محمد شرقي: المرجع السابق، ص. 165.

بالإنسان ذاته وليس بأحد أطرافه فقط، واختار دراسة الطبّ الذي جعله على اتصال مباشر مع الإنسان.

خرج إذن فرانتز فانون من فوردوفرانس سنة 1947م للدراسة في ليون بفرنسا، فكان طالبا نجيبا يلتهم الكتب التهاما، وكان له اهتمام كبير بعلم النفس التحليلي، كما كان يهتم بالأدب ويتابع دروس في علم الأجناس (Ethnologie) ، ويقرأ في علم الظواهر والوجودية، ويدرس علاوة على كل ذلك الفلسفة أيضا [1] حتى أن الأستاذ محمد الميلي(1930–حي 2009م) يؤكد أن فانون أخبره أنّه مجازا فيها وإن لم يكن قد أنهى دراسة التخصص في هذا المجال[2].

لقد كان فانون كذلك في هذه الفترة يجمع بين جدلية هيجل (1770–1831م) ووجودية سارتر واشتراكية ماركس وشطحات نتشيه وشعر داود ديوب Daoud Diop [*] وروائع أستاذه سيزر، فكان إطلاعه في الثقافة الأوروبية واسعا على خلاف الثقافة العربية الإسلامية والشرقية عموما، التي لم تكن لديه أدنى فكرة عنها، وذلك بدون شك راجع لنظام التعليم الفرنسي الذي كان مهيمنا آنذاك على المستعمَرات.

كما كانت لفانون محاولات في عالم المسرح ما بين سنتي (1949–1950م) وبالفعل فلقد كتب ثلاث مسرحيات اثنتان هما: "الأيدي المتوازنة" و"العين تغرق" وقد ضاعتا منه ولم يعثر لهما على أثر بعد تنقلاته بين الجزائر وتونس فيما بعد، ومسرحية ثالثة بعنوان" المؤامرّة" ذكرها "فليب لوكا" (Philippe Lucas) في كتابه "سوسيولوجية فرانتز فانون"[3] .

---

[1])- Alice Cherki , Op. Cit., p. 28.

[2])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 18.

[*])- داوود ديوب: ولد عام 1927 وتوفي عام 1960، ترك حوالي 17 قصيدة ، ستة بعنوان دفات هاون (coupe de pilon).

[3])- Philippe Lucas : Sociologie de Frantz fanon anthropologie de la libération, SNED, 1971, p. 218.

كما كان له نشاط في مجلة تدعى (TAM-TAM) وكان من أحد محرّريها وكانت موجهة إلى الطلبة القادمين من المستعمرات[1]، وكانت فرنسا في هذه المرحلة تعيش مشاكل داخلية فالقوى التقدمية فيها تشهد تراجعا وتقلصا، والحرب الباردة كانت على أشدّها بين المعسكرين الشرقي والغربي، وحركات التحرّر تتعاظم في أنحاء العالم والرجعية تسترجع أنفاسها في ألمانيا الغربية، وفشل فرنسا في سياسة الإدماج التي عرضتها على مستعمراتها، حيث تأكدت كل الشعوب المقهورة أن المستَعمر(بفتح الميم) لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يرقى إلى مستوى المستعمر(بكسر الميم) في ظل الهيمنة الإمبريالية.

وكان فانون في هذه المرحلة يبحث عن توجّه يحميه من ذلك الصراع الذي كان يعايشه، وهو إيمانه بقيم مثالية مجرّدة، ووضعيته كفرنسي–زنجي– فلم يجد في هته الفترة أحسن من اليسار لتحقيق نوع من التوازن بداخله، فالتحق بجماعات المثقفين من اليسار الذي كان يجمعهم العديد من الدوائر الفكرية والثقافية مثل مجلة الازمنة الحديثة "لسارتر"، ومجلة الفكر "Esprit " لموني، ومجلة الحضور الإفريقي "Présences Africaines "التي أنشأها غليون ديوب سنة 1947م، وراح فانون يشغل هذه المنابر الفكرية لدعم البروليتاريا الجديدة في فرنسا [2] .

وربما كان هذا الوسط الفكري الدافع الأساس وراء إبداع فانون غير المسبوق فيما بعد، عندما ألف كتابه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" سنة 1952م، وهو في سن السابع والعشرين من عمره [3].. كما شارك في هذه المرحلة أيضا في مختلف النشاطات التي كان يقوم بها بعض الناشطين السود أمثال سنغور، وسيزر هذا

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 30.

[2])- محمد شرقي: المصدر السابق، ص . 172.

[3])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 20 .

الأخير الذي كان معجبا بسنغور إذ قال عنه في حوار معه: " بفضل سنغور عرفت إفريقيا وفهمت حضارتها ..." [1] .

والحق أن علاقة فانون باليسار الفرنسي في هذه الفترة كانت علاقة عادية منسجمة خاصّة عندما يدعو للحرية، كان إمّا يتحدّث عن ذلك بصورة محددّة تخص شخصا معينا، أو عامة موجهة لكافة الإنسانية، ولم يكن في هذا ما يقلق اليسار الفرنسي في هته الفترة، ولكن هذه العلاقة ستتغير بعد أن ينضم فرانتز فانون إلى الثّورة التحريرية الجزائريّة [2] ، وهذا ما سنراه في فصل آخر من هذه الرسالة.

وقد كان فانون في فترة الأربعينات طالبا نشيطا في ليون عام 1947م، رزق بابنة تدعى "ميراي" من امرأة لم يتزوّجها، ولكنّه اعترف بها عام 1948م. وعلى الرغم من أن حياة فانون الخاصة كانت غامضة وحتى المقربين منه لم يكونوا يعرفون عنه الكثير فحتى سارتر الذي كان فانون متأثرا به تأثرا غير مشروط ويحبه حبا مميزا لم يكن يعطيه تفاصيل عن حياته وعندما كان سارتر يطلب ذلك كان فانون يقول أنّ ذلك ليس مهمّا،وكان دائما يقول أيضا لصديقه مانفيل" إننا لا نروي ماضينا بل نقدمّ شهاداتنا" كان فانون يرى أن الأهم هو الحديث عن نضالاته وكفاحه وآماله وليس عن حياته الخاصة[3].

وابتداء من السنة الرابعة طب بدأ اهتمامه بطب الأمراض العقلية، وكان هذا التخصّص يدرس في هذه المرحلة في ليون تحت إشراف البروفسور ديشوم (Déchaume) في مستشفى (Grange blanche) . وكان ذلك حافزا له لكتابة مقاله الأعراض الشمال الإفريقيّة [*].

---

[1])- بيوس ديالو: المرجع السابق، ص. 84.

[2])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 85.

[3])- Alice Cherki : Op. Cit.,P. 11.

[*]- مقال الأعراض الشمال إفريقية : نشر في مجلّة esprit في فيفري 1952م .

وقد عالج في هذا المقال تساؤلات جديدة حول "تشييء الآخر" ورفضه ووصفه بصفات حقيرة (الجرد الصغير) "Raton"،(المغفّل) "Melon"، وتسميات أخرى كثيرة عنصرية في مجملها، فرضها الرجل الأبيض،وبالضبط القطاع الطبّي الفرنسي على الرجل الشمال الإفريقي، فكانوا إذا قصدهم مريض لا يعتبرونه إلاّ مجرد ألم لا غير فالمريض عندهم غير موجود، فهو مجرد شيء ولا يعبرون عن وجوده إلا بالكلام لوصف الأعراض التي يستقبلونها، خاصّة عمّال الشمال الإفريقي فلقد كانوا مضطهدين مهّددين في أمنهم واستقرارهم،وحتى اجتماعيا كانوا معزولين عن أيّ نشاط.زيادة على كلّ ذلك اختلاف اللّغة كان يحول دون التواصل وكان عائقا حقيقيا في خلق الفهم والاحتواء، فلم يكن من نصيب الشمال الإفريقي إلاّ العنصرية والاحتقار.

انطلاقا من كل هته الظروف إذن التي كانت موجودة في القسم الإستشفائي للبروفسور"ديشوم"، والتي لم يكن أحد يتجرأ على ذكرها[1] أنتقل فانون إلى دول (Dole) بفرنسا ليعمل كطبيب مؤقت هناك،بعدها انتقل إلى الأنتيل للعمل هناك وصادف أن وجد منصبا شاغرا تركه طبيب آخر.

لكن فانون السياسي أصطدم هناك بتجربة مريرة مخيبة للآمال، إذ أدرك أن استقلال الأنتيل شيء ميئوس منه خاصّة وأنّ أغلبية سكانها كانوا مؤيدين لبقائها تابعة لفرنسا[2] .وعبّر عن ذلك بقوله: "التقيت هنا بالسراويل أكثر ممّا التقيت بالرجال"[3] معنى ذلك أنّ موقف أبناء الجزيرة لم يرقه، فتأسّف كثيرا لذلك وقرّر العودة إلى فرنسا مرّة أخرى وقدّم فانون لأستاذه ديشوم أطروحته التي ستؤهله لأن يصبح طبيبا مختصا في الأمراض العقلية، كانت بعنوان " بشرة سوداء أقنعة بيضاء"

---

1)- Alice Cherki : Op. Cit., P.31.
2) – Ibid., p. 33.
3) - Ibid., p. 35.

رفضها أستاذه لأنّها عولجت بطريقة غير مسبوقة، لاسيما وأنها من رجل أسود وطرحت أفكارا حول العنصرية، فعاد فانون وأختار موضوعا آخر أكثر أكاديمية بإيعاز من أحد أصدقائه حول الاضطرابات العقلية بعنوان "الطبّ المداري حول مضاعفات المرض العقلي وأثرها على النخاع الشوكي والمخيخ" .

Troubles mentaux et syndromes psychiatriques dans l'herédo » dégénérescence spino-cérébelleuse >>

وناقش في التاسع والعشرين من تشرين الثاني– نوفمبر عام 1951م أطروحته وأصبح طبيبا مختصا في الأمراض العقلية[1].

وأنتقل إلى مستشفى "سان ألبان" (saint alban) سنة 1952م تحت إشراف البروفسور توسكال Tosquelles [*] في لوزان (lausane) بفرنسا مستخلفا هذه المرّة أيضا طبيبا آخر كان يعمل بها يدعى أوري (Oury)، بقي فانون هناك خمس عشرة شهرا ويبدوا أن توسكال كان له الأثر الواضح على فانون بطريقته العلاجية للأمراض العقلية[2].

ويروي بعض المقربين من فانون أنه قد أستقبل في سان ألبا إستقبالا عاديا ولم يعامل أبدا على أنه زنجي، على الرغم من أن حساسيته كانت مفرطة تجاه هذه النقطة، ومن الشواهد على حساسيته تلك ما رواه زميله موريس ديسبينوي (Maurice Despinoy) حين قال:"كنت وزوجتي في إحدى المقاهي فشاهدت كيف أنّ فانون إغتاض وصرخ في النادل عندما شاهد سكّرا جافا بلون القهوة في قاع الفنجان،وطلب منه تغيره في الحال".ويعلّق زميله موريس على ذلك أنّه ناتج عن حساسيته الشديدة

[1]) –Philippe Lucas, Op. Cit., P. 213.

[*]- توسكال : طبيب إسباني مختص في الأمراض العقلية ورائد علم النفس المؤسساتي وهو أحد مناهضي حكم فرانكو في اسبانيا

[2]) -Alice Cherki : Op. Cit., P. 35.

لزنجيته، ويؤكد ذلك بما شاهده من هذه الظاهرة لدى الكثير من المارتينكيين ويعزي ذلك إلى إحساسهم بالعنصرية [1].

وفي هذه السنة (1952م) التقى ذات يوم بقاعة المسرح الذي كان يتردّد عليه دائما بفتاة تدعى ماري جوزيف دوبلاي " Marie –Josèphe duble" وهي فتاة فرنسية من مدينة ليون، نشأت بينهما علاقة أدّت إلى زواجهما وكان عمرها ثماني عشرة سنة وهو سبع وعشرين سنة . وأنجبت له أبنا سمّي أوليفي"Olivier"، لقد أحبّ فانون هذه المرأة وعاش معها طيلة حياته، كما كان على اتصال دائم بعائلته حتى وفاته وكان يحرص على حياته الخاصّة ويحاول أن يجعلها بعيدة عن نشاطاته المهنية والنضالية[2].

لقد بقي مترجمنا إذن في ليون رفقة أستاذه توسكال خمسة عشر شهرا، وخلال هذه الإقامة القصيرة أحبّ فانون أستاذه كثيرا، وكان يتحدث عنه بإعجاب شديد، ذلك أنّه كان من أبرز تلامذته المجتهدين،كما كان توسكال من جهته محبّا لفانون مقدّرا لاجتهاده ومناقشاته وإلتزامه في "سان ألبان " لقد أعتبر توسكال حضور فانون الحقيقي يتجاوز بكثير مدّة إقامته معهم وقال عنه سنة 1975م أي بعد وفاته بأربعة عشر عاما: " أمّا فيما يخص حذره (عدم ثقته)، والتي كان يعتبرها البعض مرضية،كانت في الحقيقة يقظة في مواجهة الخطابات المعيارية والمختزلة"[3] .

بعدما أتم فانون تخصصه في طبّ الأمراض العقلية وزادت خبرته أثناء عمله مع البروفسور توسكال" سنة1953م بدأ يسعى للحصول على منصب عمل، فشارك في مسابقة "ميديكا" (Médicat) للالتحاق بمستشفيات الأمراض العقلية،وبالفعل فقد نجح في هذه المسابقة، وبعث إلى سنغور(1906–2001م) يطلب منه مساعدته

[1]) - Maurice Despinoy ,entretien in Revue sud-Mord, Op. Cit., P. 108.
[2]) – Josie fanon, entretien in Revue Révolution africaine, N° 1241, 11- 12- 1987.
[3]) - Alice Cherki, Op. Cit., P. 36.

للحصول على منصب في السنغال، ذلك أنّ سنغور كان في هته الفترة يتقلد مسؤوليات معتبرة في السنغال، فلقد كان نائبا في الجمعية التأسيسية الفرنسية مابين (1945–1946م) ونائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية من 1946 إلى سنة 1955م وسكرتيرا للدولة في الحكومة الفرنسية من 1955إلى غاية 1956م وأصبح سنة1960م أوّل رئيس للجمهورية السنغالية وبقي في منصبه إلى غاية عام1980م وكان شاعرا وفيلسوفا للزنوجة إذ كان يقول: " الأبيض لا يستطيع البتة أن يكون أسود لأنّ السواد هو الحكمة والجمال" .

ولهذه الاعتبارات كلّها طلب فانون من سنغور مساعدته على إيجاد وظيفة في مجال اختصاصه، ولكن هذا الأخير لم يعره اهتماما ولم يكلّف نفسه حتى الردّ عليه لأنّه كان غارقا في توظيف الفرنسيين في الدوائر الحكومية، إذ كان محبّا لهم أكثر من الأفارقة فانتقل للعمل مؤقتا كرئيس الأطباء في مستشفى" أسبيس دي بوتورسن" (Hospice de Pontorson) بالنورموندي (Normandie)وبقي هناك مدّة ثلاثة أشهر وحاول تطبيق المبادئ التي أخذها عن أستاذه ولكنّه فشل في ذلك وطرد من العمل وأعتبر رجلا زنجيا مجنونا وإستفزازيا[1].

المبحث الثالث:فانون من فرنسا إلى الجزائر.

بعد التجربة العلمية الزاخرة بالمعارف الطبية والإنسانية التي عاشها فانون بفرنسا، يرحل هذه المرة إلى شمال إفريقيا، إلى المستعمَرة التي كان الفرنسيون يسمونها"المستعمَرة الفذة" ليخوض تجربة أخرى أكثر معاناة نفسية ومعرفة اجتماعية وإنسانية جديدة. كان ذلك سنة 1953م، وهو تاريخ تحّصل فانون على منصب عمل

[1] –Houria Chefai-salhi : " un tragique destin", Revue Sud-Nord, Op. cit., P. 17.

بمستشفى جوانفيل[*] " Joinville" في البليدة بالجزائر في الثاني والعشرين من تشرين الأول–أكتوبر 1953م وباشر عمله في الثالث والعرشين من تشرين الثاني–نوفمبر من السنة ذاتها[1] .

وكانت هته الفترة فترة غليان دائم في الجزائر وما جاورها فلقد احتدم الصراع بين جناحي حركة انتصار الحريات الديمقراطية"MTLD" (المركزيين والمصاليين).كما كان الجوّ السياسي مشحونا نتيجة لتوتر العلاقات بين سكان المحميتين تونس والمغرب مع الاستعمار الفرنسي باعتباره كان مشتركا بين هذه البلدان الثلاثة. وبوجه أخص كانت منطقة[2] البليدة التي عيّن فيها فانون طبيبا بمشفاها، معقلا حسّاسا ومركزا مهما من مراكز الحركة الوطنية،إذ كان بها شخصيات مهمة لعبت دورا محوريا في النضال بالجزائر أمثال: سعد دحلب، بن يوسف بن خدّة(1920–2002م)، عبّان رمضان(1920–1958م)، أحمد بومنجل محمد يزيد(1923–2003م) وغيرهم، وفي أقل من سنة مرت على تعيينه شاهد فانون بركان الثّورة الجزائريّة يهزّ أركان الاستعمار الفرنسي، ليس فقط في الجزائر بل في شمال إفريقيا كلّها أيضا[3] .

لقد شغل فانون منصب رئيس مصلحة بالمستشفى، وكان يملك معارف نظرية واسعة في مجال تخصّصه كما تؤكد ذلك "أليس شاركي" زميلته ورفيقته في النضال والمختصة في الأمراض العقلية أيضا[4] والتي التقت به أول مرّة في شهر كانون الثاني– جانفي سنة 1955م في إطار ندوة نظمتها جمعية الشبيبة الجزائريّة

---

[*]– مستشفى جوانفيل: بعد الاستقلال أخذ اسم فرانتز فانون.

[1] - Nouara Hocine : les intellectuels Algériens (Mythe ,Mouvance et Anamorphose , éditions , Dahlab –Enag , 2005 , P. 203 .

[2] - خالفة معمري ، عبان رمضان ،تعريب زينب زخروف ،مطبعة ثالة ، جويلية 2007 ، ص. 7.

[3])- محمد شرقي: المرجع السابق، ص ص . 179- 180.

[4]) –Alice Cherki : Op. Cit., PP. 12-13.

للعمل الاجتماعي وهي إحدى الهيئات التي تجمع بين شباب من جنسيات مختلفة(مسلمين مسيحيين، تقدمين، وفئة من اليهود). وكانت تطرح العديد من القضايا المعاصرة كموضوع العنف في الجزائر[1].

لم يكن طبّ الأمراض العقلية بالنسبة لفرانتز فانون مجرد مهنة، بل كان طريقا للكشف عن آلام ومعاناة المضطهدين، خاصة في المستعمرات الإفريقية، ولقد أكسبه هذا التخصص فيما بعد خبرتين هامتين:

الأولى: مساعدة الضحايا على تمالك أنفسهم مما كان يصيبهم من خلال معرفة سبب مرضهم، وهو الجانب الطبّي من عمله.

الثانية: هي العمل على التغلب على أسباب هذا المرض من جهة أخرى، وهو الشق السياسي من عمله[2] وبدأت رحلة فانون في هذا المستشفى الذي أنشأ سنة1934م وكان الأول من نوعه في الجزائر[*] .

وفي سنة 1938م وجدت محاولة جدّية لإنشاء مؤسسات إستشفائية في هذا التخصص العقلي بكل من وهران وقسنطينة، ولكن اندلاع الحرب الكونية الثانية حال دون إنجاز هذا المشروع إلى ما بعد الحرب. فأنشأت ملحقات بكامل المستشفيات العامة للبلاد، وكان مسموحا للمرضى الذين يمتثلون للشفاء النسبي بزيارة مستشفى البليدة مرّة كل شهر للفحص والمعاينة[3] .

كان المستشفى بناءا كبيرا أقيم على مساحة واسعة وكأنه مدينة داخل مدينة والتنقل فيه من مكان إلى آخر يستوجب سيارة أو دراجة. وكان المستشفى من الناحية

---

[1]) - Ibid., p. 13.

[2])- فرانتز فانون : معذبوا الأرض ، المصدر السابق ، ص. 9.

[*]- قبل هذا التاريخ كانت توجد ثلاثة مصالح تسمى (الخط الأول)وهي مصالح مفتوحة للمعاينة، كانت موزعة في كل من الجزائر العاصمة، وهران، قسنطينة، وفي المصلحة الأولى كان مركز كلية الطب في مصطفى باشا وهي أكبر المصالح.

[3] -Alice Cherki : Op. Cit., P. 92.

الهندسية شبيها بالسجن، وهو الطراز المعماري المعتمد في مختلف المستشفيات الخاصة بالأمراض العقلية في فرنسا كلّها. يضم مجموعة من الأجنحة (Les Pavillons)مخصصة للمرضى، بعضها قديم يشبه السجن وبعضها أكثر حداثة ويضم كذلك المصالح الإدارية الداخلية وقاعة كبيرة للحفلات، ومسجد حوّل بعد ذلك إلى ورشة عمل للمساجين. أو بالأحرى يمارسون فيها بعض النشاط الخاص بالعلاج والتابع للبرنامج اليومي الذي يضعه الأطباء، كما كانت لهم ضيعة[**] تحيط بالمستشفى، يعملون فيها و تسهم في تغذيتهم من جهة، وفي تنمية صحتهم العقلية من جهة أخرى ولكن عملهم هذا لم يكن مبرمجا لهدف علاجي معين، بل كان مجرد إيراد اقتصادي يدخل المستشفى.

وإن كان فانون بعد وصوله حاول استعمال ذلك في برنامجه العلاجي ولكنه لم يستطع،كان المستشفى محاطا بمنازل وظيفية تزينها الحدائق، وقد منحت لفانون واحدة عاش فيها طيلة الثلاث سنوات التي عمل خلالها في المستشفى (1953–1956م)، فالمستشفى كان مجهزا بكل مستلزمات العيش، لأنه كان موجها أساسا لعلاج الحالات المزمنة، حيث كان المرضى يمكثون فيه طويلا[1] .

ولما وصل إليه فانون سنة 1953م، لم يكن فيه طبيب مختص في الأمراض العقلية من أصول جزائرية[2] كانوا أربعة رؤساء فرنسيين، على أربع مصالح، كل منهم له توجهاته وإيديولوجيته ومشاربه الخاصة[*] .كانت المصلحة التي يشرف عليها

[**]- الضيعة: منحت بعد الاستقلال لوزارة الفلاحة.

[1])- Ibid., P. 89.

[2])- فرانتز فانون: من اجل إفريقيا ، ترجمة محمد الميلي ، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ص. 92.

[*]- راني (Ranée) : كان تلميذ الدكتور " بورو" (porot) الذي يرى أن الإنسان الشمال إفريقي بدائي متخلف وتطوره العقلي ناقصا وراثيا. أما الطبيب الثاني فهو لاكاتون (Laquaton): فرنكاوي،كان من الأوائل الذين وصلوا إلى مستشفى البليدة. أما الطبيب الثالث فهو ديككار (Dequeker) : كان عاشقا للسينما ومحبا لها.

الطبيبة الرابعة هي ميكيسى (Micucci): وهي المرأة الوحيدة التي كانت معهم وكانت منطوية على نفسها.

فانون تضم مائة وخمسة وستين أوربيا ومائتا جزائري[1] يسهرون على علاج ألفي مريض و كان المستشفى معدا أساسا لاستقبال ثمان مائة مريض [2].

كان المستشفى عندما وصله فانون، في حالة مزرية، طريقة العلاج تقليدية بدائية والأطباء الكلاسيكيون، متأقلمون مع الأوضاع المتدهورة في المستشفى ولم تكن لدى أحدهم الجرأة للحديث عن ذلك أو فضحه. ولكن بوصول فانون انكشف كلّ شيء،إذ أحدث ثورة جذرية في هذه المؤسسة، بمساعدة بعض زملاءه الأطباء خاصة وأنه كان يؤمن بضرورة بل بإمكانية الإتّحاد والترابط والاتفاق على الرغم من الاختلاف وقدم صورة دقيقة عن الوضع من خلال مقال نشر في مجلة،"L'information psychiatrique" [(*)] وكانت هذه بداية عمله في المستشفى.

اعتمد فانون في علاجه على المعالجة الاجتماعية –متأثرا في ذلك بأستاذه توسكال– التي تتوجه أساسا للناحية الحسية والعاطفية والجسدية للمرضى، ومحاولة إعادة تنشيط الحياة بداخلهم من جديد، وقد تأثر في ذلك بالمنهجية الظاهرية (الفينو مينولوجية) إذ كان يتابع محاضرات الفيلسوف الفرنسي الظاهري موريس ميرلوبني سنة 1950م[3] .

وقد بدأت المنهجية الظاهرية كفلسفة في بادئ الأمر، ثم تحولت إلى الحفاظ على المنهج النفسي في وصف الظواهر، إنتشرت بأوروبا مابين سنتي(1920–1930م)[(**)]، وتقول الظاهرية بالإبقاء على المنهجية النفسية في وصف الظواهر ويقول عبد الفتاح الديدي في كتابه الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة : "إنّ الظاهرية

---

[1])-محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 21.

[2])-فرانتز فانون : من أجل إفريقيا ، المصدر السابق ، ص. 92.

[(*)] - Revue L'information psychiatrique ,vol31,N°1,1955, PP. 11-18.

[3])- عبد الحميد حيفري ، فانون فرانتز، بعض ملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته ، الجزائر 2007،ص . 99 .

[(**)]- المنهجية الظاهرية: ظهرت على يد الفيلسوف الألماني"ايدمون هوسرل والذي توفي عام 1938م عن عمر يناهز التاسعة والسبعين عاما.

عند إيدموند هوسرل(1859–1938م) عبارة عن وصف وتحليل للأحداث التي تقع على هيئة تمثل وحكم ومعرفة أو بعبارة أخرى تقتصر الظاهرية على الوصف التحليلي لعمليات التمثيل والحكم والمعرفة والوصف التحليلي، الذي تقوم به الظاهريات،والمنهج الظاهري يعادل العلوم المنطقية والنفسية بل والطبيعية أيضا في صدقها، وسلامة نتائجها، لأن أهم ما يتصف به المنهج الظاهري هو أنه يهدف إلى أسلوب خاص بالشعور الذاتي يشفى منه كل شك، كما يهدف إلى أن يصبح علما من العلوم" [1] .

وانطلاقا من هذا التعريف، ندرك أن الظاهرية هي دراسة وصفية خالصة تمر بالفكر لتخطو من مجال المعرفة الملاحظة إلى مجال الدراسة، وهذا ما فعله فانون تماما، فلقد أدرك أن الوصف الظاهري هو الوسيلة الناجعة،خصوصا وسط شعب أمي قليل الحيلة والثقافة[2].

ولقد تأثر فانون عندما أخذ بهذه المنهجية بالماركسيين الفرنسيين الذي كانوا يدعون إلى هذه المناهج الظاهرية الجديدة، وتوصل في النهاية إلى نظرية جديدة في الطب النفسي تخلص إلى أن المرض والجنون هما نتيجة للوضع السياسي الخاص بالسكان الأهالي، وأن الاستعمار مسؤول عن عدد من تلك الحالات على أساس أنّها تولدت كردّ فعل عن وضع شاذ، لم يألفه هؤلاء السكان وهذا ما أصبح يعرف بـ " علم النفس الوظيفي"[3]، وقد فوجئ فانون بضخامة الآثار التي نجمت عن الاستعمار في هذا المجتمع من خلال العدد الهائل للمرضى الذين كانوا هدفا للوسائل والأساليب الوحشية[4].

---

[1])- عبد الفتاح الديدي : الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1966، ص. 21.
[2])- عبد الحميد حيفري: المرجع السابق، ص. 25.
[3])- المرجع نفسه ، ص 29.
[4])- فرانتز فانون : من أجل إفريقيا ، المصدر السابق، ص. 36 .

إذن لقد عمل فانون منذ وصوله إلى المستشفى على إعداد تنظيم جديد وطرق جديدة، في التعامل مع المرضى، وقد سانده في هذه المهمة الصعبة واحد من ألمع الأطباء في الأمراض العقلية في فرنسا، وهو الطبيب "أزولاي" (Jaque- Azolay) إذ سار معه جنبا إلى جنب مؤيدا ومدعما له في جهوده الإصلاحية والعلاجية، خاصة محاولة تطبيق تجربة العلاج الاجتماعي.

كان المستشفى يسير بطرق تقليدية إذ كان المرضى يرتدون ملابس خاصة تشبه بدلات المساجين تزيدهم توترا وإحساسا بالغربة عن أنفسهم، أما المرضى الذين كانوا يعانون من الهيجان(Agitation) من حين إلى أخر، فكانوا يتعاملون معهم بوحشية إذ يتم ربطهم في الأسرّة أو على الشجار أو عزلهم تماما إذا كانوا يعانون من أعراض مزدوجة كالهيجان والسل مثلا فكانوا يعتبرونهم كالحيوانات[1] ،كانت مهمة فانون عسيرة ولكنه حوّلها إلى يسر من خلال إصراره على النجاح إذ كان يدرك منذ البداية الصعوبات التي ستواجهه، وعبر عن ذلك فقال : "على الرغم من الظروف الموضوعية لممارسة الطب النفسي في الجزائر التي تعتبر تحديا للمعقول فقد بدا لي أنه لابد من بذل جهود ضخمة لتغيير أسلوب طبّي، تعارض قواعده المذهبية مع المشاريع الإنسانية الحقيقية " [2] .

لقد لقي فرانتز فانون معارضة شديدة في البداية، حتى أن بعض الممرضين،كانوا يطالبون بالتحويل من مصلحته إلى مصالح أخرى. وكان زملائه في المستشفى يراقبونه من بعيد بفضول وحسد وغل يبحثون له عن أخطاء وعثرات يتصيدونه للتخلص منه، يعتبرونه زنجيا مجنونا، ونظروا إليه بالكثير من العنصرية كانوا ينتقدونه لأنّه كان يطبق طريقة علاجية جديدة على الأوروبيين والأهالي

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., pp. 91-93.

[2])- المصدر السابق ، ص. 36.

المسلمين على حد سواء، وكانوا يرون أن المسلمين غير قادرين بوصفهم بدائيين متخلفين على تقبل الطريقة العلاجية الجديدة على السواء مع الأوروبيين المتفوقين عليهم، وكانوا كثيرا ما يلاحقونه من هذا المنطلق[1] خاصة وأنه بالفعل عجز تقريبا عن إيجاد التوازن في تطبيقها على الجزائريين والأوربيين إذ لاحظ أن نجاحها على الجزائريين أقل بكثير منها على الأوربيين، وأرجع ذلك إلى أسباب سياسية واستنتج أن الاستعمار هو سبب إصابة الجزائريين بالمرض العقلي، وتأكد أن إيجاد حل جذري وحقيقي لذلك الأمر صعب للغاية[2].

ولكنه واصل مجهوداته على الرغم من صعوبة التواصل مع الجزائريين لأنّه لم يكن يجيد اللغة العربية ولا الدّارجة المحلية، ومع ذلك لم ينحن ولم يتراجع إلى الوراء لا يجيب أعداءه إلا بالعمل. كان حريصا على معرفة كل كبيرة وصغيرة عن مرضاه، حتى أنه اهتم بالناحية "الأنتروبولوجية"، وحاول معرفة التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري، حتى يكون على دراية بأعماق هذا المجتمع، الذي يحاول مساعدته وتفهمه، يتقرب من المرضى ويقول لهم:"أحبّ أن أراكم كما أنتم ويجب أن نساعد بعضنا... كونوا متفتحين صرحاء صادقين.." [3]، كان يرى أنه بالإمكان مساعدة أي مريض، وإنقاذه من مخالب المرض. كما كان يشدّد على الممرضين احترام المريض واستقباله بطريقة لبقة ومحترمة، ويطلب منهم إعداد تقارير دقيقة عن ذلك. وهكذا أستطاع فانون أن يجلب إليه احترام وإعجاب ومحبة ممرضيه وزيادة إصرارهم على مقاسمته هته التّجربة الصعبة بكل تفاصيلها [4] .

لقد فصل فانون الرجال عن النساء، بعدما كانت التفرقة قائمة على أساس الأهالي والأوربيين،ونظم زيارات دورية داخل المستشفى،يقوم بها مختلف الإطارات

---

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., pp.102-103.

[2] محمد الميلي: المصدر السابق ، ص. 21 .

[3])-Alice Cherki: Op.cit., P. 103.

[4]) – Ibid., PP. 103-107.

الطبية ومديرو الإدارة لمراقبة الأوضاع، وحالة المرضى والأساليب المستخدمة في العلاج ويقدمون انتقادات لاذعة لبعض الأساليب التي كانت متبعة، كما عمل فانون على فتح قسم جديد في المستشفى، خصص جناح منه للنساء الأوربيات وثلاثة أجنحة أخرى للرجال المسلمين.

كانت هذه المصلحة وجهة للمناضلين والمناضلات المطاردين من قبل الاستعمار الفرنسي الذين كان فانون يخبئهم ليلا ويعمل بعدها ممرضوه على إزالة آثار مبيتهم، وأصبح المستشفى عشا للمجاهدين والمناضلين الجزائريين حتى أنهم سمّوا بزوار الليل[1] .

ذلك أن المستشفى تأثر في الداخل بالصراعات التي كانت موجودة خارجه فقد كان كل مستخدميه نقابيين تابعين إلى نقابة CGT [*] التي كانت تضم في أغلبها مناضلين من حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية والحزب الشيوعي ساعدوا فانون ودعموه في نضاله مع الثّورة الجزائريّة وحتى الأطباء الداخليين[**] الذين تعاقبوا على المستشفى في هذه الفترة كانوا متعاونين معه أمثال سليمان الصالح فرانسوا سونشاز(François Sanchez) جورج كونيلون (Georges Connillon) تريشين (Trichinne)، مايار تميست (Meyer Timist) المدعو بوبوف (Popoff). ودخل هؤلاء جميعا السجون بسبب تضامنهم مع القضية الجزائريّة[2].

كما عمل على تنظيم اجتماعات دورية، تعقد مرتين في الأسبوع، يحضرها كل من الأطباء والممرضين، والشيء الجديد هو حضور المرضى كذلك، كانت تناقش فيها كل المشاكل والمعيقات التي تواجه مختلف المستخدمين في المستشفى،وتحل

---

1) -Ibid., P. 110.

(*) – CGT: Confédération Générale des Travailleurs.

(**)- الأطباء الداخليين: هم الذين يأتون إلى المستشفى لإنهاء التخصص.

2) -Alice Cherki : Op. Cit., P. 99.

من خلالها النزاعات ويحق لأي مشارك التدخل، أو عرض أية فكرة،أو مشكّلة أو انشغال[1] .

لقد حاول فانون خلق أنشطة جديدة كإحضار المرشد الديني إلى المستشفى كان يحضر في البداية فقط في المناسبات الدينية، ولكن فيما بعد أصبح يزور المستشفى بانتظام. كان حديثه مع المرضى يساعدهم على الاطمئنان النفسي، علاوة على بعض الأنشطة الإبداعية والثقافية واليدوية، كتنظيم الحفلات، وكان أولها الاحتفال برأس السنة الذي صادف وصوله إلى المستشفى.

كان فانون ذكيا في تعامله مع المرضى الجزائريين، فأهتم بالحفلات الدينية وجلب لهم الرواة [2] واقترح عليهم الفن الشّعبي رفقة الفنان الشّعبي الجزائري عبد الرحمن عزيز [3]، وشكّلت لجان خاصة تهتم بالموسيقى والسينما ومختلف الإبداعات والو رشات، إحداها للنسيج وأخرى للخياطة، ترتكز في مجملها على المرضى فكانوا هم الذين يختارون نوع القماش ويشترونه والمريضات تقسن الأثواب التي تشارك في خياطتها.كما أنشأ ملعب لكرة القدم وقاعة للعرض[4] وطور مكتبة المستشفى إذ أضاف إليها بعض الكتب الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية).

كما كان يصبوا إلى الترجمة من الإسبانية والإنجليزية إلى الفرنسية، علاوة على ذلك أقام مدرسة لتكوين ممرضي الطب النفسي كان هو مدرسها. حققت نجاحا باهرا ووصلت إلى حد إقامة الملتقيات، وزيارة بعض الأطباء من الخارج[5] كما أنشأ

---

1) – Loc. Cit.
2) -Murand Numa : psychiatrie et politique, Frantz fanon a Blida, in (pensé aujourd'hui avec Frantz fanon), actes du colloque fanon, CSPRP-université, paris 7, février 2008 édition on ligne disponible sur "http:// www.csprp.univ-paris-diderot.ffactes_fanon.html, consulté le 04/012/009
3) - Nouara Hocine : Op. Cit., P. 204.
4) - Numa Murand : Op. Cit.
5) - Alice Cherki : Op. Cit, PP. 110-117.

جريدة بعنوان" جريدتنا" (Notre journal) وهي جريدة أسبوعية تهتم بشؤون المرضى يبدعون من خلالها في مختلف المجالات وكان يحث زملائه على الكتابة في مجلة " L'information psychiatrique " .

وكتب مقالا بعنوان "إفريقي إنتيلي"في شهر شباط– فيفري 1955م ، نشر في مجلة إسبري وكان منعطفا حاسما في حياته، تحدث فيه عن نفسه وعن إحساسه كإفريقي كما شارك بمقالات في مجلة" الوعي المغاربي" Consciences maghrébines" رد فيها عن نظرية البدائية عند البروفسور بورو "Porot" التي تصف المسلمين بالتخلف والبدائية والرجعية وأنهم غير قادرين على تقبل أي جديد وأن ذلك وراثي.

إضافة إلى ذلك فقد كان عضوا في مجلة الصداقة الجزائريّة " Amitié Algérienne " التي تأسست في شتاء 1954م، وهي جمعية إنسانية عملها محدد في الجزائر العاصمة، كانت تعمل على الإعانة المادية لعائلات المسجونين السياسيين تسير من قبل المناضلين الوطنيين ولها علاقة بالمجاهدين في الجبل بالولاية الرابعة[*] حاولت إنشاء مكاتب لها في ولايات أخرى بغية التوسع في نشاطها وقد رُشح فانون لتولي أمورها في منطقة البليدة [1] ولكنه لم يتمكن من ذلك نظرا لانشغالاته الكثيرة بخدمة الطب.

كما شارك يوم السادس من أيلول– سبتمبر عام 1956م بمداخلة عنوانها" ثقافة وعنصرية" في مؤتمر الكتاب والفنانين السود المنعقد في باريس بفرنسا، بعد أن شارك في مؤتمر الأطباء " ببوردو" وتعرف هناك على الطبيب جون آيم (Jean

[*]- كانت الجزائر في هذه الفترة مقسمة إلى ستة ولايات: الأوراس ، الشمال القسنطيني ، القبائل ، الجزائر، الغرب ، منطقة الصحراء.

[1])-Alice Cherki : Op. Cit, PP. 113-114.

Ayme) وهو مختص في الأمراض العقلية أيضا ومناهض للاستعمار[*] وقد تناول في هذه المداخلة موضوع الاستعمار من وجهة نظر الطب النفسي أولا، وأعتبر هذا المقال فيما بعد اتهاما معاديا للكولونيالية الفرنسية خاصة أنه أقر بخيار المقاومة المسلّحة ضدها إقرارا واضحا وصريحا [1] .

كما قال فانون في هذا الخطاب أن العنصرية" ليست إكتشافا طارئا"، بل هي جزء من عملية واضحة" تستغل فيها مجموعة من الناس مجموعة أخرى من البشر" وهذا التشخيص يستلزم بالتالي حلا واحدا لخصه فانون في قوله: "إن النهاية المنطقية لإرادة الكفاح هذه تكمن في التحرير الكامل لأرض الوطن"[2].

وقد ذاع صيت فرانتز فانون كثيرا بعد إلقاءه هذه المحاضرة، ورسخ وجوده كمثقف له وزن كبير، وقد أحدث بعد شهرين من إلقاءه هذه المداخلة قطيعة جذرية مع الحياة الثقافية الفرنسية، ودعى سارتر إلى ذلك باعتباره من أكبر المفكرين آنذاك تأييدا للقضية الجزائريّة، ورفضا للاستعمار الفرنسي وأساليبه، ولكن سارتر لم يجاريه في موقفه[3]، فواصل فانون مجهوداته وأنشأ سنة1955م بمساعدة زميله لاكاتون(Laquaton)، مصلحة جديدة في المستشفى لم تكن موجودة من قبل تستقبل المرضى ذوي الحالات الخفيفة، تضم قاعة للنساء وأخرى للرجال، مسلمين وفرنسيين.

بعد كل هته الجهود والعقبات الكثيرة التي واجهت فانون في مستشفى البليدة قرّر أواخر سنة 1956م الاستقالة نظرا لمجموعة من الأسباب لعل أهمها:

(*)- نُشرت هذه المحاضرة في العدد الخاص بمجلة الحضور الإفريقي"présences africaines " التي صدرت في الفترة مابين جوان – نوفمبر 1956م.

1)- صفوت حيدر لأجل الثورة الإفريقية ، من الأقلام المثالية بتوحيد المستعمرين مقال على الموقع http://www.maaber.org/issue_february07/books_andreadings2.htm تم الاطلاع في 2009/02/02

2)- فرانتز فانون : من اجل إفريقيا ، المصدر السابق،ص ص. 13، 26.

3)- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 106 .

أوّلا: وصول الإشتراكي غي موليه إلى رئاسة الحكومة الفرنسية، إذ قام بتسوية المشكّلة المغربية والتونسية في ربيع 1956م، ومنحهما استقلالهما عن فرنسا ليتفرّغ هو لحرب الإبادة في الجزائر.

ثانيا: تصويت مائة وأربعة وأربعين نائبا يساريا في البرلمان الفرنسي لصالح الإجراءات الاستثنائية التي اتخذت للقضاء على الثّورة في الجزائر[1] .

ثالثا: كثرة الاعتقالات والاغتيالات في الأوساط الجزائريّة من قبل الجيش الفرنسي في هذه السنة 1956م.

رابعا: المعاناة التي كان يواجهها أثناء تواجده في المستشفى، وقد قال فانون في هذا السياق: "... منذ ما يقرب من ثلاث سنوات وضعت نفسي كلية في خدمة هذا البلد وسكانه، ولم أبخل بجهودي وحماسي، وقد كان كل جزء من عملي يطالب بإيجاد عالم إصلاح... ماذا عسى أن تجدي النوايا إذا كان تجسيدها مستحيلا بفعل جمود العقل وعقم الفكر وبغض سكان هذا البلد... وأستطيع أن أقول بأني قيمت بهلع مدى انتشار الأمراض العقلية في هذا البلد...".

خامسا: إحتجاجه على معاقبة المضربين في الخامس من تموز–جويلية 1956م، الذين كانوا قد احتجوا على إهانة كرامتهم الإنسانية من قبل سلطات الاحتلال.

سادسا: إضراب الممرضين للأمراض العقلية والمنتمين إلى الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) في كانون الأول–ديسمبر 1956م، الذين ردّت عليهم السلطات الفرنسية ردّا قاسيا[2] .

[1])- محمد شرقي: المرجع السابق ص. 181 .
[2])- فرانتز فانون: من اجل إفريقيا، المصدر السابق، ص ص. 36-37.

إن خلاصة هذه الأسباب التي جعلت الدكتور فانون يترك منصبه كرئيس مصلحة الطب العقلي بمستشفى البليدة، هو أنه لم يعد قادرا على مشاهدة تلك المأساة التي كان يعيشها الشّعب الجزائري، من اعتقال وسجن واغتيال واضطهاد وحرمان ولعلّ ما يؤكد هذه النتيجة قوله في رسالة الاستقالة إلى الحاكم العام: "منذ شهور عديدة وضميري مقر لنقاش حاد، وخلاصة ذلك النقاش هو التصميم على عدم اليأس من الإنسان، أي على عدم اليأس من نفسي، لذلك صممت على أن لا أتحمل مسؤولية موقف سلبي، من أجل كلّ هذه الأسباب أتشرف سيدي بأن أطلب منكم أن تتفضلوا بقبول استقالتي وأن تضعوا حدّا لمهمتي في الجزائر"[1].

وبناء على تصريح زوجة فانون "ماري جوزيف" أن فانون لم يتلقى جوابا عن طلب استقالته من الحاكم العام، وإن كان قد طُرد هو وأسرته من الجزائر عقب إضراب الثمانية أيام، الذي وقع في الثامن والعشرين من كانون الثاني–جانفي إلى الرابع من شباط–فيفري 1957م، ومما جاء في هذا التصريح، قولها: "إن فانون قد قدّم رسالة استقالته للحاكم العام روبير لاكوست، ولكنه لم يرد عليه، وقد تعرّضنا للطرد من الجزائر تزامنا مع إضراب الثمانية أيام"[2].

لما وصل فانون قرار الطرد في الأسبوع الأول من مطالع سنة 1957م، من الوزير المقيم روبير لاكوست في الجزائر، غادر البلاد معرجا على المغرب متوجها إلى فرنسا[3]، وقد ساعده في خروجه بعض الشبكات من حملة الحقائب الذين كانوا يدّعمون القضية الجزائريّة من فرنسا، وأقام عند صديقه جون آيم "Jean ayme" [*]

---

[1])- المصدر نفسه، ص 38.

[2])- Les cahiers de l'histoire de la 1re république française (1945-1958), N°48, aout 1965, p. 101.

[3])- Pierre Chaulet :" Frantz fanon, si proche…", revue pratique psychologique, volume 1.N°2-,3, édition institut national de santé publique, 2003, Alger, p53.

[*]– جون آيم: كان لقاءه أوّل مرة مع فانون في مؤتمر الأطباء المختصين في الأمراض العقلية وطب الأعصاب، ساند ا لقضية الجزائرية منذ 1945م.

بضواحي باريس في مسكنه الوظيفي بمستشفى (Clairement -de- boise) [1] حيث كان يترأس مصلحة طب الأمراض العقلية، أما زوجته وابنه أوليفي فقد بقيا عند صديقه بيار شولي طوال شهري فيفري ومارس .

ويلاحظ أن ماري زوجة فانون، قد ذكرت في تصريحها أنهم طردوا من الجزائر تزامنا مع إضراب الثمانية أيام–كما سبقت الإشارة إلى ذلك– في حين أن قرار الطرد وصلهم في الأسبوع الأول من شهر يناير–جانفي 1957، فلست أدري إذا كان فانون قد تأخّر في الرحيل حتى نهاية يناير وأوائل فبراير، أم أنّ زوجته ربطت قرار الطرد بحدث الإضرابات نظرا لما لهذه الإضرابات من أهمية في حياة فانون.

وقد حاول جون آيم أن يساعد فانون على استرجاع راتبه، ولكنّه فشل في ذلك بحجة أن فانون قد استقال وبالتالي فقد خسر أجرته الشهرية، ولكنه وجد في صديقه آيم وأستاذه السابق توسكال سندا قويا في دعمه ماديا، واستغل فانون هذا الفراغ وهو عند صديقه في باريس لقراءة كلاسيكيات المناضلين الثوريين"المؤتمرات الأربع للشيوعية العالمية"ولاحظ آيم أن فانون كان يملك تكوينا فلسفيا وأدبيا، غير أنّه كان يفتقد للتكوين السياسي[2].

بعد أن قضى فانون خمسة عشر يوما عند صديقه آيم، ولما اشتد الضغط في فرنسا حين بدأت السلطات في تفكيك بعض الشبكات المساندة للقضية الجزائريّة وملاحقة كلّ المؤيدين للثورة الجزائريّة. قرّر مغادرة باريس في أواخر شباط–فيفري وبداية آذار–مارس 1957م، وهذه المرّة بمساعدة شبكات "فرانسيس جونسون" ومسؤولي فيدرالية جبهة التحرير الوطني "FLN" في فرنسا خاصة صالح الوانشي

[1])- Jean ayme :entretien In: revue Sud- Nord, Op. Cit, pp. 119-125.
[2])- Ibid., pp. 119-125.

ومحمد البجاوي، فخرج فانون من فرنسا مارا بسويسرا ثم إيطاليا ليصل إلى تونس [1].

وجملة القول أن فانون قد قضى حوالي ثلاث سنوات عملا في مستشفى الأمراض العقلية بالجزائر، ولكنه عانى كثيرا من العقبات الكؤود التي وضعت في طريقه من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي بعد أن اكتشفت ميله للأهالي المسلمين الجزائريين وتأييده للثورة، وفي نهاية المطاف اضطر إلى الاستقالة متأثرا بالممارسات الاستعمارية ضد الأهالي الجزائريين. وبدلا من أن يجيبه الحاكم العام عن استقالته بقرار رسمي، فإنه أصدر أمرا بطرده من الجزائر في نهاية 1956م. فغادرها غير مأسوف عليه من إدارة الاحتلال، ولكنه ترك فراغا عميقا لمرضى مستشفى البليدة من الأهالي والمسلمين.

المبحث الرابع : مفاهيم حول الثورة في إفريقيا

تعتبر الثّورة "révolution " كما يري علماء السياسة إحدى أهم مظاهر التطور السياسي في المجتمعات، تنطلق من العقل الإنساني لتستلهم ما سمي بالعدالة أصبح ينظر إليها في أواخر القرن العشرين على أنها شيء مألوف مع أن الوصول إلى معناها الدقيق لم يتحدد بعد، ولكن الاستخدام السياسي لهذا المصطلح ظهر في إيطاليا في أواخر القرن الخامس عشر وكان يعني" مجموعة التغيرات الفجائية في الأحداث السيّاسية..."[2]، وفي نهاية 1662م استخدم هذا المصطلح في اللغة الإنجليزية للإشارة إلى عهد استعادة الملكية في بريطانيا.

---

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 112.

[2]) جاك جولد ستون وآخرون: ثورات أواخر القرن العشرين، ترجمة وتحرير مالك عبيد أبو شهيوة، محمود محمد خلف، الطبعة الأولى،دار الرواد ليبيا، 2003 ، ص ص . 13 - 18 .

وبدأ مفهوم الثّورة يتغير شيئا فشيئا إلى غاية قيام الثّورة الفرنسية عام 1789م، حيث اكتسب هذا المصطلح تعريفا جديدا يكاد يكون هو المصطلح السائد في العلوم الاجتماعية إذ عرفت الثّورة على أنها " تغيير عنيف وشامل في النظّام السياسي والذي لا يغير بدرجة كبيرة توزيع القوي في المجتمع فحسب، وإنما ينتج عنه تغيرات كبيرة في بنية المجتمع ككل"[1] .

وعلى الرغم من هذا التعريف الذي يكاد يكون هو الغالب إلا أن هذا المصطلح أخذ تعريفات ومفاهيم مختلفة فيرى كارل ماركس (1818-1883 م) أن الثّورة فعليا هي الثّورة الاجتماعية وأنها فعل يمتزج فيه تحرير العقل البشري مما يعانيه من اغتراب عن طبيعته الحقيقة بتحريره من شرور الرأسمالية". وإن كان ماركس يصف في بعض الأحيان الثّورة على أنها مجرد انتقال السلطة من جماعة إلى أخرى، دون أن يكون ذلك الانتقال مصحوبا بتغيرات إقتصادية.

ويري بعض الفلاسفة والمفكرين الآخرين أمثال دي ألكسي توكفيل أن الثّورة تقع عندما تتحسن ظروف الشعوب لا عندما تكون الظروف سيئة. أما البعض الأخر فيري عكس ذلك أمثال دافيز (Davies) الذي يقول أن الثورات تحدث " عندما تكون هناك حقبة ممتدة من التطور الاقتصادي والاجتماعي الموضوعي تعقبها حقبة قصيرة من الانتكاسة الحادة"[2] .

ويرى جيدنز (Guiddens) أن الثّورة تكتسب معنى سوسيولوجي ولا بد أن تتضمن تعبئة جماعية شاملة وأن تقود إلى عمليات من الإصلاحات الكبرى والتغيرات كما تتضمن التهديد باستخدام العنف[3] وربما هو هنا يتفق مع فرانتز فانون الذي دعى إلى العنف الثوري الذي يختلف عن القوة، فالقوة برجوازية تتسند إلى مبدأ

---

[1]) المكان نفسه.
[2]) ميشال مان : المرجع السابق ، ص .607.
[3])- المكان نفسه.

السلطة والحقوق المكتسبة وضرورة الطاعة من قبل الجماهير، ومن ثم فالبرجوازي ليس عنيفا ولكنه فقط يقنع بالقوة القائمة لديه.

أما العنف الثوري فيتبناه الشّعب الضعيف الذي يحلم بتحطيم تلك القوة لأنّه واقع تحت سيطرتها[1] . أما كوهان فقد أعطى للثورة تعريفا خاصا، إذ قال أنها عملية تغيير جذري في مجتمع معين تحدث في فترة زمنية محددة.

والحق أنه توجد نماذج عديدة ومختلفة في العالم التي تجسد المعني الحقيقي للثورة والتي أصبحت مرجعية لكل الثورات في العالم. كالثورة الإنجليزية 1688م والثّورة الأمريكية 1776م، والثورة الفرنسية1789م، والثّورة الروسية 1905م والثّورة البلشفية عام 1917م، والثورة الصينية 1949م ...الخ[2] .

ولعل الثورات التي قامت في القارّة الإفريقيّة هي من أهم الثورات على الإطلاق ذلك أنها امتدت لفترات طويلة واستخدمت فيها كل الأساليب والطرق للقضاء على النظّام الاستعماري الذي عانت من ويلاته، طيلة عقود من الزمن، وترك لها إرثا ثقيلا مازالت تعاني منه حتى الآن[3].

وكانت الممارسة الاستعمارية بكافة أشكالها هي التي دفعت وتيرة الحركات الوطنية الإفريقيّة نحو النصر، والتي كانت نتاجا لمشاعر الغضب والسخط والمرارة والإحباط الذي كرسه الاستعمار في نفوس الأفارقة فهو كما عبر أحد المؤرخين " قد أنتج أولئك الذين حفروا قبره"[4] . فالاستعمار بالتأكيد هو نقطة تحول هامة في تاريخ القارّة الإفريقيّة، فما مغزاه إذن بالنسبة لهذه الجغرافية وسكانها؟.

---

[1]) المرجع نفسه ، ص. 256 .
[2]) جاك جولد ستون وآخرون : المرجع السابق ، ص ص. 20- 30.
[3]) ألبير أدوبواهن : تاريخ إفريقيا العام ،(الفصل الثلاثون ، الاستعمار في إفريقيا، آثاره ومغزاه)، المجلد السابع ، يونسكو و أديفرا ، لبنان ، 1990، ص. 805.
[4]) ألبير أدو بواهن : المرجع السابق ، ص ص. 808- 809.

هنا تختلف الآراء وتتضارب الإجابات، فهناك عدد من المؤرخين والمنظرين الذين يرون أن الوجود الاستعماري في القارّة الإفريقيّة على الرغم من قصر مدته زمنيا في بعض البلدان، إلا أن مغزاه كان كبيرا في القارّة قاطبة وترك فيها مخلفات لا يمكن تجاهلها وها هو المنظر أوليفر يقول" إذا قيست فترة الاستعمار بالمقياس الزمني للتاريخ، فإنها تبدو مجرد فصل عابر قصير المدى نسبيا، ولكنها كانت فصلا أحدث تغيرات جذرية في اتجاهات التاريخ الإفريقي وفي سرعة إيقاعه"[1] .

وهناك فريق ثان يختلف مع الفريق الأول ويعتبر أن الوجود الاستعماري في القارّة الإفريقيّة مجرد حدث عابر لم يحدث بأي شكّل من الأشكال أية قطيعة أو انفصال جذري في تاريخ القارّة الإفريقيّة، ويعبر أحد المؤيدين لهذا الرأي عن هذا الطرح فيقول" إن الاستعمار لا يمثل أكثر من فصل عابر في تاريخ طويل غني بأحداثه"[2] .

وانه لا يجب أن يحمل الاستعمار سبب تخلف القارّة الإفريقيّة وبقائها محصورة في بوتقة الفقر والحرمان، ويقول أحد أصحاب هذا الرأي كذلك: "إن المهمة الرئيسية للحكام الجدد، كانت إعطاء دفعة لعملية تنمية اقتصادية، كانت قد اتخذت مسيرتها بالفعل"[3]. ولكن مما لاشك فيه أن وجود الاستعمار في القارتين الإفريقيّة كان حاسما وجذريا ولا يمكن تجاهله بأي حال من الأحوال، مهما اختلفت درجة تأثيره من مكان إلى آخر ومن فئة إلى أخرى، لأنه مس جميع المجالات وأثر على جميع القطاعات وقد قال أحد الصحفيين عن أحوال القارّة الإفريقيّة المأساوية بعد الاستعمار [4] : " إنه لم يكن بطريق الصدفة أن صورة الأرض الإفريقيّة تشبه الآثار التي تتركها يد الإنسان وهو يبعث على سطح الرمال".

---

[1]) المكان نفسه.
[2]) المكان نفسه.
[3])- المكان نفسه.
[4]) حلمي محروس اسماعيل ، المرجع السابق، ص. 682 .

فمن الناحية السيّاسية ترك الاستعمار مشكّلة عويصة هي مشكّلة الحدود التي تعود في الأساس إلى التنافس الاستعماري بين الدّول الأوربية وخاصة بعد مؤتمر برلين (1884–1885م) حيث تم تقسيم إفريقيا دون أية مراعاة لأي تكافؤ اقتصادي أو لغوي أو حضاري أو الأخذ بعين الاعتبار لمصالح السكان الأصليين للمنطقة، وقد قال كوامي نكروما عن هذه الوضعية: " إن البلقنة السيّاسية التي فرضها الاستعمار قبل رحيله هي أول مظاهر الاستعمار الجديد"[1] .

أما من الناحية الاقتصادية فإن القارّة تملك موارد طبيعية وبشرية هائلة كان من المفروض أن تؤهلها إلى أن تكون أغني قارة في العالم وعلى الرغم من ذلك فإنها تعاني من الفقر والتخلف والتبعية للدول الاستعمارية السابقة، ذلك أن سياسية الدّول الاستعمارية في القارّة كانت تقوم على نهب المواد الأولية وتوجيه اقتصاد البلدان الإفريقيّة لخدمة مصالحها الخاصة[2].

أما من الناحية الاجتماعية والثقافية فقد ورثت القارّة مخلفات عميقة في هذا المجال منها تعدد اللغات الإفريقيّة وتنوعها إذ تعد القارّة الإفريقيّة من أشد المناطق تعقيدا في العالم مما يحول دون سرعة التواصل ومن ثم الاندماج والتأثر والتأثير.

إذ يبلغ عدد اللغات فيها حوالي ثمانمائة لغة وقيل ألف وخمس مائة لغة علاوة على اللغات الأوربية[3] . إضافة إلى كل ذلك انتشار الأمية والأمراض الطفيلية وطغيان الخرافات والشعوذة والاعتقادات الميتافيزيقية[4] .

نستخلص إذن أن الاستعمار كان بلا شك، فصل هام وطويل من فصول تاريخ القارّة الإفريقيّة ، تأثرت به طيلة احتلاله لها. ويستمر ذلك التأثير إلى مدى بعيد

[1]) المرجع نفسه ، ص. 684.
[2]) المرجع نفسه ، ص. 684.
[3]) محمد عبد الغني سعودي ،" قضايا إفريقية"، العدد 34 عالم المعرفة ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص .103.
[4]) حلمي محروس إسماعيل : المرجع السابق ، ص. 696 .

جدا، فالتّجربة الاستعمارية خلقت قدرا آخر للأفارقة، وفرضت عليهم سلوكا طارئا ورد فعل عنيف ألا وهو الثّورة، فلم يكن ممكنا أبدا أن تبقى الظاهرة الاستعمارية بمنأى عن رد فعل يتوافق وممارساتها العنيفة. فهاتان الظاهرتان الثّورة والاستعمار يتطوران بالتوازي مع بعضهما البعض وستبقى الثّورة موجودة مادام الاستعمار موجودا، مهما اختلفت تسمياته ومهما تعددت أساليبه وطرق سيطرته على الشعوب الأخرى .

وسيتوجب على القادة الأفارقة وشعوبهم السير قدما لمحاولة معالجة مخلفات الاستعمار، وسد ما أحدثه من شروخ وثغرات ومعالجة ما ترتب عليه بالتعاون والانفتاح على بعضهم البعض، بل وبالوحدة الاقتصادية والسياسية والثقافية وإعطاء التنظيمات والاتحادات التي تطمح إلى هذا الهدف دفعا جديدا متواصلا. حتى تتحقق آمال القارة في النمو والتطور والانسجام، حتى تكون قوة موازية للقوى الأخرى في العالم.

نقد واستنتاج:

رأينا في الفصل الأول كيف أن فانون الإفريقي الأصل المارتينيكي المولد والمنشأ قد استقبلته الحياة في مسقط رأسه شابا متمردا على انساق الحياة السيّاسية والاجتماعية السائدة في المستعمرات الفرنسية، والتي لم ترقه منذ نعومة أظافره فكانت طفولته وشبابه كلّها بحثا عن التخلّص من ذلك الكابوس الاستعماري الذي جثم على صدر الشعوب المستضعفة ردحا من الزمن، وقد تطوّر مع الأحداث داخل الجزيرة وخارجها فدرس أوّلا بالأنتيل، ثم أدى الخدمة العسكرية ثم عاد إلى الدراسة من جديد بعد انتهاءه من أداء الخدمة في صفوف الجيش الفرنسي، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على صلابة هذا الرجل وقوّة إرادته في اختراق العقبات التي كان الاستعمار يضعها أمام شعوب المستعمرات.

رأينا أن فانون قد تخطّى حواجز كثيرة لكي يصل إلى طبيب متخصّص في الأمراض العقلية بفرنسا ثم يعمل بها بعضا من الوقت، ولكن طموحه الإنساني ورغبته الجامحة في خدمة الإنسانية المقهورة، جعلته ينتقل إلى ما وراء البحار وقد أرست به سفينته في شواطئ الجزائر ليلتحق مباشرة بالعمل في مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة، وهناك وجد فانون ضالته في خدمة المضطهدين من جراء الآلة الاستعمارية التي لم تكن ترحم أحدا من أبناء المستعمرات إلا من سار في ركاب الإدارة.

ولكن إقامته بأرض الجزائر لم تدم طويلا بسبب التعارض الذي كان يلاحظه بين مبادئه وما يقع أمامه في ميدان العمل. ولاسيما في أوساط الأهالي المسلمين الجزائريين الذين كانوا ضحية الممارسات الاستعمارية القاسية، مما جعله يفكر في مخرج آخر يمكنه من تحقيق آماله وتطبيق أفكاره وآرائه في الواقع، فلم يجد سوى العمل الثوري والنضال العنيد ضد السيطرة الاستعمارية الفرنسية والامبريالية. ليس في الجزائر فقط بل وفي كل إفريقيا التي كان يشعر بالانتماء إليها، على الرغم من أنه ولد بعيدا عنها وتكون خارجها وتشرب من ثقافة الدولة المستعمرة نفسها، فخرج من الجزائر والتحق بالثورة الجزائرية خارج حدود الوطن الذي كان يشهد ثورة عارمة على المستعمر، وكان ذلك فرصة له لخدمة الثورة الجزائرية والثورة في إفريقيا عموما، بعد أن مكنته القيادة الجزائرية من الاتصال المسؤول بقادة وزعماء إفريقيا السوداء.

الفصل الثاني: فرانتز فانون والثورة الجزائرية

المبحث الأول: فرانتز فانون و اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية

المبحث الثاني: فرانتز فانون يلتحق بالثورة الجزائرية في تونس

المبحث الثالث: فرانتز فانون يخدم القضية الجزائرية من تونس

المبحث الرابع: فرانتز فانون والحكومة الجزائرية المؤقتة

الفصل الثاني: فرانتز فانون والثورة الجزائريّة.

بعد ما عالجت في الفصل الأول الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي لجزيرة المارتنيك، وتتبعت مسار فانون حتى مرحلة الشباب، وتحدثت عن الثورة باعتبارها المظهر الذي ساد في إفريقيا طيلة فترة الاحتلال.

سأعالج في هذا الفصل مرحلة هامة من تاريخ الجزائر ألا وهي الثّورة التحريرية باعتبارها الدافع والمشجّع لكافة الثورات التي قامت في القارّة الإفريقيّة قاطبةو علاقة فرانتز فانون بها، ثم سأتطرق إلى موقفه من اندلاع الثّورة الجزائريّة، وكيف التحق بصفوفها وأصبح واحدا من أبناءها انطلاقا من مستشفى البليدة كطبيب نفساني إلى مناضل ومنظر لها ومحرر في جريدة المجاهد بتونس .

المبحث الأول: فانون واندلاع الثّورة التحريرية الجزائرية

اندلعت الثّورة الجزائريّة في الفاتح من تشرين الثاني –نوفمبر 1954م، ولم يكن فانون يعلم شيئا عن ذلك البركان الذي هزّ أركان الصرح الاستعماري في ذلك اليوم التاريخي المشهود، انطلقت الثّورة وفانون يتابع أخبارها من خلال الصحف الاستعمارية، وربّما الأهلية أيضا على الرغم من أنها كانت تشير إليها باسم "الحوادث" "والخارجين عن القانون" و"المتمردين" و"الفلاّقة"، ونحو ذلك من التعابير التي كانت تحاول سلطات الاحتلال تغطية الحقائق الجوهرية بها، والتي لم تكن تريد كشفها للرأي العام.

لقد انفجرت الثّورة الجزائريّة في سرية تامة، ولم يكن يعرف عنها حتى من الوطنيين إلاّ القليل، ولكن فانون كان يتحسّسها في مشاعره المناهضة للاستعمار

والعنصرية، ويحاول أن يعرف الحقيقة فيما يجري على الساحة السيّاسية والعسكرية في الجزائر وبدأت تتأكد لديه حقيقة الثّورة منذ أن لاحظ تزايد عدد المرضى في مستشفى الأمراض العقلية الذي كان يشرف عليه بنفسه[1] .

وهكذا استقبل فانون اندلاع الثّورة التحريرية بالكثير من التأييد والتشجيع للتخلص من الاستعمار بكلّ أشكاله، وكان يتابع بشغف واهتمام كبيرين تحرّكات جبهة التحرير الوطني ولكنّه لم يكن قادرا على الاتصال بمسؤولي الثّورة، لأن ذلك لم يكن يسيرا وحتى المسئولين أنفسهم كانوا ما يزالون مجهولين نوعا ما، ولكنه تمكن شيئا فشيئا من الاتصال بقيادة أركان الجيش في ولاية الجزائر سنة 1955م، بعدما توسعت علاقاته وزادت مساعدته للجرحى والمرضى الذين كانوا يُرسلون إليه، وكان ذلك أوّل اتصال له بالجبل، فاكتشف من خلاله ما كان يجري هناك وزاد تعلقه بالثّورة والمجاهدين أكثر في سنة 1956م[2] .

وقد عيّن من ماله الخاص محامين للدفاع عن مناضلات شابات تم اعتقالهن بمنطقة الجنوب الشرقي بالبليدة، وهنّ: مريم بلميهود، صفية بازي، فضيلة مسلي[3] وفي هذه السنة توسعت الحرب التحريرية واحتدت، مما زاد في عدد الجرحى والمصابين، وبالتالي زادت الحاجة إلى الأطباء، وخاصّة الجرّاحين منهم، فكان المناضلون يستنجدون بفانون في مستشفى البليدة، وكان هو من جهته يساعدهم ويقدّم لهم العلاج ويستعين بأطباء وصيادلة آخرين، إذا لزم الأمر ذلك.

فتوطدت علاقته بالجبهة، خاصة وأنه كان يأوي المناضلين في المستشفى ويخفيهم عن عيون جواسيس العدو، إذ كانوا يقومون بنقل المناشير إلى المدينة ونقل

---

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص ص. 76-75.

[2])- بيارو كلودين شولي مداخلة في الملتقى الوطني الثالث،" فرانتز فانون الاستعمار جريمة ضد الإنسانية"، مديرية الثقافة لولاية الطارف 30-31ماي 2006 ، مطبعة المعارف، عنّابة، 2006، ص. 54.

[3])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 123.

الأسلحة إلى الجبال.وهكذا انضم فانون تدريجيا إلى الثّورة الجزائريّة شأنه كشأن عدد من الأوروبيين أمثال: بيار شولي" "أليس شاركي"، "فرانسيس جونسون وغيرهم[1] .

والحق أن سنة 1956م كانت سنة الانشقاقات العميقة والاختلافات الشديدة في الجزائر، إذ عرفت نزاعا سياسيا وعسكريا حادا، فلقد كان الجزائريون في هذه الفترة يطالبون بحكومة وطنية جزائرية، وفرنسا من جهتها ترفض التفاوض مع جبهة التحرير الوطني (FLN)، لأنّها كانت لا تعترف بشرعيتها كممثل وحيد للشعب الجزائري[2]. وقد ازداد الشرخ عمقا بين الجزائريين والفرنسيين منذ زيارة رئيس الحكومة الفرنسي "غي مولي" للجزائر في شهر شباط–فيفري 1956م، لتنصيب الجنرال "كاترو" حاكما عاما للجزائر، فرمي بالطماطم من قبل النشطاء الأوربيين الذين كانوا يرفضون التخلي عن الجزائر.

ولكن الأمور تطورت لصالح الثّورة الجزائريّة إلى حد مّا، وبدأت المفاوضات السرية بين الطرفين، ولكنها عادت وتوقفت في الثاني والعشرين من تشرين الأول–أكتوبر 1956م، بسبب تحويل الطائرة التي كانت تحمل الوفد الجزائري من المغرب إلى تونس وإرغامها على النزول في الجزائر، واعتقال زعماء الثّورة الخمسة " أحمد بن بلّة(1916–حي 2009م)، محمد بوضياف(1919–1992م)، حسين آيت أحمد(1926–حي 2009م)، محمد خيضر(1911–1967م) والصحافي مصطفى الأشرف(1919–2006م)"[3] .

والحق أن الثّورة الجزائريّة في هذه السنة (1956م) كانت قد تعزّزت بانضمام كافة التيارات الوطنية والأحزاب السيّاسية والجمعيات النقابية إلى صفوفها، وهي

---

[1])- محمد شرقي: المرجع السابق، ص. 182 .
[2])- صالح بلحاج: تاريخ الثورة الجزائرية، دار الكتاب الحديث، 2008، ص. 61.
[3])- عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962م، ، ط2، دار الغرب ا؟لإسلامي، 2005، ص ص. 416-420.

قدماء حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD)، الإتّحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مناضلو الحزب الشيوعي الجزائري إضافة إلى الحركات النقابية الجديدة كـ: الإتّحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (UGEMA)، الذي كانت قد تأسس في شهر تموز–جويلية 1955م، الإتّحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA)، الذي تأسس في الرابع والعشرين من شهر شباط– فيفري 1956م[1]. والإتّحاد العام للتجار الجزائريين((UGCA)الذي تأسس في أيلول–سبتمبر 1956م.

وفي هذه السنة كذلك تأسست جريدة المجاهد في شهر حزيران–جوان1956م وأصبحت لسان حال جبهة التحرير الوطني إلى جانب جريدة المقاومة الجزائريّة [*] التي كانت تصدر من قبل وإنشاء إذاعة وطنية متنقلة، صوت الجزائر من قلب الجزائر تذيع الأخبار السياسية والعسكرية وتقدم الخطب الحماسية التي تلهب مشاعر الجماهير الشعبية وتحثها على تبني الثورة واحتضانها[2].

وانعقد مؤتمر الصومام[*] يوم 20اوت 1956م الذي كان نقطة تحوّل جوهرية في مسيرة الثّورة التحريرية الجزائريّة، وهو المؤتمر الأول والوحيد الذي التأم إبّان سنوات الثّورة وزوّدها بأهم الآليات الإيديولوجية والسيّاسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، بعد أن أوشكت على الضعف والانهيار[3] .

وقد خرج هذا المؤتمر بمجموعة من التوصيات، أهمها:

- الاستقلال الوطني دون انتقاص.

---

[1])- خالفة معمري، عبان رمضان: تعريب زينب زخروف، دار تالة للنشر، الجزائر: جويلية 2007، ص ص .297-288-281.

[*]– جريدة المقاومة: تأسست سنة 1956م في تونس، ثم نقلت إلى تطوان بالمغرب عام 1957م.

[2])- Mohamed Elmili entretien in la nouvelle république. Le 15/04/2009.

[*]– مؤتمر الصومام: انعقد في منطقة إيفري ببجاية من يوم الثلاثاء 20 أوت إلى غاية 05 سبتمبر 1956م، تغيب عن هذا المرتمر كل من ممثلي المنطقة الأولى بسبب استشهاد قائدها مصطفة بن بوالعيد في مارس 1956م، ونائبه البشير شيهاني، وكذا الوفد الخارجي لجبهة التحرير الذي تعذر عليه الحضور.

[3])- محمد الطاهر الزبيري: المرجع السابق، ص. 115.

- السيادة الكاملة على التراب الوطني، بما في ذلك الصحراء الجزائريّة.
- بعث الدّولة الجزائريّة في إطار جمهورية ديمقراطية واجتماعية.

وقد أكد البرنامج على الدّور الأساس لطبقة الفلاحين، ودعوة الطبقة العاملة والقوى الليبيرالية والتقدمية إلى التزام أكبر، لدعم جبهة التحرير الوطني[1] .

وعرفت العاصمة في هذه الفترة اضطرابات شديدة وتصاعد العنف إلى أقصى درجاته واندلعت معركة الجزائر من أيلول–سبتمبر إلى كانون الأول–ديسمبر 1957م كان هدفها نقل المعركة إلى المدن وتخفيف الضغط على الأرياف والجبال، ونشر الثّورة في كامل التراب الوطني الجزائري علاوة على إعادة تنظيم جيش التحرير الوطني[2] .

ومع تصاعد وتيرة الثّورة في الجزائر تصاعدت معها مواقف بعض المثقفين من النخبة الفرنسية أمثال: المفكر والكاتب والسياسي فرانسيس جونسون، أستاذ الفلسفة بفرنسا الذي انضم إلى الثّورة وأيّدها ضد بلاده، لأنّه كان يرى فيها أفكاره الإنسانية تتحقق يوما بعد يوم وأن فرنسا دولة محتلة ومستعمرّة (بكسر الميم) للشعب الجزائري ومستغلة له منذ قرن وربع قرن. وهو صديق فرانتز فانون الذي كان قد عرفه واحتك به منذ سنة 1952م، عندما كتب له تقديما لمؤلّفه "وجوه سوداء أقنعة بيضاء".

وقد قال عن الثّورة الجزائريّة: "إن فرنسا استوطنت أرضا بركانية"[3] وأنّها مستعدة للانفجار في أيّة لحظة، وألّف كتاب رفقة زوجته بعنوان"الجزائر خارجة عن

---

[1])- خالفة معمري: المرجع السابق، ص ص. 347.343.

[2])- سليمان الشيخ: الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين (دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلّحة)، ترجمة محمد حافظ الجمالي، دار القصبة للنشر، الجزائر:2007، ص. 84.

[3])- عبد المجيد عمراني: جان بول سارتر والثورة الجزائرية، مكتبة مدبولي، مصر: بدون تاريخ، ص. 59.

القانون" l'Algérie hors la loi"[1] انتقد فيه سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر ودافع من خلاله عن حقوق الشّعب الجزائري المضطهد.

كما أسّس جونسون جبهة تدافع وتساند حرية الشّعب الجزائري، وكان مؤمنا تماما أن اليسار الفرنسي، ستكون له الغلبة في الأخير إذا ساند الشّعب الجزائري في كفاحه المرير ضدّ فرنسا، كما أسّس في نهاية عام 1957م شبكة هدفها جمع الاشتراكات والأموال والألبسة والأغطية والأدوية من المتعاطفين الفرنسيين مع الثّورة الجزائريّة وتهريبها عبر الدّول إلى الجزائر وضمان أماكن آمنة للجزائريين المطاردين في فرنسا. وكانت هذه الشبكة تقوم بتهريب الفدائيين من فرنسا وتسليحهم، واعترف جونسون نفسه بذلك، فقال: "نعم فالأسلحة الممولة قد تكون مصوّبة لطعن الجيش الفرنسي من الخلف"[2].

وربّما كان جونسون يقصد بهذه العبارة "من الخلف"، أن هذه الأسلحة آتية من فرنسا ذاتها، بمعنى أنّها تأتي خلف الجيش الفرنسي الذي كان ينتقل إلى الجزائر حيث تلاحقه، لأنّها أسلحة الوطن الأم، وليست جزائرية تواجههم من الأمام، كما كانت هته الشبكة تتدّد بمختلف اللوائح والمناشير المعادية للجزائر، وقد كانت من بين الذين ساعدوا فانون للخروج من باريس إلى تونس سنة 1957م . ولكن بعد ثلاث سنوات من الكفاح مع القضية الجزائريّة، تم اكتشافها في شهر شباط–فيفري سنة 1960م، من قبل الحكومة الفرنسية، وألقي القبض على معظم أعضائها ما عدا مؤسسها جونسون [3].

[1])- Francis et Colette Janson : l'Algérie hors la loi, paris, éditions du seuil 1955, p17.

[2])- عبد المجيد عمراني، المرجع السابق، ص. 59.

[3])- المرجع نفسه، ص ص. 62-63.

إذا كان فرانسيس جونسون وهو فرنسي يقف هذا الموقف الشجاع إزاء الثّورة الجزائريّة دفاعا عن الحق وعن المبادئ الإنسانية، فكيف يتردّد فرانتز فانون عن السير في هذا الاتجاه، وهو الثائر المتمرد على الأوضاع الاستعمارية، منذ أن كان في جزيرة المارتينيك، وهو ما يزال طفلا صغيرا. نعم لقد أدرك هذا الرجل الإفريقي الأصل الزنجي البشرة، المارتينيكي المولد، الفرنسي الثقافة، أن الوقت قد حان ليعبر عن مشاعره الثورية الجيّاشة، التي طالما كبح جماحها في فرنسا وفي الجزائر.

أدرك فانون إذن حقيقة الثّورة الجزائريّة، وعمقها وأبعادها الإنسانية، فكتب يقول: "إنّ الثّورة في عمقها وحقيقتها هي التي تحوّل الإنسان، وتجدّد المجتمع، فهي متطورّة جداّ، وهي الأكسجين الذي يبدع وينظم الأفراد، إنّها الثّورة الجزائريّة"[1] .

وإلى جانب فرانسيس جونسون وفرانتز فانون، كان يوجد على العكس منهما رجل جزائري مفكّر فرنسي آخر من جيل هؤلاء المفكرّين الثائرين، ألا وهو "ألبير كامي" (Albert camus) (1913–1960م)، المفكّر والأديب الذي ولد في الجزائر من أبوين فرنسيين، ومع أنّ هذا المفكّر كان يدرك ثقل الوجود الفرنسي في الجزائر، لأنّها أرض مغتصبة، وليست فرنسية فقد كان على خلاف مع فانون وجونسون، إذ كان يؤيد الوجود الفرنسي بهذه البلاد ويساند سياسة "الجزائر الفرنسية"، ويتأسف عن تراجع السلطة الفرنسية أمام الحركة الثورية للشعب الجزائري، ويساند أي قرار يحمي الوجود الفرنسي في الجزائر، ويعمل على استمراريته.

لقد كان يرى أنّ الحل الوحيد لمشكّلة الجزائر، كما كان يسميها هو إنشاء فيدرالية جزائرية تضم المسلمين والأوربيين الذين يخضعون للقانون الفرنسي، لقد كان "ألبير كامي" يؤمن بعدم وجود أمة جزائرية، ولخص رأيه الإجمالي في القضية

[1])- المرجع نفسه، ص. 70.

الجزائريّة، فقال:" إنّ الجزائر مكونة من شعوب فيدرالية موحدّة ومرتبطة بفرنسا، تبدوا لي أفضل بدون مقارنة ممكنة في نظر العدالة البسيطة من جزائر مرتبطة بالإمبراطورية الإسلامية، التي لن تنجز اتجاه الشعوب العربية إلاّ إضافة البؤس والآلام واقتلاع فرنسيي الجزائر من موطنهم الأصلي".

وفي حفل تسليمه لجائزة نوبل للأدب، في عام 1957م، وكان سنّه حينها أربع وأربعين سنة، حاول بعض الطلبة الجزائريين، إقناعه بأهداف جبهة التحرير الوطني ولكنّه لم يستمع إليهم وقاطع المناقشة معهم"[1]. على الرغم من أنهم كانوا قد منحوه لقب "كامي الجزائر" و"الرجل العادل"، ولكنه لم يكن أبدا بالرجل العادل ولا بالجزائري الوفي للقضية الجزائريّة[2] .

أما جون بول سارتر (Jean-Paul Sartre) (1905–1980)، الأديب والفيلسوف الفرنسي الوجودي المعاصر، فلقد اهتم في البداية بالكتابات السيّاسية واكتفى بالتنديد بالأعمال الوحشية المرتكبة ضد الشّعب الجزائري، ولكنّه سرعان ما أدرك الحقيقة التي كانت غائبة عنه في البداية، حيث كان يعتقد أن المشكّل الجزائري هو مشكّل اقتصادي محض، على فرنسا حله وتسويته، ولكنّه أدرك أن المشكّلة أعمق من ذلك بكثير، إنّها مسألة الحرية والاستقلال للشعب الجزائري، فكتب مقالا بعنوان:"الاستعمار هو النظّام" (le Colonialisme est le Système) نشر في مجلة الأزمنة الحديثة سنة 1956م، طالب فيه فرنسا بالاعتراف بجبهة التحرير الوطني ممثلا شرعيا للشعب الجزائري وبضرورة الدخول معها في المفاوضات السيّاسية التي تفضي في النهاية إلى الاعتراف بالجزائر كدولة مستقلة[3].

---

[1])- المرجع نفسه، ص ص. 58-56.

[2])- Ahmed Taleb Ibrahimi : de la décentralisation à la révolution culturelle : (1962-1972), Alger : SNED, p. 184.

[3])- عبد المجيد عمرلني: المرجع السابق، ص76.

ومما قال فيه عن الممارسات الاستعمارية في الجزائر: "السيطرة تمت بعنف والاستغلال والقهر ... الاستعمار يرفض حقوق الإنسان، الإنسان الذي أخضعه للعنف ووضعه بالقوة تحت وطأة الجهل والفقر"[1]. كما أصدر كذلك كتابا بعنوان:"عارنا في الجزائر"، إذ اعتبر الاحتلال الفرنسي للجزائر عار وخزي للفرنسيين. ومن هذا المنطلق بدأ اهتمام سارتر بتطوّر أحداث الثّورة الجزائريّة، لأنّه كان مؤمنا بأن المثقف الواعي يجب أن يتحمل مسؤولية الكفاح ضدّ كل أشكال الظلم والاضطهاد، ومن ثم يكون الفيلسوف سارتر قد التزم بمبادئه في الدفاع عنها في مؤلفاته الأدبية والفلسفية والسيّاسية[2].

وقد قال في استجواب له مع "سيمون دي بوفوار" (Simone de Beauvoir) سنة 1954م : "أنظر إلى موقفي تجاه الثّورة الجزائريّة... وهي الفترة التي تخليت فيها عن الحزب الشيوعي لأن مطالب الحزب ومطالبي لم تكن واحدة، فالحزب يرى استقلال الجزائر بطريقة خاصّة وغامضة، بينما نحن متفقون مع جبهة التحرير الوطني لتحقيق الاستقلال في المستقبل القريب"[3] . وقد يكون احتكاك سارتر بفرنسيس جونسون، الذي كان أحد المحررين في مجلة الأزمنة الحديثة، هو الذي ساعده على تطوير مواقفه ضد الاستعمار خاصة منذ سنة 1956م[4].

المبحث الثاني: فرانتز فانون يلتحق بقيادة الثورة الجزائرية في تونس

[1])- ماتيو آن . من العبودية إلى العالمية فرانتز فانون : جواب المضطهدين، مقال على http : www ..alqabas.com.kw./temp/issus/355c3002 consulté Le : 16/05/09

[2])- المرجع السابق ، ص. 76.
[3])- المرجع نفسه، ص. 30.
[4])- آن ماتيو. من العبودية إلى العالمية فرانتز فانون : جواب المضطهدين، مقال على http : www .alqabas.com.kw./temp/issus/355c3002 consulté Le : 16/05/09

في الوقت الذي كانت فيه بعض الأصوات الفرنسية تتدّد بالثّورة الجزائريّة كان فانون قد وصل إلى تونس، واستقبل في مقر جبهة التحرير الوطني من مسؤولي الثّورة هناك، كابن خدة وعبّان رمضان، وبمجرّد وصوله ساعده وزير الصحّة التونسي آنذاك محمد بن صالح في الحصول على منصب عمل في مستشفى "الرّازي" بمنوبة، ومنحه مسكنا وظيفيا ثم لحقت به عائلته، وتحصّلت زوجته على عمل في الإذاعة التونسية، ثم انتقلت للعمل بجريدة تونسية بعد ذلك، وهي جريدة (Action) لصاحبها البشير بن محمد[1] .

أما فانون فقد اكتسب إسما مستعارا في تونس، وهو فارس، ليستطيع التحرك على عدّة جبهات: أوربا، إفريقيا، وحتى في مراسلات دار النشر ماسبيرو (Maspero) التي كانت تنشر له أعماله آنذاك.

وفي هذه الفترة كان هناك حوالي مائة وخمسين ألف جزائري مسلّحين في تونس يخدمون قضيتهم من هناك، وكانت السلطة التونسية برئاسةالحبيب بورقيبة منزعجة إلى حد ما من تواجد هذا العدد الهائل من الجزائريين في بلدها المستقل حديثا لأنّها كانت ترى أنّهم بهذه الكثافة يقللون أحيانا من احترام بلدها.

كما كان هناك صراع كبير في هذه الفترة بين الثوريين الذين كانوا ينادون بانتهاج الطريق السياسي للوصول إلى الهدف المنشود، وبين العقداء العسكريين الذين كانوا يرجّحون التوجّه العسكري، وكثيرا ما كان عبّان يردّد: "تريدون خلق قوة مبنية على الجيش ؟ السياسة هي شيء آخر، لا يمكن أن يقودها أميّون وجهلاء"، لقد كان حازما وشديدا في التعامل مع زملائه ومخالفيه، وكان يرى أن العقداء العسكريين مستبدّون إذ يقول عنهم: "يتخيلون أن لهم حق الحياة والموت على السكّان

[1])- Alice cherki : Op, .Cit., p. 148.

الذين يسيرونهم، إنهم ضد الحرية والديمقراطية التي نريد أن نكرّسها في الجزائر المستقلة..."[1].

أمّا فانون فقد كان يحبّ عبّان ويحترمه، وكان قد التقى به في الجزائر يوم ثلاثين كانون الأول–ديسمبر 1956م[2] بوساطة بيار شولي كما كان يقدّر بن خدّة ويحترم كريم بلقاسم ويعتبره رجل الشّعب أو بالأحرى ابن الشّعب، في حين أنّه كان لا يميل إلى عبد الحفيظ بوالصوف(1926–1982م) ولخضر بن طوبال(1923–2002م) وكان يقول عنهما: "عندما تسمعهما يتكلمان تصبح لديك فكرة الجزائر المستقلة مرتبطة بالصراع على السلطة"[3].

والحق أن نفوره منهما زاد بعد اغتيال عبّان رمضان في السابع والعشرين من كانون الأول–ديسمبر 1957م، لقد أحسّ فانون أنّ الجزائر فقدت رجلا كان من الممكن أن يكون رئيسا مناسبا، بل وجيدا جدا للجزائر المستقلة، والواقع أن فكر فانون كان يلتقي مع فكر عبّان رمضان، لأن هذا الأخير كان يساريا أيضا، متشبعا بالفكر الثوري الذي أخذه من كتابات كبار أقطاب الشيوعية العالمية، كـ: لنين، وماوتسي تونغ، وشي جيفارا، وغيرهم من الذين زرعوا الفكر الثوري في العالم الثالث الخاضع للهيمنة الإمبريالية.

إن غياب عبّان رمضان نهائيا عن الحياة والثّورة الجزائريّة،لم يمنع فانون من الاستمرار في تقديم كلّ ما يستطيعه [4]. وكان رجلا نشيطا لا يعرف للخمول سبيلا فعندما كان في تونس، عمل بإخلاص كبير طبيبا بمستشفياتها يعالج المرضى وأستاذا في مراكز الثّورة يدرّس جنودها، وكان في الوقت ذاته على علاقة وطيدة

[1])- Ibid., PP. 146-148.

[2])- بيار و كلودين شولي: المصدر السابق، ص. 56.

[3])- Alice cherki : Op. Cit., p. 50.

[4])- Ibid., pp. 150-151.

بمسؤولي جبهة التحرير الوطني العاملين بتونس[1].وفي شهر حزيران–جوان من هذه السنة (1957م) استدعي فانون مع محمد الميلي(1930–حي 2009م) من قبل بن يوسف بن خدة للالتحاق بتطوان بشمال المغرب للعمل في جريدة المجاهد بينما بقيت أسرته في تونس .

وكان طوال تواجده هناك دائم القراءة والكتابة لا يخلد للنوم والراحة سوى خمس ساعات في اليوم، وموازاة مع القراءة كان بعد الظهر يحظر اجتماعات هيئة التحرير–لجريدة المجاهد– التي غالبا ما كانت تهتم بدراسة بعض النصوص الثورية كما كان دائم البحث والاطلاع في السياسية والطب النفسي وخاصة في كتب أستاذه توسكال، وقد مكث فانون هناك ولم ينتقل إلى تونس مرة أخرى إلا بعد أن تم نقل جريدة المجاهد إلى تونس في أكتوبر 1957م[2])وقد كانت الصحافة التي تخدم الثّورة وتدعّمها على المستويين الداخلي والخارجي، ما تزال في الطفولة تحتاج لمن يوجهها ويطعّمها بالمقالات الثورية الواعية المؤثرة. ولم تكن جبهة التحرير في هذه المرحلة تملك سوى صحيفة واحدة هي جريدة المجاهد لسان حال جبهة التحرير الوطني كما سلف الذكر. كانت تصدر في البداية داخل الجزائر، ثم انتقلت إلى المغرب تحت إدارة محي الدين موساوي ورضا مالك، ثم إلى تونس بقيادة الرائد قاسي، ومجموعة من المحامين الجزائريين أمثال بوزيدة، عبد الرازق شنتوف[3]. ولقد انضم إلى قسم التحرير بإدارة هذه الصحيفة فانون كمحرر للمقالات السيّاسية، وكان تعيينه من قبل عبّان رمضان، فأصبح يوازي بين عمله كطبيب في مستشفى منوبة، وبين عمله الفكري في جريدة المجاهد[4] .

[1]) - أحمد حمدي: الثورة الجزائرية والإعلام ، ط الثانية ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ص ص. 121- 122 .
[2]) – محمد الميلي : المصدر السابق ، ص. 22.
[3])- أحمد حمدي: الثورة الجزائرية والإعلام، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ص ص. 121-122.
[4])- Alice Cherki : Op, Cit., p. 146.

كان التحرير في هذه الجريدة جماعيا تحت قيادة أحمد بومنجل، وهيئة التحرير كانت تضم: فرانتز فانون، رضا مالك(1931–حي 2009م)، إبراهيم مزهودي، ومحمد الميلي، وعبد الله شريط(1921–حي2009م)، ومحي الدين موساوي وآخرون، وفي شهر كانون الأول–ديسمبر 1957م انضم إليهم بيار شولي، كان الفريق يجتمع على الأقل مرّتين في الأسبوع، والعمل جماعيا، والنقاش في كل شيء[1] ، وأثناء النقاش كان فانون عندما ينزعج ينزع ساعته، ولكنه طيلة تواجده معهم أعطى نموذجا في الالتزام والتواضع وحبّ العمل[2] . وهكذا أصبح هذا الرجل واحدا من أبناء جبهة التحرير الوطني، وأحد مناضليها المفكّرين المخلصين وعضوا في صحافة الثّورة الجزائريّة، يعمل في عدّة جبهات: صحية، سياسية، أدبية وتعليمية، وقد أصدر في هذه الفترة أي ابتداء من شهر أيلول– سبتمبر 1957م مجموعة من المقالات المثيرة منها:

أولا: مقال في أيلول– سبتمبر1957م، بعنوان: "الجزائر في مواجهة المعذبين الفرنسيين"، نشر في مجلّة المقاومة الجزائريّة، تحدث فيه عن تعذيب الجزائريين من قبل الفرنسيين.

ثانيا: مقال في تشرين الثاني–نوفمبر 1957م، بعنوان "بخصوص مرافعة"، تحدث فيه عن المرأة الجزائريّة ومشاركتها في الثّورة من أجل الاستقلال، كما تحدث عن جميلة بوحيرد(1934–حيّة2009م) والتعذيب الذي مورس عليها من قبل الجلاّدين الفرنسيين ووجّه من خلاله نداءا إلى المثقفين لإبداء موقفهم تجاه ما يجري في الجزائر.

[1])- أحمد حمدي: المرجع السابق، ص. 123.

[2])- Alice Cherki : Op, Cit., p. 146.

ثالثا: سلسلة من المقالات نشرت ما بين الخامس عشرة والثلاثين من كانون الأول– ديسمبر 1957م، بعنوان "المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون في مواجهة الثّورة الجزائريّة"، لقد سجلّ فانون في هذه المقالات خيبة أمله في اليسار الفرنسي، وعكست بالفعل إخلاصه الحقيقي للثورة الجزائريّة، ذلك أن هذه الثّورة جعلت اليسار الفرنسي برمّته على المحك، ووضعته في إطار جديد، إمّا أن يتضامن معها وإمّا أن يظهر على حقيقته، وبذلك ينكشف وجهه الحقيقي.

وهنا كان يأس فانون واضحا من هذا التيار، فلقد كان اليسار الفرنسي يعتبر الهوية الجزائريّة في طور التكوين بناء على ما صرّح به رئيس الحزب الشيوعي موريس توريز عندما شرح نظرية البوتقة الجزائريّة[1] يوم الحادي عشرة شباط–فيفري 1939م أثناء مهرجان أقيم في الجزائر، فقال: "نحن الشيوعيين، لا نقر بوجود العروق العنصرية، نحن لا نريد أن نعترف بغير الشعوب... فأين يكون في بلادنا (العرق المختار) الذي يستطيع أن يطمح إلى السيطرة بمفرده، العرق الذي يستطيع أن يقول: هذه الأرض كانت أرض أسلافي وأجدادي وحدهم، وعليه أن تكون أرضي أنا وحدي...؟"[2].

نحن نتساءل عمّا يقصده موريس توريز من عبارة "نحن لا نريد أن نعترف بغير الشعوب "، ألم يكن الجزائريون شعبا كسائر الشعوب الأخرى لهم خصائصهم ومقوماتهم الذاتية المتميزة عن باقي الأجناس الأخرى؟ أم أنه لا يعترف إلاّ بالعروق الأوربية كأساس للشعوب، إنهّا محاولة تنظيرية خاطئة من الأساس، لأنّها نظرة عنصرية، والماركسية أو اللينينية مثلا لا تفرق بين الشعوب في العرق، وإنّما تفرق بينهم على أساس الطبقية الاجتماعية.

---

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص ص. 83-94.

[2])- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931-1945)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ص. 303.

ثم يضيف زعيم الشيوعية الفرنسية في ذلك الوقت: "أليس ثمّة بينكم هنا الأبناء المنحدرون من تلك العشائر النوميدية القديمة؟... أليس بينكم أيضا أولئك البربر الذين أعطوا الكنيسة الكاثوليكية القديس أوغسطين (Saint Augustin) ومطران هيبون؟، أليس بينكم أولئك القرطاجيون والرومان؟ وكذلك فبينكم الآن أبناء أولئك العرب، الذين جاءوا إلى هذه البلاد وراء راية النبي كذلك أبناء الأتراك الذين اعتنقوا الإسلام والذين ظهروا بعدئذ بمثابة فاتحين جدد، إن جميع هؤلاء انصهروا على أرضكم الجزائريّة، وانظم إليهم اليونانيون والمالطيون والإسبانيون والفرنسيون... إنّ ثمة أمّة جزائرية أخذت في التكوّن، وهي أيضا في انصهار أجناس مختلفة"[1].

كيف يتسنى إذن لمنظر الحزب الشيوعي الفرنسي موريس توريز أن يحدّد بداية تكوين الأمّة الجزائريّة سنوات الثلاثينات من القرن العشرين، وكيف يتسنّى لتلامذته وخلفائه إبان الثّورة التحريرية الجزائريّة، أن يتصوروا أيضا أن الأمة الجزائريّة ما تزال في طور التكوين. وبالتالي فإنهم لا يستطيعون الوقوف إلى جانب الثّورة الجزائريّة، لأنّهم انضموا إلى نظرية الاستعماريين الذين يعتبرون رجال الثّورة الجزائريّة خارجين عن القانون، بل (فلاّقة وإرهابيون) وهم يدّعون اعتناق المبادئ الشيوعية الثورية التي كانت تتزعّمها الأممية الشيوعية الثالثة.

إنّ اليسار الفرنسي باستثناء بعض الشخصيات قد تطوّر في صالح القومية الفرنسية على حساب شعوب المستعمرات التي عاشت تحت الهيمنة الإمبريالية الفرنسية ردحا من الزمن. ولم يكن أمثال فانون وجونسون وبيار شولي إلاّ قليلا من اليساريين الفرنسيين الذين تعلّقوا بمشروع ثورة الجماهير في المستعمرات لاسيما المستعمرّة "الفريدة"، كما كان يسميها الفرنسيون (الجزائر). نعم لقد حاول اليسار

[1])- المرجع نفسه، ص. 304.

الفرنسي إقناع فرنسا بإتباع سياسة إنسانية بالجزائر في وقت ما، ولكنّه لم يستطع أن يقف وقفة ثابتة بجانب الثّورة الجزائريّة الرامية إلى دحر الاستعمار.

وبعد سنة 1957م عُيّن فانون ناطقا رسميا لجبهة التحرير الوطني، وفي هذه المرحلة عاش حادثة ملّوزة بجنوب القبائل في الواحد والثلاثين من شهر أيار–ماي 1957م، الذي راح ضحيتها حوالي ثلاث مائة شخص وقد شكّلت منعطفا خطيرا في تاريخ الثّورة، مما كان يوحي بوجود مشاكل عويصة في صفوفها، لاسيما بين جبهة التحرير والمصاليين، وقد حمّلت بعض الأوساط الثورية، ومن بينها فانون السلطات الفرنسية مسؤولية ما وقع في ملّوزة[1] .

والواقع أن ذلك كان نتاجا لصراع الأقطاب حول مشروعية الكفاح المسلّح فجبهة التحرير الوطني المفجّر الأول والأخير للثورة كانت ترى أنّ الكفاح المسلّح هو عمل جماعي، تقوده النخبة المناضلة من الثوريين، باعتبارهم المؤسسين الوحيدين للثورة ومصالي الحاج (1898–1974م)الذي كانت تنتمي إليه حركة بلّونيس(1912–1958م) في الجزائر كان يعتبر الثّورة قد اغتصبت منه اغتصابا، وكانت قوات بلّونيس تحارب على جبهتين، جيش التحرير الوطني، والقوات الفرنسية في آن واحد، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على تمزق القوى التابعة لمصالي الحاج، وفقدها لزمام المبادرة في أوّل الأمر مما جعلها تجري وراء السراب[2] .

أما فانون فإنّه على الرغم من فقد المناورة السيّاسية، فإنه كان يعرف جيدا أصدقاءه وأعداءه من الذين كانوا في الساحة السيّاسية آنذاك، ويدرك أن عدوّه الحقيقي هو الاستعمار، وأنّ أصدقاءه هم أولئك الذين يقاومون هذا الاستعمار في كل مكان من أجل استرجاع الاستقلال الوطني للشعب الجزائري، إن فانون هو فلتة

---

[1])- Alice cherki : Op. Cit., p. 150.

[2])- الصادق بخوش : مذكرات الرائد سي لخضر بورقعة، شاهد على اغتيال الثورة، ط2، دار الأمة، 2000م، ص ص. 246-249.

تاريخية متميزة استفادت منها الثّورة الجزائريّة، لأنّه لم يكن فرنسي الأصل، وإنّما كان أحد أبناء المستعمرات الفرنسية، التي مورست فيها كل أشكال الإقصاء والعنصرية ضد السكان الأصليين كما هو الحال في الجزائر آنذاك.

وهكذا فإن فانون قد واصل عمله كطبيب بالموازاة مع نشاطه الإبداعي في السياسة والأدب والفكر، وقد كان مخلصا لمرضاه في المستشفى الرّازي بمنوبة وحاول تغيير كل شيء تماما كما فعل في مستشفى البليدة بالجزائر، وقد اضطر ذات يوم إلى طرد أحد الممرضين بسبب إهماله لواجباته إزاء المرضى، وواصل عمله بالتزام ونشاط كعادته، إذ تمرد على الأساليب القديمة التي كانت متبعة، وكان مسؤولا عن المرضى الجزائريين(مجاهدون، مدنيون، وجنود ولاجئون). وسواء بمستشفى الرّازي أو بضيعة في منطقة الكاف القريبة من الحدود الجزائريّة، كان فانون يمارس واجبه على أحسن وجه، ويقدّم العلاج اللازم للمرضى من علاجات نفسية وجسدية إذا اقتضى الأمر ذلك، مستعينا بأطباء مختصين آخرين بيار شولي، أليس شاركي...الخ وكانت تلك المعالجة تتم مرّة في الأسبوع[1].

وكما حدث في الجزائر حدث في تونس أيضا، وجد حسّادا ومعارضين جدد لنشاطه وعلى رأسهم مدير مصلحة الأمراض العقلية، الذي كان يعتبره مجرّد جزائري أسود متمرّد حتى أنهم كانوا يدعونه "نيقرو" لسواده، وهو اسم عنصري ربّما كان له تأثير سلبي في نفس فانون، بل فقد اتهموه بالصهيونية أيضا[2].

وصفوة القول أن هذا المناضل الإفريقي المارتينيكي كان فلتة إنسانية متميزة لأنه تمرد على التاريخ الاستعماري وعلى الحضارة الغربية التي سخرت شعوب العالم الثالث في ذلك الوقت إلى خدمة أبناء الغرب الأوربي وحده، وبنت حضارتها المادية

---

[1])- Alice cherki : Op. Cit., p. 146 .
[2])- Alice cherki : Op. Cit., p. 148.

على حساب الشعوب المضطهدة، إنه قد قاوم كل المغريات التي كانت تعده وتمنيه بالحياة السعيدة لو أنه كان مواطنا فرنسيا منسجما مع الحياة السياسية الاستعمارية ولكنه أبى أن يكون أسيرا لتلك القيود التي تجعله عبدا مرة أخرى.

نعم لقد حطم كل القيود التي كانت تشده إلى فرنسا الأم، التي كانت تعتبر مصدر إلهام لشعوب المستعمرات في نظر ساستها ومثقفيها، وانضم إلى ثورة كانت ما تزال تبحث عن مؤيدين ومناصرين لها في مقاومة أبشع استعمار استيطاني، ران على هذه الأرض بكل قواه قرنا وربع قرن.

المبحث الثالث: فرانتز فانون يخدم القضية الجزائريّة من تونس

تطرقت في المبحث الثاني إلى الملابسات التي أحاطت بالتحاق فانون إلى تونس لانضمامه غلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وكيف أنه أصبح يعمل طبيبا في إحدى المستشفيات التونسية باسم الثورة الجزائرية، وعلى اعتبار أنه جزائري وليس مارتينيكي أو فرنسي لأنه أصبح يعتبر نفسه واحدا من أبناء الجزائر، وندرس الآن كيف عالج فانون الدسائس والمؤامرات التي حيكت ضده في مستشفى الرازي بمنوبة في تونس من قبل بعض زملائه التونسيين ومن الإداريين في المستشفى، حتى اضطر إلى تغيير مكان العمل من الرازي إلى شارل نيكول بالقرب من باردو وهو أكبر المستشفيات في تونس– لا يقل أهمية عن مستشفى جوانفيل بالبليدة في الجزائر– بمساعدة وزير الصحة التونسي محمد بن صالح، الذي كان مؤيدا للثورة الجزائرية.

والتحق بمنصبه الجديد في شهر أيلول–سبتمبر سنة 1958م رفقة فريقه الطبي وقد وجد فانون في هذا المستشفى خليطا من الأطباء العاملين به (أتراك،

ألمان، أرمن جزائريون، كاميرونيون...). جاءوا إلى هذا المستشفى لأهداف مختلفة[1].

وقد كان هذا الجو الجديد فضاءً رحبا لفانون بعد التضييق عليه بمستشفى منوبة ساعده على العمل بكل راحة وسمح له وجوده هناك بالنشاط والإبداع أكثر مما كان عليه من قبل. فبدأ بتأليف كتابه " الثّورة الجزائريّة في عامها الخامس "، بمساعدة جون ماري مانيولان[*]، وهي مساعدة اجتماعية فرنسية وصلت إلى تونس عام 1957م كمتعاقدة مع مصالح الصحة التونسية وبالتحاقها بمستشفى شال نيكول أصبحت ضمن الفريق الطبي لفانون وأصبحت فيما بعد يده اليمنى وعصاه التي توكّأ عليها في هذه الفترة، فقد كانت لا تفارقه وتساعده في كتابة كل شيء، مقالات المجاهد، بعض التقارير حول المعالجة النفسية، حواراته...وحتى كتابه معذّبوا الأرض فيما بعد[2] .

لقد حاول فانون من خلال كتابة " الثّورة الجزائريّة في عامها الخامس" والذي سمي بعد وفاته " سوسيولوجية ثورة " وكان في الأصل سيحمل عنوان" حقيقة أمة"،حاول من خلاله دراسة تأثير الاستعمار على المجتمع الجزائري، ومن تم تأثيره على كل المجتمعات التي يحتلها، لقد أدرك فانون من خلال تفحّصه العميق للعادات والتقاليد الجزائريّة وتأثير الاستعمار عليها، أنه يشوه إنسانية الشعوب، ويقتلعها اقتلاعا من جذورها وأصالتها، ومن ثم يحصرها في تلك البوتقة البالية القديمة ويحيل بينها وبين أي شكّل من أشكال المقاومة. ثم تصبح تلك الشعوب شعوبا ضعيفة، متخلفة واقفة في مكانها، غير قادرة على أن تخطوا أية خطوة إلى الأمام.

---

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 163.

[*]- وهي شيوعية، غادرت الحزب الشيوعي عام1958م.

[2]) - Ibid., PP. 165- 166.

لقد توصل فانون من دراسته للشعب الجزائري، إلى أنه استطاع أن يقاوم الاستعمار من خلال تمسكه بهويته والاحتفاظ بأصوله، وأعتبره حالة استثنائية، إذ عبرت تلك المقاومة الجزائريّة عن الطاقات الكامنة في أعماق هذا الشّعب الذي جعلته يستشعر الخطر الخارجي ويقف يدا واحدة في وجهه[1] .

وقد ركز فانون في هذا الكتاب على أهمية المرأة الجزائريّة كحصن منيع أمام وصول الاحتلال إلى ضرب كيان الأمة من الداخل بمحاولة دبلجتها، ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلا، لأن المرأة المسلمة الجزائريّة، كانت ما تزال حتى ذلك الوقت تشكّل الجدار الحصين في وجه النظريات الاستعمارية، سواء تلك التي أصابت شيء من التعليم أو التي كانت ما تزال أمية مخفية وراء الرجل[2].

وقد قال فانون عن الجزائر في هذا الكتاب أيضا: " إنّ الأمة الجزائريّة لم تعد اليوم موسومة في آفاق خيالية، ولم تعد وليدة خيالات غامضة، قد اعترتها الخرافات والأوهام، وذلك أنها قلبت الجزائري ذاته حتى أصبح، ذو أبعاد مستحدثة لوجوده"[3] .

لقد أتم فانون كتابة هذا المؤلف في شهر تموز–جويلية 1959م، وأتصل بفرحات عباس(1899–1985م) بوصفه رئيسا للحكومة الجزائريّة المؤقتة في هته الفترة ليرخص له نشر هذا الكتاب عند فرنسوا ماسبيرو صاحب دار النشر ماسبيرو (MASPERO)بفرنسا، فأذن له، وقد قام صاحب هذه المطبعة بالتقديم لهذا المؤلف وقال عنه:" أنه تحليل مستفيض لشعب لا يمكن لأي شخص في أي ظرف كان، أن ينفي المعاناة التي دفعته إلى آخر نقطة ،وحان الوقت أن يُعترف له بالكرامة التي

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص ص. 143- 144

[2]) - Annabelle Gollay:" Féminisme et post colonialisme (Beauvoir, fanon et la guerre d'Algérie)" , international journal of francophone studies, volume 10, numéro 3, 2007. PP. 409-410.

[3])- فرانتز فانون: سوسيولوجية ثورة ، ترجمة ذوقان قرقوط، ط1 ، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت: 1970-م، ص. 19.

أسترجعها غالبا" ويضيف ماسبيرو قائلا عن فانون : "لا يمكن إلا أن يدفعنا في اتجاه تقارب النفوس الذي هو شرط المستقبل"[1] .

وقد تم حجز هذا الكتاب ثلاث مرات، الطبعة الأولى والثانية فيما بين فيفري – مارس 1960م والثالثة عام 1963م، وأعتبر تهديدا للأمن الداخلي للدولة الفرنسية وعلى الرغم من هذا الحجز الكبير إلا أنه انتشر من خلال بعض المكتبات الفرنسية التي سوّقته حتى إلى السجون، وربما كان هذا الرفض للكتاب هو الذي دفع بالناشر ماسبيرو، إلى تغيير عنوانه من"الثّورة الجزائريّة في عامها الخامس" إلى "سوسيولوجية ثورة"[2] .

والحق أن هذه الفترة التي برز فيها فانون على الساحة السيّاسية والفكرية دفاعا عن الثّورة الجزائريّة،كطبيب وكاتب وصحافي، برزت حركات سرية تحررية تدعوا في مجموعها إلى استقلال إفريقيا، وكان فانون بحكم وجوده في تونس على اتصال دائم بها، فتعرض نتيجة لذلك إلى محاولة اغتيال من قبل المنظمة الإرهابية الفرنسية " اليد الحمراء" وهو في مهمة إلى المغرب بهدف تنظيم الصحة في إطار الثورة التحريرية الجزائرية، بإطلاق الرصاص عليه وأصيب على إثرها بإصابات خطيرة (إثني عشرة كسرا في مستوى الظهر)، مما أصابه بالشلل المؤقت،حتى أن البعض قالوا بأنه توفي ولكنه نقل إلى روما للعلاج ولحقته عائلته إلى هناك.

وأثناء توجهه إلى المطار حيكت ضده مآمرة أخرى وفجرت سيارته، ولكنه لم يصب وراح ضحية ذلك الانفجار طفلان وعندما ذهب إلى المستشفى بروما حدثت محاولة أخرى لاغتياله، إذ أطلق الرصاص على سريره ومن حسن حظه أنه لم يكن

---

1) - Alice Cherki : Op. Cit., P. 190.
2) - Ibid.; P. 191 .

نائما عليه، لأنّه تحسس لما قد يحدث له خصوصا وقد قرأ في الجرائد أنه تحدثوا عن مكان تواجده بمستشفى روما[1] .

والواقع أن الجزائر في هذه الفترة كانت تعيش في حالة تذبذب في علاقاتها مع الأشقاء في تونس والمغرب، مع العلم أنها قد تلقت مساعدات معتبرة منهما منذ اندلاع الثّورة التحريرية سواء من حيث التسلح أو حرية تنقل وحدات جيش التحرير الوطني واتخاذها في كل من تونس والمغرب قاعدة خلفية للهجوم على القوات الفرنسية بالجزائر[2] .

وبعد مرور أربع سنوات على الثّورة الجزائريّة، وتصاعد الكفاح الوطني أدرك التونسيون والمغاربة أن الحرب ستطول، وأن ذلك سينعكس سلبيا على بلديهما فبدأت تتضارب المصالح بين الطرفين، جبهة التحرير تحاول الحفاظ على مكتسباتها هنالك لمواصلة كفاحها ضد الاحتلال الفرنسي، أما تونس والمغرب فكانتا تبحثان عن مصالحهما بالدرجة الأولى، وأهم تلك المصالح هي التأكيد على سياستها ومحاولة التأثير على سياسة جبهة التحرير الوطني بما يخدم توجهاتهما وعلاقاتهما مع الغرب ومحاولة إبعاد جبهة التحرير الوطني الجزائري عن حليفة المعسكر الشرقي مصر وبدآ في مراقبة جيش التحرير على أراضيهما[3] وانعقدت لذلك مجموعة من اللقاءات المغربية بغية إيجاد حل يرضي الجميع أهمهما:

- **ندوة طنجة:** انعقدت في المغرب فيما بين 27- 30 نيسان-أفريل 1958م، ترأس الوفد المغربي أحمد بلّفرج رئيس مجلس الحكومة المغربية ، وترأس الوفد التونسي الباهي لدغم كاتب الدّولة برئاسة الجمهورية التونسية، أما جبهة التحرير الوطني فقد

[1])- دافيد كوت: المرجع السابق ، ص. 105.

[2]) - Mohamed Harbi : Le F.L.N Mirage et Réalité des origines a La prise du pouvoir (1945- 1962), édition, J. A, 1980, Paris, P. 210.

[3])- صالح بلحاج ، المرجع السابق، ص. 66.

ترأس وفدها كريم بلقاسم، وقد تعهدت خلال هذه الندوة، الحكومتان التونسية والمغربية بتقديم الدعم الكامل وغير المشروط للثورة الجزائريّة، كما اتفق المجتمعون على ضرورة تكوين حكومة جزائرية مؤقتة في الخارج، ولكن الجارتان لم تلتزما بوعود هما بعد ذلك . وبعد حوالي شهر وعشرين يوم إنعقدت ندوة تونس في 16 حزيران–جوان 1958م ضمت ممثلين من البلدان الثلاث وعبر فيها الحاضرون بإخلاص عن تأييدهم.

ومما قاله فرحات عباس في هذه الندوة: " ... ينبغي أن ينطلق أي تحليل من وضع الشّعب المعني مباشرة والحالة هذه، فثمة في الجزائر الحرب،وإذا هربنا من الحرب لاشك أن بإمكاننا الوصول إلى نتائج مذهلة بالنسبة إلينا نحن الجزائريين، فإن موقف ديغول يعني الحرب، وذلك مهما يكن الدعم الذي يتلقاه ديغول من الأمريكيين والروس أو حتى من المصريين، إن كلمة دمج تعني الحرب"[1] .

هذا على المستوى المغاربي، أما على المستوى الدّولي فقد بدأت الجزائر في ربيع 1958م تجد طريقها إلى المحافل الدّولية، نتيجة للمجهودات التي بذلها ممثلو جبهة التحرير الوطني، في مختلف المؤتمرات الدّولية وهيئات الأمم المتحدة[2] وحتى على مستوى الإعلام، إذ كان الهدف منه معرفة الأخبار عن مسار الثّورة في مختلف المناطق من جهة، وإيصال أفكار وصوت الثّورة إلى الجماهير الغفيرة وصد الهجومات الإعلامية الفرنسية القاسية من جهة أخرى[3].

قد تحدث فانون في هذا السياق وقال :" إن ردود الفعل التي صدرت عن رجل الاحتلال هي التي أنبأت الجزائري بأن أمرا ما ذا خطورة يجري في البلاد. إن

[1]) - Mohamed Harbi: Op. Cit., PP. 211-212.

[2])- صالح بلحاج: المرجع السابق ،ص. 67.

[3])- احمد حمدي: المرجع السابق ، ص. 59.

الأوروبي يكوّن لنفسه بواسطة الشبكة الثلاثية: الصحافة، الراديو، وتنقلاته. إطلاعا واضحا إلى حد كاف، عن الأخطار التي تحيط بالمجتمع المستعمر(بفتح الميم).

أما الجزائري الذي يقرأ في وجه رجل الاحتلال هزيمة الاستعمار المتزايدة فإنه شعر بالحاجة الحيوية والملحّة في أن يكون على إطلاع، لقد كان الإحساس المشتّت أن أمرا ما ذا طبيعة أساسية يجري. معززا في الوقت ذاته، بتصميم الوطنيين المدعّم بالأفعال على الواقع كأمّة.

لقد لعب الإعلام الشفاهي أو ما يسمى الإعلام الهامس دورا هاما في بث روح الثّورة والتعبئة الجماهيرية العامة خاصة وأنه يتميز بالسرعة في الانتشار وقوة القبول وصدقه الخالص. ذلك أن مصدره هو أبناء الثّورة ذاتهم، ولقد تحدث عنه فانون فقال: "قبل الثّورة، كانت ثمة حياة وحركة ووجود للمعمر، تقابلها لدى المستعمر حشرجة" [1]

لكن جبهة التحرير الوطني رأت فيما بعد ضرورة تنظيم جبهة إعلامية قادرة على ضبط الأخبار وتجميع جماهير الشّعب الجزائري حولها، خاصة وقد ظل الجزائريون يعتمدون على الصحافة الصادرة في باريس طيلة الشهور الأولى للثورة. وهذا ما أكده فانون فقال: "حاول الجزائري أثناء شهور الحرب الأولى تنظيم جهازه الإعلامي بالصحافة المكتوبة، عندئذ كانت الصحافة الديمقراطية التي كانت لا تزال موجودة في الجزائر إلى ذلك الحين، والصحف اليومية العريقة في معارضة الاستعمار أو ذات الإرادة الموضوعية، هي التي يُقبل على قراءتها بشغف، فيستقي الجزائري من هذا القطاع الإعلامي عناصر تساعده على إعادة توازنه" [2].

[1])- فرانتز فانون : سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق، ص ص. 70- 73.
[2])- أحمد حمدي: المرجع السابق ، ص. 65.

وفيما بين 26 كانون الأول–ديسمبر 1957– الفاتح من كانون الثاني– جانفي 1958م انعقد المؤتمر الأول لتضامن " الشعوب الآفرو آسيوية"، مثلّه عن الجانب الجزائري الأمين دباغين"[1]. وقد خرج بتوصيات كانت تدين في مجملها الحرب الاستعمارية الجارية والفضائع التي ترتكبها القوى الإمبريالية الفرنسية في الجزائر ضد الشّعب الجزائري المكافح من أجل استقلاله"[2].

وفي الأمم المتحدة كان الموقف معتدلا خصوصا مع المساعي التي قدمها رئيس الجمهورية التونسية الحبيب بورقيبة والملك المغربي محمد الخامس، وإبداء هما رغبتهما في ضرورة البدء في المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني والتوصل إلى حل في القضية الجزائريّة طبقا لأهداف الأمم المتحدة[3].

كانت القضية الجزائريّة إذن في هذه المرحلة تمر بمنعرج حاسم، تحتاج فيه إلى دعم آخر من الدّول الاشتراكية التي لم تكن في ذلك الوقت قد قدمت لها مساعدات معتبرة. وجاءت الفرصة مناسبة لتزداد مشاعر فانون الإنسانية، عندما زار رجال قيادة جبهة التحرير الوطني الصين الشّعبية. كانت هذه الزيارة من اقتراح بن يوسف بن خدة الذي كان ضمن الوفد المؤلف من سعد دحلب ومحمود شريف. كان الاستقبال رسميا بالأعلام الجزائريّة من قبل أهم الشخصيات الصينية: القائد الأعلى للقوات الصنية (في حرب كوريا) "بان توشاي" (Tucheipan) ووزير الخارجية "شينيي" (Chinyi). وعند مغادرتهم قدم لهم " ماوتسي تونغ" بنفسه تقديره الخاص وشكره على مواجهتهم للعدو الاستعماري الإمبريالي. وقد أسفرت هذه الزيارة، عن حصول الوفد علي بعض الأسلحة الهامة مثل مدافع (من طراز 75مم الثابتة)

[1])- صالح بلحاج : المرجع السابق ، ص. 67 .
[2])- نص اللائحة نشر في المجاهد، رقم 15 بتاريخ 1 جانفي 1958م .
[3])- صالح بلحاج: المرجع السابق، ص. 69.

ومئونة غذائية (شاي، أرز) بكميات هائلة حتى أن الجبهة، فكرت مقايضتها بالأسلحة مع البلدان التي تملك السّلاح.

بعد هذه الزيارة توجهوا مباشرة إلى منغوليا، حيث حصلوا هنالك أيضا على الدعم الكامل للقضية الجزائريّة. ومنها انتقلوا إلى موسكو، التي لم تكن قد اعترفت بعد بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائريّة، ومع ذلك فإن الوفد قد عاد من هناك وهو راض بما تركته هذه الزيارة من تأييد للثورة[1].

ويبدو أن فانون باعتباره شخصية بارزة في الثّورة قد رحب كثيرا بهذا التقارب الذي حدث بين جبهة التحرير الوطني والدّول الإشتراكية، وتمنى لو أنه كان يكافح من أجل استقلال جزر الأنتيل، فقدم اقتراحا في شهر كانون الثاني–جانفي عام 1958م يقضي بإمكانية إقامة فيدرالية بين جزر الكراييب، على الرغم من أن العوائق والعقبات التي تقف في وجه هذا الإتّحاد كانت أكبر من عوامل النجاح، لأن هذه الجزر متباينة ثقافيا وحضاريا فبعضها كان متقدما بينما البعض الآخر كان مازال في مؤخرة المسيرة الحضارية فالجزر التابعة لفرنسا ظلت متخلفة بسبب الأساليب الاستعمارية المتبعة فيها سواء على المستوى السياسي أو على المستوى الاقتصادي، لما كانت تقوم به من تزييف في الانتخابات وإخضاع لممثلي هذه الجزر إلى المصالح الفرنسية، وإبعادهم عن مهامهم الأساسية المتمثلة في الدفاع عن مواطنيهم المنكوبين.

مما جعل الجزر مناطق فرنسية كلية، حيث بقيت تعاني من الفقر والحرمان والتخلف في جميع المجالات[2]. ومن هنا لم يجد فانون سبيلا إلى إشعال فتيل الثّورة في بلاده، أي جزر الأنتيل ولكنه وجد ضالته في الثّورة الجزائريّة، التي أشفت

[1])- سعد دحلب : المهمة منجزة (من أجل استقلال الجزائر) منشورات دحلب ، بدون تاريخ ، ص ص. 85 ، 94.
[2])- دافيد كوت : المرجع السابق ، ص. 93.

غليله من المحتلين الفرنسيين الذين اكتسحوا مناطق شاسعة من القارات الثلاث في وقت كانت فيه شعوب هذه القارات في بداية يقظتها من سباتها العميق.

المهم بالنسبة لفانون ليس فقط الكفاح من أجل وطنه الأنتيل، أو المارتينيك المهم هو أن يقاوم الاستعمار في كل مكان، لأن طبيعته الفطرية وتكوينه النفسي، شبّت على معاداة الاستعمار واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان. إذ كان فانون يمجد الإنسان كقيمة إلى حدّ العبادة، هذا التمجيد للإنسان يحلّ عنده محلّ الإيمان بالله تماما كتمجيد بعض رجال الثّورة الفرنسية للعقل، وما يمثله من دلالة[1] .

وإلا كيف يمكن للمرء أن يتصور رجلا ولد بجزيرة صغيرة في جزر الأنتيل وهو من أصول إفريقية، يغادر موطنه ويتنقل عبر الممتلكات الفرنسية حتى يصل إلى بلد تتجلى فيه صور الظلم والمعاناة وفي أبناءه الذين أصيب الكثير منهم بالجنون، من جراء المعاناة الاستعمارية، والقهر الإقصاء والتهميش ليشهد ذلك بنفسه، ويتحول من طبيب مسؤول في مستشفى كبير بالجزائر إلى ثائر متمرد على تلك الدّولة المستعمرّة (بكسر الميم) التي درس في مدارسها وجامعاتها. ويلتحق بثوار اتخذوا من الجبال والأدغال مقرا لهم مفضّلا ذلك عن العمل في مستشفيات "ليون" والبليدة، ليعمل في مستشفي فقير بمنوبة والكاف بتونس المستقلة حديثا. لقد اختار ذلك عن حب واقتناع لمساعدة أولئك المضطهدين الذين لم يجدوا سبيلا إلى الحياة إلا خوض الكفاح المسلّح ضد أعتى قوة استعمارية برية في ذلك الوقت.

في هذه الفترة كان فانون يدرب الممرضات للعمل في الخلايا النضالية، ويعلّم الفدائيين كيف يتمالكون قواهم، عند إلقاء القنابل على العدو، وكيف يجب أن تكون مواقفهم الجسدية والنفسية عندما يتعرضون للتعذيب. ويقول فانون عن هذه الفترة

[1])- محمد الميلي : المصدر السابق ، ص. 131.

الحساسة من تاريخ الجزائر أن المستعمر (بكسر الميم) حاول أن يقسّم المجتمع الجزائري إلى قسمين الموالين له أو كما كان يسميهم العقلاء، والثوار[1]، وحاول استغلال ذلك الخلاف الذي كان موجودا بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية المصالية، التي كانت ما تزال تنشط بفرنسا حتى سنة 1958[2] هذا على المستوى الخارجي.

أما على المستوى الداخلي فقد شرعت قوات الاحتلال الفرنسي بتهجير السكان من قراهم الآمنة إلى المحتشدات التي أقامتها حول معسكرات الجيش الفرنسي، بهدف إبعاد الثّورة عن إطارها الطبيعي المتمثل في الجماهير تطبيقا لنظرية تفريغ الحوض من الماء لكي تموت الأسماك، وقد بلغ عدد المهاجرين عام 1959م ربع مجموع السكان من تلك الجماهير الشّعبية التي احتضنت الثّورة ودعّمتها ماديا ومعنويا، وبكل ما تملك من الوسائل والتي قال عنها البطل المجاهد العربي بن مهيدي (1923–1957م): " ألقوا بالثّورة إلى الشارع تحتضنها الجماهير" .عمل الاستعمار الفرنسي كذلك على شن العنف الجماعي وزيادة وتيرة التعذيب في مراكز الشرطة والمعتقلات العسكرية لكل مشتبه به، وحتى الطلبة الجزائريون في باريس لم يكونوا بمنأى عن هذه الممارسات القمعية، إذا كانوا يتعرضون مرارا وتكرارا إلى الاعتقال والاستنطاق وشتى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي.

وقد كان فانون في هذه الفترة يرى أن كل فرنسي في الجزائر يتصرف كرجال التعذيب [3]، وعبر عن استفحال ظاهرة التعذيب من قبل جنود الاحتلال في كتابه

[1])- دافيد كوت : المرجع السابق ، ص ص. 68- 82 .
[2])- صادق بخوش : المرجع السابق ، ص ص. 84 - 85.
[3])- دافيد كوت : المرجع السابق، ص ص. 70 - 75 .

معذبو الأرض فقال:" عندما أبحث عن الإنسان الناشئ، عن المثال الأوربي، لا أجد إلا سلسلة من أعمال إنكار الإنسان، وفيضا من عمليات القتل" [1].

ومن ثم وكما يؤكد فانون، فقد أدرك الجزائري بعد تلك المعانات التي واجهها مع الاستعمار، أن العنف هو الطريق الأمثل لحل مشاكله، وأن حمل البندقية والانضمام إلى جيش التحرير الوطني هو السبيل الوحيد من أجل موت له معنى [2] . يقول فانون أن ذلك الجزائري قد كافح الاستعمار من خلال حفاظه على ثقافته العربية الإسلامية والتمسك بعاداته وتقاليده وشخصيته، وعبر عن ذلك التمسك من خلال ارتياده للزوايا والمساجد وحفظ القرآن، وكان الشّعب الجزائري في تلك الفترة الاستعمارية كما يرى فانون بمثابة مجتمع جديد اكتسب شخصية مؤقتة فرضتها عليه تلك الأساليب التي مارسها عليه المستعمر(بكسر الميم)[3].

ولقد عبر عن ذلك، قائلا[4]: " رجال الجزائر ونساؤها، لا يشبهون اليوم رجال ونساء عام 1830م، فالجزائر القديمة قد انتهت، إن هذا الدم البريء الذي يتفجر من الشرايين المتنكرة فوق التراب الوطني قد رفع إلى الوجود إنسانية جديدة". وهذه الشخصية بالنسبة للجزائريين هي سلوك استثنائي في ظرف معين لتحقيق هدف معين وهي شخصية ذكية، فطنة، متكيفة مع الظروف الجديدة صبورة جلودة ومتكتمة، على الرغم مما عانته من آلام وعناء .

والحق أن فرنسا قد تفاجأت بهذه الشخصية الجديدة التي لم تكن تنتظرها في شعب كانت تصفه برمز "الحايك الأبيض" وبالنسبة لها كان ذلك رمزا للقيود والتخلف[5]. لقد كان فانون في ظل كل هته الظروف يتتبع الثّورة الجزائريّة خطوة

---

[1])- فرانتز فانون : معذبو الأرض ، المصدر السابق ، ص. 202.
[2])- فرانتز فانون : سوسيولوجية ثورة ، المصدر السابق ، ص. 15 .
[3])- عبد الحميد حيفري : المرجع السابق ، ص. 49 .
[4])-فرانتز فانون: سوسيولوجية ثورة ، المصدر السابق ، ص. 16.
5) - Mahfoud Kaddache : Histoire du nationalisme Algérien ,2me édition; Tome 2,ENAL, Alger, P. 19

بخطوة، وبكل إيمان وإخلاص، خاصة وأنها في هذه الفترة(1958–1959م) كانت تعيش حالة خطر فعلي، إذ تراجعت المقاومة في الداخل، نظرا لزيادة الحصار العسكري الفرنسي، في الجبال ليل نهار من جهة، ومن جهة أخرى كثرة الشكوك والاتهامات الجزافية بالخيانة التي أدت إلى فقدان الكثير من الإطارات، سواء بالسجن أو القتل، وهي بدون شك عملية تسميم نفسية قام بها المستعمر(بكسر الميم) ، حتى يحقق هدفه " فرق تسد" وكانت مركّزة خاصة في الولاية الثالثة والرابعة، علاوة على الضغوط المغاربية [1] .

إضافة إلى قطع العلاقات بين الثوار في الجبال وسكان القرى، ونقص وصول المؤونة والسّلاح والرّجال المدرّبين القادمين من تونس والمغرب، إذ أدركت السلطات الفرنسية أنّ الخطر يهدّدها من هناك فأمر وزير الدفاع الفرنسي" أندري موريس" في أوت1956م، بإقامة خط شائك ومكهرب بين الحدود الجزائريّة التونسية. ولما زار الجنرال صالان[*] هذا الخط، فكّر في إنشاء حاجز آخر بين الجزائر والمغرب، وقد سمّي الأوّل (موريس) وسمّي الثّاني(شال) وكان الهدف من هذه الخطوط أن تلعب دورا كبيرا في تراجع الثّورة الجزائريّة وتضيق عليها[2].

وقد قال الجنرال ديغول عن هاذين الحاجزين:" وقد أقمت الحواجز على طول حدود الجزائر مع تونس والمغرب، قوامها منشآت دفاعية محملة بشكّل دائم ومغطاة بمعوقات من الألغام، والشريط الشائك، وبفضل هذه التدابير لن تتمكن القوات الثائرة التي تلجأ إلى البلاد المجاورة من الدخول إلى الجزائر قبل عقد الصلح، ما لم نقدم على فتح الطريق لها بإملاء إرادتنا"[3].

---

[1]) - Mohamed Harbi : Op. Cit., pp. 218-220.

[*]– القائد الأعلى للجيش الفرنسي بالجزائر في هذه الفترة.

[2])- محمد لحسن أزغيدي: المرجع السابق، ص. 165.

[3])- المكان نفسه.

والواقع أن هذه الخطوط الخطيرة المكهربة لم تستطع أن تحد من زحف الثّورة الجزائريّة، حيث كان المجاهدون، يستعملون كل الوسائل التقليدية والحديثة لقطع هذه الأسلاك أو التحايل عليها والعبور إلى الجزائر :

- بحفر الخنادق.
- باستعمال مقصّاة خاصة لقطعها كلما أتيح لهم اجتيازها دون أن يُكتشفوا من قوات العدوّ[1] .

والخلاصة أن التحاق فانون بركب الثورة الجزائرية بتونس سنة 1957م، لم يكن التحاقا اعتباطيا، وإنما كان للرجل ماض ثوري مع هذه الثورة منذ اندلاعها سنة 1954م. ولا شك أن من يقرأ هذه الصفحات يتذكر كيف كان فانون يستقبل المرضى من الجزائريين مدنيين ومجاهدين ويعالجهم ويخفيهم عن عيون إدارة الاحتلال بالمستشفى، وقد كون علاقات سرية مع بعض قادة الثورة كعبان رمضان وهو ما يزال بمستشفى البليدة.

ترى إلى أي مدى استطاع فانون أن يوفق بين مطامحه الإنسانية وبين تطبيقاته في ميدان العمل؟ نعم إن الدارس لمسيرة فانون النضالية يلاحظ ولأول وهلة مدى المعاناة التي كابدها من أجل الثورة الجزائرية. بل ومن أجل الثورة في إفريقيا كلها. لا لشيء سوى أن ضميره الإنساني الحي كان يأبى أن يبقى متفرجا على الممارسات الاستعمارية ضد أبناء شعوب المستعمرات الفرنسية في إفريقيا قاطبة .

المبحث الرابع: فرانتز فانون والحكومة الجزائريّة المؤقتة.

[1])- عمار بوحوش: المرجع السابق، ص ص. 479- 480.

إن الثّورة التي أحبّها فانون وانضم إليها وأصبح واحدا من منظّريها، لم تخيّب آماله في قهر الاستعمار وهزيمته، وبعد مرور أربع سنوات عن تطور الثّورة أدرك قادتها أن الخطر أصبح يهددها من جميع الجهات الداخلية والخارجية، فسارعوا إلى إنشاء حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائريّة، إذ اجتمعت لجنة التنسيق والتنفيذ في القاهرة بين شهري تموز– جويلية وأيلول–سبتمبر 1958م لتبادل الآراء ودراسة ما يحدث في الجزائر، وخرجت هذه اللجنة بمجموعة من التوصيات.

أولا: نقل العمل العسكري وتوسيعه إلى فرنسا.

ثانيا: ضرورة توسيع التعاملات مع مختلف الدّول في الخارج، واقترح فرحات عباس تنشيط العلاقات حتى مع الدّول التي كانت ضد الثّورة كالبرتغال وجنوب إفريقيا.

ثالثا: ضرورة إنشاء حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية(GPRA).

في السادس من أيلول– سبتمبر 1958م أُنشأت لجنة لتكوين الحكومة، ووضع برنامج لها. وبالفعل فقد أُعلن يوم 19 أيلول–سبتمبر 1958م من القاهرة عن تأسيس حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائريّة[1]. وكان الغرض من إنشاءها :" المقصود منها إقناع الرأي العام العالمي أن المفاوض الجزائري موجود وهو يُظهر رغبته في الاتصال ضمن مفاوضات رسمية بالحكومة الفرنسية على مقتضى الشروط التي أعلنتها الثّورة...والمهمة الأساسية للحكومة المؤقتة هي تحقيق الاستقلال وتمكين الجزائر من إبداء صوتها في وسط عالمي ،والتهيئة لهذا العمل". وجاء في رسالة وجهتها الحكومة إلى جمال عبد الناصر بعد تشكيلها: " إن تشكيل هذه الحكومة في

[1])- المرجع السابق، ص ص 475- 476.

هذا الوقت بالذات إنما هو رد عملي علني على ذلك التحدي الصارخ الذي ألقت به الحكومة الاستعمارية الفرنسية في وجه الشّعب الجزائري المجاهد..."[1] .

وعلى إثر إعلان الحكومة تم تعيين فرحات عباس رئيسا لها بإعتباره رجلا توافقيا. وتم تعيين كل من بن بلة وكريم بلقاسم نائبين له، وعيّن بوضياف وزيرا للدولة، ومحمد يزيد وزيرا للإعلام مع أن بن بله وبوضياف كانا ما يزالان في السجن إلا أنهما كانا من بين أعضاء الحكومة[2] .

ولما كان محمد يزيد وزير الإعلام على خلاف مع فانون فقد أبعده تدريجيا عن مصلحة الإعلام في تونس، ولكن فانون بقي كعادته نشيط في جريدة المجاهد يكتب المقالات السيّاسية والفكرية لتنوير الرأي العام الوطني والعالمي بمزايا الثّورة وضرورتها، للقضاء على الاستعمار وتحرير الشعوب المضطهدة[3] .

هذا وكان الإعلان عن إنشاء الحكومة الجزائريّة المؤقتة بمثابة فتح جديد للثورة، حيث توالت ردود الأفعال الداخلية والخارجية تُشيد بهذا المولود الجديد وتعتبره، بداية لاستقلال الجزائر . ففي الداخل كان ابتهاج الجماهير واسعا، حيث استُقبل النبأ بالأفراح والحفلات، وكأنه عيد من الأعياد الدينية أو الوطنية، وسموا ذلك اليوم عيد الجمهورية.

أما على المستوى الخارجي فقد رحبت الدّول العربية الشقيقة والدّول الصديقة في إفريقيا وآسيا، بهذا الكيان السياسي الجديد الذي ظهر في أفق الثّورة الجزائريّة بعد حوالي أربع سنوات من الكفاح المسلّح والنضال السياسي. وراحت تلك الدّول تتسابق للاعتراف بها يوما بعد يوم، وكانت أول دولة أعلنت اعترافها غير المشروط بهذه

[1])-محمد لحسن أزغيدي : المرجع السابق ، ص. 171.

[2]) -Mohamed Harbi : Op. Cit., pp. 222-223.

[3]) -Alice cherki : Op. Cit, P. 116.

الحكومة هي الجمهورية العراقية، والواقع أن ميلاد الحكومة الجزائريّة في العاصمة المصرية كان ضربة قاسية للجمهورية الفرنسية الخامسة برئاسة الجنرال ديغول، الذي جاء به اليمين الفرنسي بهدف القضاء على الثّورة الجزائريّة[1].

أما بالنسبة لذلك الرجل الثوري الأنتيلي الذي كانت له بعض الروابط الثقافية مع فرنسا، فقد اعتبر تشكيل الحكومة الجزائريّة المؤقتة انتصارا حاسما للثورة فازداد تعلقه بها وراح يقطع كل صلة له بتلك الروابط القديمة بوصفه الأوربي أو باعتباره يساريا منتميا إلى اليسار الفرنسي ذاته، لأنّه وجد ضالته في الثّورة الجزائريّة التي كانت مفتوحة على كافة المذاهب والإيديولوجيات، وأصبح أكثر استعدادا للانصهار في بوتقة الثّورة الجزائريّة، نظرا لما فيها من قيم إنسانية وطنية وعالمية.

وقد عبّر ذات مرّة عن موقفه من إبداعات الثّورة الجزائريّة في المجالات الإنسانية والإيديولوجية فقال:" إنّ الثّورة الجزائريّة قد أدخلت عنصرا جديدا في دوران معارك التحرير الوطني فضح الاستعمار فضيحة كبرى، فالاستعمار بصفة عامة استطاع أن يحافظ على نفسه كقيمة وكحقيقة في الوقت الذي ينكره التاريخ وتنكره الإدارة الوطنية، فليس صحيحا أن فرنسا قد حقّقت عملا جميلا ،عندما جعلت من الجزائر ما هي عليه اليوم... إنّ الاستعمار الفرنسي لن يجد عند الشّعب الجزائري ما يبرره، فلن ينسينا أي إنجاز ضخم تلك العنصرية التي أصبحت شرعية،ولن ينسينا الأميّة التي أراد الاستعمار أن يشلّ بها الضمير الوطني".

ويضيف قائلا:" لا وجود هنالك لذاتية جديدة تولدت عن الاستعمار، إن الشّعب الجزائري لم يقبل بأن يتحول إلى تعاون، إن فرنسي الجزائر لم يتعايشوا مع الشّعب الجزائري،ولكنهم سيطروا عليه، لذلك كان لزاما منذ البداية إشعار الشّعب

[1])- محمد لحسن أرغيدي: المرجع السابق ، ص. 172.

الفرنسي بمدى مطالبتها، إن الجبهة لم تتلاعب بالكلمات، لقد قالت إن هدفها هو الاستقلال، وأنه لا مكان لأي تنازل يتعلّق بهذا الهدف،لقد قالت الجبهة للفرنسيين،يجب التفاوض مع الشّعب الجزائري، ويجب أن تُعاد له بلاده بأكملها"[1] .

هكذا كان فرانتز فانون إذن جريئا صريحا في انتماءه الكلي إلى الجزائر وإلى ثورتها الإنسانية التي كانت تعبيرا عن إرادة كل الشعوب المضطهدة، وفي دحض كل ما من شأنه تبرير الاستعمار.وكان واضحا اعترافه بالكيان الجزائري، ومن ثم فإنه كان يؤكد على أن الثّورة الجزائريّة المسلّحة، قد دعّمت أكثر فأكثر فكرة وجود الكيان الجزائري والأمة الجزائريّة، ورمت بعرض الحائط نظرية "موريس توريز" عام 1939م، التي تُنكر وجود أمّة جزائرية خالصة قبل الوجود الاستعماري كما سبق الذكر في بداية هذا الفصل.

والحق أن فانون لم يكن وحده الذي تأثر بمبادئ الثّورة الجزائريّة، بل فاليسار الفرنسي اعترف في هذه السنة ذاتها (1958م) ببطلان تلك النظرية (نظرية البوتقة) إذ جاء في مقال صدر في مجلة" كراس الشيوعية" في أوت 1958م : "إن الجزائري جمع اليوم كل مظاهر الأمّة، فهي مجموعة متكونة تاريخيا، ومستقرة لغويا(العربية) وترابيا (الجزائر في حدودها الحالية بما فيها الأجزاء الجزائريّة من الصحراء) واقتصاديا (وهو مظهر عجّلت بروزه العلاقات الاقتصادية الرأسمالية التي أدخلها النظّام الكولونيالي) وتكوينها النفسي (وأبرز ملامحه هو الرغبة العميقة في الاستقلال)"[2] .

هكذا إذن عرفت الثّورة الجزائريّة سنة1958م نقلة نوعية معتبرة سواءَ من الناحية التنظيمية والهيكلية، أو من حيث الاعتراف بها حتى من أعداء الأمس، الذي

[1])-فرانتز فانون : من أجل إفريقيا ،المصدر السابق ، ص ص. 101- 102.
[2])- محمد الميلي : المصدر السابق ، ص. 106.

كانوا ينكرون وجود امة جزائرية خالصة، وتفجرت عبقرية فانون نتيجة لهذه الانتصارات الكبرى التي تحققت في الميدان على مستوى الثّورة الجزائريّة مما جعل فكره يزداد خصوبة وعبقريته تزداد إبداعا وتفتحا في مجال التنظير والتعريف بالثّورة الجزائريّة.

أما على المستوى الفرنسي فإن سنة 1958م عرفت تغيرات جوهرية في السياسة الفرنسية ذاتها، حيث طالب القادة العسكريون المتطرفون في الجزائر بضرورة عودة الجنرال ديغول إلى الحكم في فرنسا خوفا من ضياع الجزائر من أيدهم قائلين: "إن ديغول هو الرجل الوحيد الذي يمكنه منع ضياع الجزائر"[1] . فقاموا بإنقلاب عسكري يوم 13 أيار–ماي 1958م، وأجبروا الرأي العام الفرنسي على قبول فكرتهم بمجيء منقذ فرنسا من النازية والفاشية مرّة أخرى، لإنقاذها من حرب الجزائر، غير أن الانقلاب قد تحقق فعلا وحكومة "فليكس غايار" (Fellix Guaillar) قد أُسقطت وجاءت الجمهورية الخامسة. إلا أن الجزائر لم تكن النازية والفاشية[2]، فإذا كان ديغول قد أنقذ فرنسا فعلا من براثين الألمان والطليان، فإنه لم يستطع إنقاذها من الثّورة الجزائريّة، لأن الأولين كانوا عنصريين ومتعالين معتديين محتلّين، أما الجزائريون فقد كانوا يكافحون من أجل الشرف والحرية والكرامة والاستقلال، لأن فرنسا هنا هي المعتدية، والشّعب الجزائري هو المعتدى عليه، والنصر أبدا إلى جانب المظلومين كما أخبرنا التاريخ في مختلف عصوره الغابرة.

والحق أن ديغول قد زار الجزائر بعد اعتلاءه كرسي الرئاسة في الإليزي خمس مرات متتالية:

[1])- سعد دحلب: المرجع السابق ، ص. 52.
[2])- عمار بوحوش: المرجع السابق، ص ص. 427- 430.

الزيارة الأولى من الرابع إلى السابع من حزيران- جوان: كانت أول زيارة له بعد توليه السلطة كرئيس للجمهورية الفرنسية الخامسة إذ زار خلالها كل من الجزائر، وهران ومستغانم.

أما الزيارة الثانية فكانت في: الفاتح من تموز- جويلية : خصصها لزيارة المراكز العسكرية بالجزائر. وكانت الزيارة الثالثة: من السابع والعشرين إلى التاسع والعشرين آب-أوت: كانت مزدوجة بين الجزائر وإفريقيا. أما الزيارة الرابعة فكانت: من الثاني إلى الخامس تشرين الأول-أكتوبر: أعلن فيها من قسنطينة، مشروعه المعروف باسم مشروع قسنطينة. وكانت الزيارة الخامسة والأخيرة في هذه السنة، من الثالث إلى السادس كانون الأول-ديسمبر: خصصها لتفقد الحقول البترولية في الصحراء الجزائريّة[1] .

ولما تأكد من أن السياسة المتّبعة في الجزائر،لا تؤدّي إلى وقف الحرب على الرغم من كل الخطط والوسائل التي أتبّعت لإخماد الثّورة بما فيها مخطط الجنرال شال. أُعلن يوم السادس عشرة من كانون الأول-ديسمبر 1959م، عن فكرة تقرير المصير للشعب الجزائري، وبما أن هذه الفكرة لم تكن تعني استقلال الجزائر عن فرنسا فحسب، وإنما كان ذلك اختيارا واحدا من بين ثلاثة خيارات، فقد رحبت بها جبهة التحرير كخطوة للاعتراف بالثّورة الجزائريّة، ولكنها رفضت الاختيارات الأخرى لأنّها تعيد فكرة إدماج الجزائر بفرنسا مرّة أخرى[2]. فماذا كان موقف فرانتز فانون من هذا الإعلان الجديد، الذي استبشرت به بعض الأوساط الثورية؟ إن فانون قد أدرك بعد هذا التصريح أن الصراع في الجزائر قد تجاوز حدود مواجهة الاستعمار القديم، بل يجب أيضا مواجهة ألاعيب الاستعمار الجديد، وعبّر عن رأيه صراحة في

[1])- صالح بلحاج : المرجع السابق ، ص. 110.
[2])- رمضان بورغدة:" ثورة التحرير الجزائرية والاستعمار الفرنسي ، المنطلقات ، الحقائق والأبعاد" ، أعمال الملتقى الدولي الأول حول تاريخ الثورة الجزائرية ، جامعة 20 أوت 1955 ، 11 -12 ديسمبر 2006، سكيكدة: 2006، ص ص. 31-41 .

قناعته بمبدأ التفاوض على أسس سليمة لأنّها إن لم تكن كذلك فسوف تخلق الكثير من المتاعب للشعب[1] .

لقد كان فانون قلقا من الركود الذي يسود الساحة السيّاسية على الرغم من بعض النجاحات الدبلوماسية التي حقّقتها الحكومة المؤقّتة، إذ أن كريم بلقاسم حاول إعادة تنظيم القيادة العسكرية العملاتية، وشكّل جبهتين:

الأولى: في الغرب: بقيادة هواري بومدين (1932-1978م).

الثانية في الشرق: بقيادة محمدي سعيد[*]، ومع هذا كلّه فإن فانون لم يكن متفائلا بالأوضاع السّائدة، فمقاومة الثوار قد اعتراها شيء من الفتور نتيجة لمخطط شال 1959م الذي نص على بقاء الجيش الفرنسي لمراقبة الثّوار ومنعهم من الحركة والاتّصال بالجماهير الشّعبية في المشاتي والأرياف، وزادت عمليات الاعتقال والسجن والقتل ودس المخبرين بين صفوف الثّورة ونقل وتجميع السكان المدنيين في محتشدات بائسة[2] .

أما فانون فقد كان يتابع الأحداث عن كتب، ولكنه كان متوترا بشأن ما يحدث من خلاف بين القادة العسكريين داخل الثّورة، حتى أنّه قال ذات مرّة لكريم بلقاسم: "سوف يأتي يوم يظهر فيه أحد هؤلاء القادة ويحسم كل شيء".

وفعلا فقد جاءت الظروف مناسبة لبروز أحد العقداء الناشطين على الحدود المغربية والتونسية ألا وهو الكولونيل هوّاري بومدين حين أصبح قائدا لهيئة الأركان سنة1960م، وقد كان رأي فانون في هذا القائد الحازم " أنه كان يحب السلطة لدرجة

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق ، ص ص. 172 - 173 .
[*]- السعيد محمدي : دعمه كريم بلقاسم وحماه، على الرغم مما كان يقال عنه بأنه نازي وقليل الثقافة وكان يكني بالكولونيل ناصر
[2])- عمار بوحوش : المرجع السابق ، ص ص. 492 - 495.

مرضية"[1] . وفي إطار التحضير لاجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائريّة، الذي تم عقده في ما بين السادس عشرة من كانون الأول–ديسمبر –والثامن عشرة كانون الثاني– جانفي 1960م، شكّلت لجنتان من أشخاص سمّوا بالاختصاصين:

اللجنة الأولى: مشكّلة من: فرانتز فانون، عمر أو صديق، عبد الرزّاق شنتوف محمد الصديق بن يحي(1932–1982م)، كانت مهمتها إعداد مشروع برنامج مستقبلي للثورة .

اللجنة الثانية: مشكّلة من: بن يوسف بن خدّة ،مبروك بلّحسن، لمين خان، وكانت مهمتها إعداد القانون الأساس لجبهة التحرير الوطني وإجراء تعديلات على المجلس الوطني للثورة[2] . وتذكر زميلته في المهنة والنضال الدكتورة أليس شاركي أن فانون قد بقي حتى تلك السنة 1960م نشيطا كعادته دائما، ملتزما بممارسة مهنته كطبيب وإلقاء بعض المحاضرات بالجامعة التونسية في مجال اختصاصه.

كما أنشأ مجلة بعنوان تونس الطبية(La Tunisie Médicale) في نهاية 1959م سجّل فيها يومياته في مستشفى شال نيكول قبل أن يغادره نهائيا إلى إفريقيا،كما اقترح في نهاية هذه السنة ذاتها إنشاء مركز للأرشيف، يجمع فيه أكبر عدد ممكن من الشهادات لحفظ التاريخ الوطني الجزائري.غير أن الملاحظ هو أن فانون في دراسته أو حديثه عن الشّعب الجزائري لم يتعرض من قريب ولا من بعيد، للإسلام أو القرآن أو اللّغة العربية، أو بمعنى الهوية الجزائريّة الممتزجة بالدين والوطن في نصوص صريحة مما كتبه عن الجزائر، وكل ما كان يجذبه في كتاباته من الموضوعات تلك التي تجمع بين الثقافة والسياسة، ولم يسمح لنفسه أن يكتب

---

1) -Alice Cherki : Op. Cit., P.178.
2) - Mohamed Harbi: Op. Cit., P.248.

عن العلاقات بين الجزائر والدّول الأخرى ولم يكتب إلا عن حادثة ساقية سيدي يوسف(*) .

وعلى العموم تركزت كتاباته طوال تواجده بالمجاهد حول ثلاثة نقاط أساسية:

أولا: تطور الوضع في فرنسا

ثانيا: حياة الشّعب الجزائري داخل البلاد

ثالثا: المستقبل السياسي للقارة الإفريقيّة[1] .

غير أن الشيء الذي لا سبيل لنكرانه، هو أن فانون قد تحدث عن الهوية الجزائريّة من حيث العادات والتقاليد التي كانت تميز الشّعب الجزائري عن الغزاة الفرنسيين. وفي هذه الفترة بدأت تتوالى على فانون المهام السيّاسية المختلفة كممثل للثورة الجزائريّة في إفريقيا، حيث رأت قيادة الثّورة أنه أحسن من يمثل الجزائر هناك،باعتباره مثقفا معايشا للأوضاع الخطيرة التي تعيشها الجزائر وإفريقيا وباعتباره زنجيا فربما سيكون تقبله هناك أحسن[2] .

والواقع أن حدّة الكفاح المسلّح في هذه الفترة، في الجزائر دفع الجماهير الإفريقيّة إلى ضرورة التفكير في سلوك طريق الثّورة المسلّحة، إذ تأكد الكل أن الكفاح المسلّح أصبح ضرورة حتمية لتغيير مجرى التاريخ، وفرانتز فانون من خلال إسهامه في تحرير المجاهد ومن خلال المهام التي كانت تسند إليه في إفريقيا لمس عن كثب تلك الأسباب التي جعلت الثّورة الجزائريّة تتعدى تجربتها الحدود المغاربية إلى إفريقيا السوداء، وعرف فانون أن الكفاح الجزائري بقوّته لا بد وأن يكون تجربة لا

---

*) – حادثة ساقية سيدي يوسف: وقعت حين قصفت الطائرات الفرنسية السكان الآمنين في قريتهم في 8 فيفري 1958م وإمتزجت الدماء الجزائرية ، بالدماء التونسية.

1) -Alice Cherki : Op. Cit., PP. 158-170.

2) - Ibid., P. 185.

تستطيع أن تبقى بمنأى عن إفريقيا التي كانت هي الأخرى تعاني مظاهر الاضطهاد والعنصرية والاستغلال[1] .

وقد كان فانون يرى أن تأثر شعوب إفريقيا بالكفاح المسلح في الجزائر يعود إلى اقتناعهم بمبادئ الثّورة الجزائريّة وكفاحها المتصاعد يوم بعد يوم، بل وإلى قيمها الإنسانية المجسّدة في التعامل مع الأسرى ومع المدنيين، وهو الشيء الذي زاده إيمانا بضرورة خدمة القضية الجزائريّة من أي مكان في العالم[2].

ونتيجة لجهوده الفكرية والسيّاسية والمهنية في خدمة الثّورة الجزائريّة عيّنته الحكومة المؤقتة سفيرا للجزائر في أكرا عاصمة غانا عام 1960م[3] ،هذا وقد أثار تعيينه في هذا المنصب من قبل قيادة الثّورة الجزائريّة اختلافا في الرأي فمنهم من كان يرى أنه كان نادما على تركه لطب الأمراض العقلية، أما البعض الأخر فيرى أن فانون عمل المستحيل حتى يذهب إلى إفريقيا السوداء، لأنّه كان مؤمنا بفعاليّته السيّاسية، وكان يعتقد أنه يمكن أن يخدم القضية الجزائريّة من هناك من جهة، وأن يقدم لإفريقيا السوداء جهودا لها وزنا كبيرا من جهة أخرى.

خاصة أنه كان قبل ذلك قد شكّل صداقات ووطّد علاقات مع أفارقة أثناء اتصاله بهم من خلال تلك الجمعيات السرية التي كانت تناضل من أجل استقلال إفريقيا كما سلف الذكر، في هذا الفصل ومن خلال مشاركته في مؤتمر الدّول الإفريقيّة في أكرا تعرّف على كوامي نكروما (القائد الغاني)، وفليكس موميى المتمرد

---

[1]) – محمد الميلي : المصدر السابق ، ص .172.

[2]) – عبد الكريم حساني :مداخلة أثناء الملتقى الوطني الثالث فانون فرانتز ،" الاستعمار جريمة ضد الإنسانية" ،مديرية الثقافة لولاية الطارف30-31 ماي 2006 ،مطبعة المعارف ،عنابة،،2006 ، ص. 97 .

[3]) - Redha Malek : L'Algérie a Évian (histoire des négociations secrètes(1956 – 1962) éditions dahlab , Alger : 1995 , P. 73.

الكاميروني الذي اغتالته المخابرات الفرنسية، والنقابي الكيني توم مبويا، والأنغولي روبارتو هولدن وبذلك فالأرضية كانت ممهدة لأن يلتحق فانون بإفريقيا[1] .

نقد واستنتاج

وصفوة القول أن فانون المناضل بطبعه المناهض للاستعمار بسليقته، قادته إرادته الرافضة للاستعمار والاستغلال والعبودية إلى البحث عن الجبهة التي تحقق آماله الإنسانية في الحرية والكرامة ، فظّل يتنقل بين القارات الثلاث أمريكا وأوروبا وإفريقيا، حتى انتهى به المطاف إلى شمال القارّة السمراء، فعمل طبيبا للأمراض العقلية بسهول متيجة الغنية بثرواتها الفلاحية، وبطبيعتها الخضراء فزادته عبقرية المكان إبداعا فكريا وفلسفيا في مجال الاستعمار، لاسيّما وأن الرجل كان يتفاعل بقوّة فكرية وعاطفية مع أولئك المرضى الذين كان يستقبلهم يوميا بالعشرات فكان يتساءل دائما مع نفسه ومع غيره من الأطباء. لماذا هذه الدرجة القصوى من ازدياد هذا المرض العضال لدى هؤلاء السكان؟ هل هو مرض وراثي؟ أم هو ناتج عن اليأس من الحياة من جراء المعاناة الاستعمارية التي لم تكن ترحم أحدا من الأهالي المسلمين؟.

كان عمله في هذه الفترة بمستشفى البليدة، عملا إنسانيا بالدرجة الأولى، لأنّه عندما توالت على البلاد النكبات تلوى النكبات، وازداد عدد القتلى من الجزائريين وتفاقمت الأوضاع السيّاسية والعسكرية، ولم تصغي سلطات الاحتلال لبعض مطالبه المهنية بالمستشفى،سارع إلى تقديم استقالته على الفور ولم ينتظر طويلا، لأنّه لم

[1])-Benjamin stora: Op. Cit .

يكن قادرا على أن يصبر على تلك المعاناة الأليمة التي كانت تزداد يوما بعد يوم أمام أعينه ولكنه لا يستطيع تغييرها.

فغادر الجزائر إلى فرنسا غير مأسوف عليه من قبل سلطات الاحتلال، ولكنّ إرادة الثّورة في نفس هذا الرجل وعواطفه الإنسانية المتفاعلة مع الشعوب المضطهدة التي تحارب من اجل قضاياها العادلة، عجّلت بتوجيهه وجهة شرقية هذه المرّة فأنتقل من فرنسا إلى تونس ليلتقي مع قادة جبهة التحرير الوطني المقيمين في التراب التونسي.

وهناك بدأ نجم فانون يتألق يوما بعد يوم في الصحافة المكتوبة وفي ميدان الطب، والمعالجة النفسية والعقلية معا، بل وحتى في مجال التعليم الجامعي، وأصبح الرجل معروفا لدى كافة الأوساط الجزائريّة والتونسية على حد سواء فازداد هيامه بالثّورة وأعتنق مبادئها وقيمها بإخلاص كبير، وألّف وكتب عنها المصنّفات والمقالات الضافية وشارك بإسم الثّورة في مؤتمرات افريقية وعالمية، حتى عُيّن سفيرا للحكومة الجزائريّة المؤقتة في أكرا عام 1960م ليواصل كفاحه من هناك، بطرق وأساليب جديدة تختلف عن الأساليب التي انتهجها من قبل، حيث أُتيحت له الفرصة لينتقم لأبناء جلدته ضد الاستعمار الأوروبي عامة .

الفصل الثالث: نضال فرانتز فانون من أجل إفريقيا

المبحث الأول: التحاق فانون بالثورة في إفريقيا

المبحث الثاني: إسهامات فانون في المؤتمرات الإفريقية

المبحث الثالث: فانون منظرا للثورة في إفريقيا

المبحث الرابع: فانون من التنظير إلى التنفيذ

المبحث الخامس: وفاته

الفصل الثالث: نضال فرانتز فانون من أجل القضايا في إفريقيا

بعدما تحدثت في الفصل الثاني عن الثورة التحريرية الجزائرية وعلاقة فانون بها، وتتبعت أهم التغيرات التي حدثت خلالها، وصولا إلى تقديم فانون لاستقالته من عمله كطبيب في مستشفى البليدة بالجزائر والتحاقه بتونس سنة 1957م.

سأعالج في هذا الفصل مختلف التغيرات التي حدثت في القارّة الإفريقيّة خاصة بعد الحرب الكونية الثانية، وظهور حركات التحرر التي كانت نتاج مجموعة من الأسباب على المستوى الإفريقي والعالمي على حد سواء، وسأتابع مسار فانون منذ بداية اهتمامه بالقارّة ونشاطاته فيها وتنظيراته حول الكثير من المواضيع التي تتعلق بها، وطرحه لمجموعة من الأفكار التي كان يري فورية تنفيذها، ورؤيته لإفريقيا التي يتمنّاها، ثم إصابته بسرطان الدم ومفاجأة هذا المرض الخطير له ووفاته عن عمر لا يتجاوز السادس والثلاثين عاما.

لقد كانت القارّة الإفريقيّة على مرّ العصور ومنذ بداية اكتشافها وجهة يتهدّدها الخطر الأوربي، الذي تجسّد فعليّا وتكرّس على إثر مؤتمر برلين (1884–1885م) الذي أقرّ سياسة الباب المفتوح في هذه القارّة، إذ اتفق المؤتمرون الأربعة عشر على تقسيمها، وكانت حصة الأسد من نصيب بريطانيا وفرنسا.

وخلال القرن العشرين بدأت الحركات التحريرية تتبلور شيئا فشيئا نظرا لمجموعة من العوامل لعلّ أهمّها انتصار اليابان سنة (1904–1905م) في حربها ضد روسيا وتبلور فكرة التضامن الآسيوي، التي تطوّرت فيما بعد إلى التضامن الآفرو آسيوي، كذلك عودة المجندين من أبناء القارّة والطلبة الذين طالبوا بتطبيق مبادئ ولسن التي تضمّنت"حق الشعوب في تقرير مصيرها". كما كان للثورة البلشفية في روسيا (تشرين الأول– أكتوبر 1917م)، الأثر الواضح في دفع وتشجيع وتيرة

الحركات التحرّرية، هذا علاوة على الغزو الايطالي للحبشة سنة 1935 وما أفرزه من تضامن وتكاتف بين الأفارقة.

كذلك ظهور نخبة من المثقفين الوطنيين الذين تشرّبوا الثقافة الغربية بأفكارها وإيديولوجيّتها وأدركوا حقيقة الاستعمار فنادوا بتطبيق شعارات الثّورة الفرنسية وتجسيدها في بلدانهم، ولعلّ أهم هؤلاء: كوامي نكروما، أحمد سكوتوري، ليوبولد سنغور، فليكس مومي، باتريس لومبا، جوموكينياتا ...الخ

بالإضافة إلى المؤتمرات الدّولية التي عقدت بعد الحرب الكونية الثانية كمؤتمر الأطلسي 1949م وكان نتاج هذه العوامل قيام ثورات في كل أرجاء المستعمرات وفي سنة 1959م وصل عدد الدّول الإفريقيّة المستقلة إلى عشرة دول[*]. وكان عام 1960م هو عام الاستقلال في إفريقيا، فلقد حصلت ثمان عشرة دولة إفريقية على استقلالها[**] . واكتمل فيما بعد استقلال البلدان الإفريقيّة الأخرى بعد أن عجزت القوى الاستعمارية على الاحتفاظ بها بعد اشتداد موجة الكفاح الوطني.

المبحث الأول: التحاق فرانتز فانون بالثّورة في إفريقيا

لقد كان أول اتصال لفرانتز فانون الأنتيلي الثائر بالقارّة السمراء، مبكّرا سبق كل تلك التحولات الجديدة التي وقعت في المنطقة، وذلك عندما شارك في الحرب الكونية الثانية إلى جانب فرنسا في حربها ضد النازية والفاشية، فكانت تلك الفرصة

[*]- الدول هي: (مصر، إثيوبيا، ليبيا، جنوب إفريقيا، السودان، ليبيا، تونس، المغرب، غانا وغينيا).
[**]– الدول هي: (الكاميرون، جمهورية إفريقيا الوسطى، تشاد الكونغو برازفيل، الزائير، داهومي، الجابون، الطوغو، فولتا العليا، ساحل العاج، النيجر، نيجيريا، سيراليون، مالي، موريطانيا، السنغال، الصومال، مدغشقر)

أوّل احتكاك له بأبناء جلدته الأصليين، ولكنّها لم تسمح له بالاطلاع العميق والاحتكاك المباشر[1].

غير أن مزاولته للدراسة في جامعة ليون، قد مكنّته أكثر من التعرّف على بعض الطلبة الأفارقة، علاوة على مشاركته في "فيدرالية الطلبة السود الأفارقة في فرنسا" وفي مجلّة الحضور الإفريقي[***]، بالإضافة إلى الصداقات التي اكتسبها مع أعضاء بعض الجمعيات السرية التي كانت تكافح من أجل استقلال إفريقيا[2].

ولقد كان اتصال فرانتز فانون بالقارّة الإفريقيّة من خلال احتكاكه بالقضية الجزائريّة ونضاله في صفوف جبهة التحرير الوطني، إذ شكلت المعبر الحقيقي الذي جعله يوطّد علاقاته معها أكثر، خصوصا بعدما أوكلت له مهام مختلفة فيها من قبل قيادة جبهة التحرير الوطني الجزائريّة[3].

وإذا كان فانون قد أصبح-كما يراه بعض المختصين-منظرا في مجال العنصرية والعنف والاستعمار، والزنوجيّة، فإن ذلك لم يكن مجرّد هواية أو ترف فكري وإنما اعتنق تلك الأفكار والنظريات عن دراية واقتناع بعد معايشته لظاهرة الاستعمار وتعامله مع الشعوب المستعمرّة (بفتح الميم). وقد عرف ذلك عن كثب عندما عمل في الجزائر كطبيب للأمراض العقلية والنفسية، وكمناضل ومفكر وصحافي في جريدة المجاهد في تونس، أو في إفريقيا بعد تعيينه ممثلا للثورة الجزائريّة هناك.

---

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص18.

[***])- مجلة الحضور الإفريقي، أسسها اليون ديوب سنة 1947م.

[2])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 20.

[3])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 132.

لذلك كانت أفكاره نابعة من إيمانه العميق بضرورة الدفاع عن أولئك المستضعفين في القارّة السمراء، الذين طالما كانوا فريسة للاستعمار الاستيطاني أو الاستعمار الاستغلالي لثرواتهم المختلفة.

ولا شك أن السنوات التي قضاها في الجزائر (1953–1957م) كانت هي المحك الحقيقي الذي وضعه في مواجهة الاستعمار، والتي كونته سياسيا وجعلته يتعمق في التّجربة الجزائريّة، ومنها إلى التّجربة الإفريقيّة[1]. فلقد اكتشف من خلال عمله في البليدة قاسما مشتركا بين شعبه في المارتينيك وفي الجزائر وفي إفريقيا السوداء. كما أن فانون بطبيعة شخصيته الثائرة المناهضة للاستعمار، أدرك منذ البداية ما يدور حوله من عنصرية وإقصاء وتهميش لأولئك المستعمَرين(بفتح الميم). ولكنه لم يجد منفذا للتعبير عن آرائه سواءً في المارتينيك أو في فرنسا إلاّ بالكتابة.

وبانتقاله إلى الجزائر، أُتيحت له فرصة الانتقام من الاحتلال بكل أشكاله عمليا من خلال انخراطه في جبهة التحرير الوطني، ولمّا كانت الثّورة الجزائريّة ثورة مسلحة، فإنها فرضت نفسها وتجاوزت حدودها الضيقة لتؤثر على إفريقيا قاطبة. وجاءت الفرصة مناسبة لفانون مرّة أخرى في إطار أوسع هذه المرّة للانتقام من الاستعمار ومحاولة إثبات تفوق الإفريقي الزنجي على الأوربي الأبيض[2] .

والحق أن مؤتمر باندونغ[*] سنة 1955م، الذي عبّر عن إرادة ستة وخمسين بلدا أفرو آسيوي (إفريقي آسيوي)، كان نقطة تحول جوهرية في تاريخ إفريقيا أيقضها من سبات عميق، ونقلها من مرحلة الخمول إلى مرحلة النضال، وكان بداية مرحلة جديدة من ثورة الأمم الناهضة، وشكّل روحا جديدة أصبحت تعرف بروح باندونغ

---

[1])- Numa Murand : Op. Cit.

[2])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 132.

[*])– البلدان التي حضرت مؤتمر باندونغ هي: الهند-باكستان-سيلان-بورما-أندونيسيا-أفغانستان العربية السعودية-لمبوديا- ساحل الذهب- الصين- مصر- أثيوبيا- العراق- إيران- اليابان- الأردن- لاوس- لبنان- ليبيا- نيبال- الفلبيين- سيام- السّدان- سوريا- تركيا- فيتنام الشمالية والجنوبية- اليمن.

وأدركت البلدان الإفريقيّة من خلاله أن الكفاح المسلّح هو الحل الوحيد والشرعي لدحر الاستعمار، ومن هذا المؤتمر التاريخي أيضا بدأت بوادر الدعوة إلى وحدة إفريقية تلوح في الأفق [1] .

إذ حاولت الثّورة الجزائريّة أن تجسد وتكرس ذلك التلاحم الإفريقي الذي كان بعدا من أبعادها، خاصة وأنّ الاستعمار كان مشتركا وهو الاستعمار الفرنسي[2]. حيث كانت فرنسا أثناء قيام الثّورة التحريرية في الجزائر تسيطر على عدد كبير من بلدان إفريقيا الغربية والاستوائية، ولقد أدرك المحتل الفرنسي هذا البعد منذ البداية وحاول ضربه في الأعماق من خلال استعمال جنود أفارقة في الحرب مع الجزائر وخاصة السينيغاليين[3] .

وبعد هزيمة فرنسا في الحرب الكونية الثانية، عقد مؤتمر برازافيل (عاصمة الكونغو) ندّدت فيه بالسياسة الاستعمارية الجديدة تجاه مستعمراتها[4]، وفي سنة 1958م انهارت الجمهورية الفرنسية الرابعة، وعاد ديغول مرّة أخرى إلى السلطة في باريس، ولقد تحدّث فانون عن هذه العودة، فقال: " قد مكّن تضافر الجهود بين الاستعماريين الفرنسيين وبين الفاشيين مع طليعتهم العسكرية في الجزائر، وبين القوى الرجعية في فرنسا من فرض تحكيم الجنرال ديغول"[5]

والواضح أن فرانتز فانون لم يكن راضيا عن عودة ديغول إلى الحكم، إذ يصنف المتواطئين في الجزائر مع هذه العودة بالفاشيين، ويوضح الهدف الحقيقي وراء الإتيان بديغول، فيقول: "...إنّ القوى الفاشية التي أعدّت هذه المؤامرّة، أرادت

---

[1])- أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، بدون تاريخ،ص. 163.
[2])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 189.
[3])- المصدر نفسه: ص. 189.
[4])- محمد عبد العزيز اسحاق: المرجع السابق، ص. 88.
[5])-فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص ص. 138-147.

أن تستعمل اسم الجنرال ديغول لتقيم منظمات تكون قادرة على الإمساك الفعلي بزمام الحكم، ولو أدّى الأمر بعد ذلك إلى التخلص من الجنرال الرئيس..."[1].

وبعد عودة ديغول حاول تجنب خطر المدّ القومي في المستعمرات، وعرض ما سمّاه بـ"دستور ديغول" أو "مشروع ديغول" أو "استفتاء ديغول"، إذ اقترح اختيارين على الدّول الإفريقيّة، إمّا أن تحصل على استقلالها الداخلي، وفي هذه الحالة لا تستفيد من أي دعم فرنسي، مهما كان شكله. وبين حصولها على استقلالها على أن تبقى الشؤون الخارجية والعملة وشؤون الدّفاع والمسائل الاقتصادية العامة، والموارد الإستراتيجية تحت السيطرة الفرنسية، وفي هذه الحالة تتلقى دعما فرنسيّا بجميع أشكاله، وتبقى مرتبطة بفرنسا ارتباطا كليا[2].

ولقد انتقد فانون الدوافع التي جعلت ديغول يُقدم هذا الطرح إلى الأفارقة ورأى أن ذلك ما هو إلا تكريسا للاستعمار والهيمنة، وقال[3]: "فبعد تجربتي تونس والمغرب، وتجربة الهند الضيقة التي كانت أشد وأقسى، أقسمت الأوساط الاستعمارية على أنّ لا تسمح بأي تسليم جديد..." .

لقد كان القلق يسيطر على فانون من هذا الطرح الجديد، لأنه كان مدركا أنه لم يكن حبّا في البلدان الإفريقيّة، بل لأن ديغول كان يخاف من ظهور تحالفات واتحادات ضد فرنسا، وقال عن ذلك: "... ذلك أن القوى الاستعمارية التي أيّدت وساندت مساندة تامة التّجربة الفاشية، كانت واقعة تحت تأثير رعب مصدره الخوف من أيّ تطوّر يؤدّي إلى تحقيق تصفية الاستعمار"[4].

---

[1]- المرجع نفسه، ص. 139.
[2]- دافيد كوت: المصدر السابق، ص. 158.
[3]-فرانتز فانون: من أجل إفريقيا ، المصدر السابق، ص. 139.
[4]- المكان نفسه.

وكتب فانون مقالا نشر في العدد التاسع والعشرين الصادر يوم 17 أيلول– سبتمبر 1958م من جريدة المجاهد، عنوانه "نداء إلى الأفارقة" شرح فيه أبعاد ذلك المشروع وخطورته، ومما قال فيه: "... إن المساهمة في التصويت وتعبير المواطن الإفريقي عن رأيه في مسائل فرنسية صرفة، يحسم ذلك (الإتّحاد الفرنسي)، الذي حُول تحت ضغط الضرورة إلى (مجموعة فرنسية–إفريقية)، ويمسخ الشخصية الإفريقيّة، ويقر جنسية وحيدة، كما يقول الدستور الفرنسي...إن المساهمة في الاستفتاء معناه الاعتراف الضمني بالانتماء إلى أمة ذات مشاكل مشتركة بين مختلف أفرادها، في حين أن الواقع خلاف ذلك، لأن كل إفريقي يساهم في الاستفتاء سيساعد على شد وثاق شعبه وبلده بأحابيل الاستعمار الفرنسي " [1] .

ولكن البلدان الإفريقيّة وجزر الأنتيل خذلت فانون، وقالت كلها نعم لهذا المشروع، ورحبّت بالارتماء الكلّي في أحضان فرنسا، ويقول فرانتز فانون في هذا الصدد: "... يستطيع منظمو الانقلاب[*] أن يعربوا عن ارتياحهم غداة الثامن والعشرين سبتمبر فقد أجاب أقطارها وراء البحار، 98% من السكان (بنعم)، للجنرال ديغول ولفرنسا"[2].

وحتى إيمي سيزر الذي كان رئيسا لبلدة فوردوفرانس، رحّب هو الآخر بمشروع ديغول، واستقبل موفده مالرو[**] استقبالا حارا، وعبّر له عن فرحته، وقال: "إنني أحيّي في شخصك الشّعب الفرنسي العظيم، الذي تشدّنا إليه روابط عاطفية وثيقة"[3]. وهو بذلك يؤيد تمام التأييد ارتباط جزر الأنتيل بالوطن الفرنسي، على غرار كافّة المستعمرات الأخرى التي قبلت هذا المشروع. وكان موقف سيزر بمثابة الكبريت

---

[1])- المصدر نفسه، ص. 136.

[*])– الانقلاب: يقصد به انقلاب 13 ماي 1958م، الذي عاد على إثره ديغول إلى الحكم.

[2])- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق ، ص. 140.

[**])- مالرو: روائي يساري سابق، وأحد أبطال الحرب الأهلية الاسبانية ووزير الثقافة (1958-1962م) في عهد ديغول(الجمهورية الفرنسية الخامسة).

[3])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص ص. 94-97.

الذي أشعل ثورة الجماهير الغاضبة، والتي حاصرت بلدة فوردوفرانس ست ساعات كاملة[1] .

أما فانون الرجل الذي لا يساوم عن المبادئ التي اعتنقها منذ صباه، فقد أبدى إعجابه الشديد بهذا الموقف الجماهيري الذي قام به شباب المارتينيك في ردة فعل قوية على تصريحات أستاذه سيزر، وكتب مقالا نشر في العدد الثامن والخمسين الصادر بتاريخ 5 كانون الثاني– جانفي 1960 من جريدة المجاهد بعنوان "الدم يسيل في جزر الأنتيل" ومما قال فيه: " ... ها هي المستعمرات القديمة تأخذ هي الأخرى طريق (التمرد)، إنّ هذه الزّهرات الوادعة، هذه البلدان التي قدّمت عددا كبيرا من الخدم الطيّبين والأعوان المخلصين، بدأت هي أيضا تضطرب..."[2].

وقد علّق فانون على موقف سيزر إثر هذه الحادثة: "... إن هذا الخطيب المفوّه (سيزر) قد وضع مواهبه في خدمة الشّعب الفرنسي العظيم، بدل أن يضعها في خدمة (الكونغو) التي تضج بالغابات والأنهار"[3]. وهذا القول المهذّب والرّفيع المستوى الذي علّق به فانون على أستاذه سيزر، دليل عن الألم الذي كان يأكل فانون من الداخل وهو يسمع هذه الأصوات ترحب بسياسة الإدماج في المجتمع الفرنسي ولكنّه لم يرد أن يخدش شخصية أستاذه بعبارات جارحة، فكان يحاول رفع المستوى لكي لا يشعر سيزر أن فانون ينتقده. لقد تساءل فانون بعد هذه الحادثة عن مصير وطنه الأنتيل بعد موقف سيزر المتخاذل من مشروع ديغول، وقال: "... تعجب بعض الملاحظين في الأنتيل من نسبة التصويت ب(نعم)، وهي نسبة تحققت

---

[1])- المكان نفسه.
[2])-فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص. 172.
[3])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 98.

بسبب الموقف الذي اتخذه السيد إيمي سيزر، فهل يّعتبر استقلال الأنتيل أمرا ممكنا اليوم؟..."[1].

وقد وجد فانون نفسه بعد هذا المشروع في مواجهة مع بعض القادة الأفارقة الذين رحبّوا بمشروع ديغول أمثال: هفويت بوانييه، رئيس كوت ديفوار (ساحل العاج) الذي اعتبره حلا نهائيا لمشكلة بلاده، بدمجها في المجتمع الفرنسي، ممّا جعل فانون يعبّر عن أسفه من موقف هذا الرجل، على الرغم من أنه لم يفاجئ بقراره لأنّه كان يعرفه من البداية متواطئا مع فرنسا ضد قضية وطنه[2] .

وقد قال عنه فانون في إحدى مقالاته: "... يحاول السيد هفويت بوانييه الدفاع عن نظريته في الفيدرالية الكاملة، لكن من المشكوك فيه أن يتمكّن من تحقيق غايته لأنّ إفريقيا الغربية على الرغم من ديغول، وعلى الرغم من الثالث عشرة ماي وعلى الرغم من الاستفتاء، ستتحد كدول مستقلة لتدرس في مرحلة ثانية كيفيات التعاون مع الوطن الأم القديم..."[3].

ولكن فانون تألّم كثيرا عندما قبل سنغور هذا المشروع، فلقد كان يحبه ويعتبره بطلا يعلّق عليه آمالا عريضة في الدفاع عن مبدأ استقلال القارّة السمراء وإن كان يعرف أنه يفضّل الأوربيين على أبناء وطنه، ويعيّنهم في وظائف هامّة في بلاده، ويتباهى بذلك صراحة على حساب أبناء جلدته.

وقد أعرب فانون عن أسفه الشديد على ما يحصل للزعماء الأفارقة الذين لمّا تولوا السلطة، فقدوا الكثير من قدسيتهم ومثاليتهم، إذ دنّست ممارساتهم الموالية

---

[1])- المرجع نفسه، ص ص. 141-143.
[2])- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا ،المصدر السابق، ص. 98.
[3])- المرجع نفسه، ص 142.

للغرب تاريخ إفريقيا، وطغت عليهم الأطماع والأغراض الشخصية، وقد نظر باحتقار إلى سنغور الذي كان يقطن في منزل منحه له بنك إفريقيا الغربية[1] .

قد قال فرانتز فانون بهذا الصدد : "إن المؤكد هو أنه عندما يتجه الشّعب إلى الاستقلال يفقد الزّعيم السياسي، سواء في الأنتيل أو في غيرها، أهميته كشخص ذي نفوذ وتأثير"[2]. ولكن سكيوتوري الزّعيم الغيني أثلج صدر فانون، عندما رفض مشروع ديغول وجلجلت صيحته المشهورة "العزة مع الفقر ولا الغنى مع العبودية".

على الرغم من أن فرنسا ردّت على موقفه بالتهديد والوعيد بسحب جميع إطاراتها من هذا الإقليم، حيث كانت جميع المرافق في يد الإطارات الفرنسية سواء التعليم أو الطب أو الشرطة...الخ. وهددّت أيضا بمنع الإعانة المالية كليّة عن غينيا، بما فيها رواتب الموظفين وحتى الأدوات المدرسية، والآلات الزراعية هددت بسحبها لأنّها كانت ملكا لها. ولكن ومع ذلك تحمل أحمد سكيوتوري مسؤوليته كاملة.

وفعلا استطاع أن يتخطى هذه العقبات[3]. إنه القائل: "إنّ نضال الشّعب الغيني في سبيل الاستقلال يعد واحدا من الدوافع الرئيسة للنضال ضد الاستعمار في إفريقية بالنظر إلى تاريخ النضال التحرّري للشعوب الخاضعة للسيادة الأجنبية..."[4].

وكان رفض سكيوتوري فتيلا أشعل "المد القومي" من جديد، وبالفعل ما كاد عام 1960م ينتهي، حتى كانت معظم البلدان الإفريقيّة قد نالت استقلالها نهائيا،

---

[1])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 98.
[2])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 143.
[3])- محمد عبد العزيز إسحاق: المرجع السابق، ص ص 90-103.
[4])- رولف ايتا ليندر: عشرة رجال من إفريقية حياتهم، أعمالهم، أهدافهم، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر: بدون تاريخ، ص. 131.

حتى سمي هذا العام بعام الاستقلال، خاصة بلدان إفريقيا الغربية، وإن كان الفضل في ذلك يرجع بالأساس إلى الثّورة الجزائريّة[1] .

أما فانون فقد أبدى إعجابا كبيرا بغينيا التي كانت البلد الوحيد الذي قال زعيمه "لا" لمشروع ديغول، وقد عبر عن إعجابه بالكلمات الآتية[2]: " لفتح طريق التحرر في إفريقيا السوداء يكفي أن يقول إقليم واحد (لا) لدستور الجنرال ديغول، وقد قالت غينيا هذه الكلمة، ودخلت في طريق سكوتوري ... ولا شك أن وجود غينيا مستقلة سيدخل اختلال كبيرا وعميقا على النظّام الاستعماري الفرنسي في إفريقيا السوداء فغينيا بما لها من حدود مشتركة مع السنغال والسودان وساحل العاج، ستتبلور حولها الطاقات الوطنية الموجودة في إفريقيا السوداء..." .

ومن هذا النص يستخلص الباحث أن فانون قد جعل من قضايا إفريقية التحررية مبدأ ليعيش من اجله ويناضل في سبيله، بما أوتي من إخلاص وحماس للثورة على المستعمرين في هذه القارّة التي سلبت كل ثرواتها بل وشخصيتها.

المبحث الثاني: إسهامات فرانتز فانون في المؤتمرات الإفريقيّة.

كانت لفانون زيارات متعددّة لإفريقيا، فقد شارك في الندوة[*] الأولى لإتحاد الشعوب الإفريقيّة المنعقدة في أكرا عام 1958م، رفقة كل من أحمد بومنجل وشوقي مصطفاوي[3]. ذلك أن غانا أصبحت بعد استقلالها المبكر مركزا لاتصالات وحوارات

---

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 120.
[2])- المصدر نفسه: ص. 143.
[*])- حضر هذه الندوة مجموعة من الدول الإفريقية، هي: (المغرب، مصر، أثيوبيا، غانا، ليبيريا).
[3])- Alice Cherki : Op. Cit, p. 203.

الثوار ورؤساء الدّول الإفريقيّة[1]، كانت شعارات هذه الندوة "ارفعوا أيديكم عن إفريقية" "ينبغي أن تكون إفريقية حرّة" "إفريقيا للإفريقيين"، حاول الزعماء الذين حضروا تبادل الآراء حول ما تعانيه القارّة من مشاكل، ومحاولة إيجاد سبل لتكريس التعاون فيما بينهم، في جميع المجالات، ولقد أسفر هذا المؤتمر على مجموعة من التوصيات لعل أهمها:

أولا: مطالبة فرنسا بإنهاء القتال في الجزائر وسحب قواتها منها، والاعتراف بحق الشّعب الجزائري في الاستقلال وتقرير المصير.

ثانيا: التعاون المتبادل بين الدّول الإفريقيّة من أجل ضمان استقلالها وسيادتها السيّاسية والإقليمية الكاملة.

ثالثا: ضرورة تقديم المعونة للجزائر بوصفها الحصن الأمامي للحركة التحررية الإفريقيّة في وجه الغرب الاستعماري[2] .

وكانت تدخلات بومنجل ومصطفاوي مركزّة على الكفاح الجزائري وضرورة الاعتراف به ومساندته، أما فانون فقد ساند رأيهما وأضاف عليه أن ذلك الكفاح المرير شجّع على استقلال الدّول الإفريقيّة الفرنكوفونية بل وعجّل به أيضا، وممّا قاله في هذا الخطاب: "كل إفريقي يجب أن يشعر أنّه ملتزم فعليا، ويجب أن يردّ جسديا على نداء أي إقليم كان ... إنّه من المهم عدم عزل الكفاح الوطني عن الإفريقي...آن للجزائري أن يكون فعلا جزائريا إذا لم يشعر في أعماقه بالمأساة التي لا يمكن وصفها، والتي تحدث في روديسيا وأنغولا"[3] .

---

[1])- Benjamin Stora : Op. Cit.

[2])- محمد عبد العزيز إسحاق : المرجع السابق، ص. 154.

[3])- المجاهد: العدد 34، 24 ديسمبر 1958.

وقد تحدث فانون عن هذا المؤتمر في مقال نشر في العدد الرابع والعشرين من شهر كانون الأول–ديسمبر 1958م من جريدة المجاهد، بعنوان "أكرا:إفريقية تؤكد وحدتها وتحدّد إستراتيجيتها". تحدث فيه عن الأهداف الرئيسة التي كان القادة الأفارقة يسعون للوصول إليها من خلال هذه الندوة، والتي تمثلت خاصة في التأكيد على الإرادة الوطنية ضد السيطرة الأجنبية، ومحاولة الوصول إلى ذلك من خلال إضعاف الدّول الاستعمارية الواحدة تلوى الأخرى، وإحباط كل المناورات والدّسائس التي يقوم بها المعمّر(بكسر الميم).

وقد أكد الزعماء خلال هذه الندوة ضرورة التفاف والتحام بلدان القارّة حتى تتمكن من انتزاع استقلالها الذي بلا شك سيكون قريبا إذا ما اتّبعوا تلك الإستراتيجية وأكد فانون من خلال هذا المقال دائما على إجماع البلدان الإفريقيّة على اختيار الكفاح المسلّح كأسلوب وحيد للقضاء على الاستعمار الأوربي[1]. وختم هذا المقال المؤثر بقوله: " ... لقد أقسم الأفارقة في أكرا على تبادل العون والوفاء ولن ينقض أي حلف بينهم حقا إن مستقبل الاستعمار لم يكن في يوم من الأيّام أظلم منه غداة مؤتمر أكرا"[2].

ولقد بقي فانون في هذه الندوة اثنا عشرة يوما أسفرت عن تكريس علاقته بنكروما وسكوتوري، وتعرّف أيضا على القائد الكاميروني فليكس موميي، وقائد حركة الاستقلال في كينيا، والأمين العام النقابي بها بويا، وعلى رئيس تانزانيا المستقبلي وحكيمها جيلبيس نيجار (Julius Nigére) والقائد الأنغولي روبارتوهولدن والزّعيم الكونغولي باتريس لومبا، ذلك الرجل الوطني الذي أحبّ بلده حتى النخاع وكان

[1])-فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص ص. 157-160.
[2])- المصدر نفسه: ص. 161.

دائما يردّد " أنا هو الكونغو، فالكونغو هو الذي صنعني، وأنا الآن أصنع الكونغو"[1] .

لقد كان لوممبا من دعاة الوحدة الإفريقيّة المتطرفين، وكان مثله مثل فانون أسودا زنجيا، وولد في نفس عام مولد فانون، ومن الصدفة أيضا أنه توفي في نفس السنة التي توفي فيها فانون، لقد كانت للوممبا رؤية في قضية الاستقلال، لخّصها في قوله: "إن الاستقلال ليس له معنى في الوقت الحاضر فالمطلوب هو إصلاح تقدمي وجعل جهاز الإدارة إفريقياً"[2].

وكان لوممبا رجلا عصريا في أفكاره واشتراكيا في توجهاته، صحيح أنه لم ينل التقدير الثقافي والفكري الذي ناله فانون، ولكن كانت له هو الآخر رؤية وحضور ولقد كان يرى أن منح الحقوق السيّاسية للأميين والأشخاص الذين لا يعرفون استخدامها هو أمر غير وارد، لأنه يعني وضع أسلحة خطرة في أيدي أطفال صغار[3] .

والحق أنه بعد هذه الندوة أعدّ فانون تقريرا دقيقا حول تأثيرات ندوة أكرا 1958م، اقترح فكرة جديدة انفرد بطرحها، وهي تكوين "جبهة إفريقية لمساندة القضية الجزائريّة"، وكان مضمون هذا الاقتراح تكوين فيالق حربية(عسكرية) دولية إفريقية من أجل دعم القوّة العسكرية الجزائريّة في حربها ضد الاستعمار من جهة وتكوينها عسكريا من خلال مشاركتها في تلك الحرب من جهة أخرى.

لقد كان فانون يرى أن هذا المشروع طريق لدعم القضية الجزائريّة، ومنفذا لدعم الوحدة والمساندة بين الدّول الإفريقيّة التي تعاني من نفس مظهر الاستغلال

---

[1])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 103.
[2])- المكان نفسه.
[3])- باتريس لوممبا: بلدي "الكونغو"، ترجمة ج هيث، لندن،1962،ص. 32.

والاضطهاد، كما اقترح ضرورة تحقيق وحدة نقابية بين الأفارقة من خلال إنشاء مشروع مركزية نقابية إفريقية كان يرى فيه خطوة حقيقية لتغيير اجتماعي واقتصادي جذري بعد تحقيق الاستقلال السياسي[1].

هكذا إذن كان فانون مناضلا ومقاوما للاستعمار، ومنظّرا للثورة وما بعد الاستقلال في البلدان الإفريقيّة، إذ لم يكن يفرّق بين الجزائر وبلده الأصلي الأنتيل وأرض الأجداد القارّة السمراء عموما. إذ كان يرى أن كل البلدان الواقعة تحت الهيمنة الاستعمارية هي صاحبة الحق في الثّورة، ضد المستعمر(بكسر الميم) وفي التنمية الوطنية لبلدانها الفقيرة التي استنزفها واستغل ثرواتها المتنوعة. والواقع أنّ فانون قد وجد نفسه حائرا بعد تلك النّدوة، يفكر في حال البلدان الإفريقيّة وفي ما أدلى به نكروما من دعوة إلى الوحدة والتضامن الإفريقي. كان فانون يعتقد أن ذلك أمرا صعبا التحقيق خاصة مع ما خلفته أشكال الاستعمار من فرقة، وما كرّسّته من ثقافة أجنبية في تلك البلدان[2] .

وفيما بين 26–31 آذار– مارس 1959م، كان لفانون لقاء آخر مع إفريقيا من خلال المؤتمر الثاني للكتّاب والفنانين السود، الذي التأمت فعالياته في روما. شارك فانون في هذا المؤتمر على الرغم من بعض المعيقات التي واجهته في اعتلاء منصّة الخطابة، بضغط من الحكومة الفرنسية الاستعمارية على الإيطاليين الذين موّلوا هذا المؤتمر، ولكن إصرار المناضل المارتينيكي الكبير على تحدي تلك العقبات الاستعمارية الكؤود، مكنّه من إيصال صوته إلى ممثلي القارّة السمراء بل وإلى العالم كلّه. حين دعى إلى ضرورة الكفاح من أجل تحرّر إفريقيا وتخليصها من مخلّفات الاستعمار على كل المستويات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

---

[1]) - Alice Cherki: Op. Cit., p. 210.
[2]) - Ibid., p. 206.

وأكّد في هذا الخطاب الثّوري لممثلي القارّة الإفريقيّة على نشر الوعي الوطني وترقيته في أذهان الناس، حفاظا على الثقافة الوطنية، للتخلص من التأثيرات الأجنبية والحفاظ على الثّقافة الوطنية باعتبارها تشكّل العمود الفقري في الهويّة الوطنية، لكل أمّة من الأمم. ومن خلال تطوير الحياة الثقافية يتمكن الإفريقي من الإسهام في بناء أمّته وتوضيح معالمها، لاسيما ممّا خلّفه المستعمر(بكسر الميم) من هيمنة واستغلال[1] .

والحق أن فانون لم يكن منغلقا على نفسه في إطار القارّة السمراء، بل فقد كان يدعوا إلى الانفتاح على العالم وعدم التقوقع حول القيم المحليّة كالزنوجية أو العربية الإسلامية أو الإثنية على سبيل المثال، هذا المصطلح الأخير كان فانون يتحفّظ منه، ويرى أن الاستعمار قد استخدمه كثيرا في بث روح الانقسام والانشقاق بين الشعوب الإفريقيّة وتكريس الفرقة. خاصة وأنه كان يكره الرموز المجردّة ويدعوا إلى العمل ولا يحب الاختفاء وراء الكلمات، لأنّه يؤمن بالعمل الميداني حتى أنه كان يعارض سارتر في كتاباته ويدعوه إلى تحويل الإلتزام النظري إلى العمل.

ويؤكد فرانسيس جونسون في كتابه "إيمان غير المؤمن" أن فانون كان يقول: "من أنا إذا لم أحاول أن أعطي معنى لحياتي، أعتقد أنه من الممكن فهم أناس آخرين ومحاربتهم والعمل من أجل عالم إنساني، وعيش بعض السعادة في نفس الوقت، إنّي أؤمن بذلك لكنني لا يمكن أن أبرهن عليه، وإذا اكتفيت بالاعتقاد فسيكون مجرّد رأي ووعي أجوف، لكن إذا حاولت أن أعيشه سيكون رهانا، سألعب عليه لإعطاء معنا لحياتي"[2].

---

[1])- فلاديمير ماكسيمنكو: الأنتلجنسيا المغاربية(المثقفون أفكار ونزعات)، ترجمة عبد العزيز بوباكير، ط1، دار الحكمة، دار النهضة، مارس 1984، ص ص. 144-147.

[2])- Alice Cherki : Op. Cit., pp . 206-208.

بناءا على هذا النص نستخلص أن فرانتز فانون لم يكن كمعاصريه من الفلاسفة الوجوديين مثلا، يرّكز على الفلسفة النظرية، بل إن فلسفته السيّاسية كانت فلسفة عملية، تعتمد على التفكير ثم تحويل تلك الأفكار والنظريات إلى الميدان العملي، ولعلّ هذا ما يتضح بجلاء في تحوّله السريع من مجرّد التفكير في مقاومة الاستعمار، إلى السير في مجرى الثورات المناهضة له.

وقد تجلّى ذلك أولا في عمله بمستشفى البليدة عندما كان يقدم الدّعم الطبّي للمناضلين، بل وإلى المجاهدين بعد اندلاع الثّورة، ولم يكتف بمجرّد معاداة الاستعمار أو تقييم سياسته إزاء شعوب المستعمرات، ثم في تحوله ثانيا إلى العمل الثوري في الميدان ضمن جبهة التحرير الوطني في تونس وممثّلا لها في بلدان إفريقية بل وفي بعض المؤتمرات والندوات العالمية في أوربا، علاوة على كتاباته الفكرية التي تُدين الاستعمار بجميع أشكاله وأوجهه المختلفة.

ولا شك أن فانون قد اكتسب بفضل نشاطه السياسي وزخمه الفكري النيّر مكانة مرموقة سواء في الأوساط الجزائريّة أو التونسية، بل في إفريقيا كلّها، وممّا زاده مكانة في القارّة أنه زنجي منحدر من أصول إفريقية، وها هو اليوم يعود إلى تربة أجداده ليناضل من أجلها. فكان صلة الوصل الحقيقية بين إفريقيا الشمالية وإفريقيا جنوب الصحراء[1] .حيث واصل نضاله بكلّ حزم والتزام وشعور عميق بقضايا هذه القارّة ومشاكلها الداخلية والخارجية الكثيرة، التي طالما ظلت تتخبط فيها وظلّ يشارك بفعالية في المؤتمرات والندوات الدّولية التي كانت تعالج انشغالات القارّة ومشاكلها السيّاسية والاقتصادية.

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 26.

فشارك في الندوة حول السلم والأمن في إفريقيا، التي انعقدت في أكرا ما بين 7–10 نيسان– أفريل 1960م، وفي الندوة الإفريقيّة الآسيوية، فيما بين 12–15 نيسان– أفريل بكوناكري من السنة ذاتها ، وفي ندوة الشبيبة الإفريقيّة في جويلية وأوت من السنة ذاتها بأكرا كذلك. كما شارك في الندوة الثالثة للدّول الإفريقيّة المستقلة في أديس أبابا في شهر حزيران–جوان 1960م[1]، حضرها اثنا عشرة وفدا من الدّول الإفريقيّة المستقلة[*] كما حضرتها هيئات سياسية ووطنية، وقد ركّزت هذه الندوة في أشغالها، على:

أولا: الوحدة الإفريقيّة.

ثانيا: محاولة إيجاد حلول لمشكلات ما بعد الاستقلال.

ثالثا: إنشاء مشروع بنك التنمية بإفريقيا، وقد أُعتبر هذا المشروع خطوة هامة في تعزيز إفريقيا المستقلة[2].

المبحث الثالث: فرانتز فانون منظرا للثورة في إفريقيا.

حضر فرانتز فانون مرّة أخرى لقاءً في إفريقيا نهاية شهر آب– أوت وبداية أيلول–سبتمبر 1960م، في مدينة ليوبولد فيل حيث دعى إليه باتريس لومومبا.

كانت مشاركته في جميع هذه الندوات الرسمية بصفته ممثّلا دبلوماسيا لجبهة التحرير الوطني الجزائريّة، وحاول في جميع تدخلاته تبيين أثر الثّورة الجزائريّة، واعتبارها قدوة ودعما للثورات في إفريقيا، إذ كتب في أحد مقالاته سنة 1960: "...

---

[1])- Benjamin Stora: Op. Cit.

[*]– مجموعة الدول المستقلة: (مصر- ليبيا- تونس- مراكش- غينيا- ليبيريا- غانا- نيجيريا- الكامرون- السودان- أثيوبيا- الصومال).

[2]- حلمي محروس إسماعيل: المرجع السابق، ص. 723.

نحن الجزائريين لا نفصل ولا نفرّق بين الكفاح الذي نقوده، وبين روديسيا وكينيا، إن تضامننا إزاء إخواننا الأفارقة... تضامنا فعليّا، تضامنا في العمل المباشر"[1] .

وألقى في شهر نيسان– أفريل من السنة ذاتها، مداخلة[*] تركت أثرها على كل الملاحظين عنوانها: "لماذا اخترنا العنف"، أكّد فيها على تأثير القضية الجزائريّة في أرجاء القارّة، وما تركته من تغييرات في السياسة الفرنسية تجاه تلك البلدان الإفريقيّة، إذ قال في هذا الصدد: " إن التحولات الجديدة في السياسة الفرنسية تجاه إفريقيا ظهرت للوجود بسبب الضغط الذي ولّدته حرب الجزائر..."[2]. ودعى إلى ضرورة توطيد الكفاح والنضال من أجل التخلص من الاستعمار في كافة أقطار القارّة وعدم الاهتمام بالكفاح الوطني على حساب الكفاح الإفريقي، فقال: "يجب عدم عزل الكفاح الوطني عن الإفريقي لأنّه من غير الممكن تطبيق سياسة التسويات المنفردة مع القوى الاستعماريّة"[3].

إذ كان يدرك تماما أن الفُرقة لن تحقق الانتصار أبدا، ولن تهزم المحتل في يوم من الأيام، كما تحدّث في هذه المحاضرة كذلك عن الإمبريالية التي تعدّ وجها آخر من وجوه الاستعمار، وشكلا جديدا من أشكال الهيمنة والاستغلال، إذ عبّر عن ذلك قائلا: "الإمبريالية من جهتها تقوّي مواقعها وتكشف عن وجوه وأشكال جديدة للاستمرارية"[4].

هذا وقد نبّه هذا المفكر الثائر إلى علاقات القادة الأفارقة الجدد بشعوبهم وبالدّول الاستعماريّة على أن لا ينخدعوا ببعض السياسات الأجنبية، التي قد تعيدهم إلى المربّع الأوّل الذي انطلقوا منه في الكفاح ضد هذه الدّول نفسها، إيمانا منه بأنّ

[1])- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق. ص. 179.
[*] - هذه المداخلة لم تنشر إلا باللغة الإيطالية في أحد المجلّدات، حيث جمع فيها "pirilli" مختارات من نصوص فانون.
[2])- Alice Cherki : Op. Cit., p .212 .
[3])-Loc. Cit.
[4])- Loc. Cit.

هذه القيادات ما تزال تعوزها الخبرة والدراية بأساليب الحكم والعلاقات بينها وبين أعداء الأمس. نستخلص من هذه المداخلة مسألتين رئيستين:

الأولى: هي أن فانون قد أصبح يتحدث عن الثّورة الجزائريّة، باعتباره وطنيا جزائريا مؤكدا أن الثّورة الجزائريّة، هي التي أجبرت الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية على تغيير سياستها إزاء المستعمرات في إفريقيا، فبعد أن كانت تعتبرها ممتلكات خاصة للأمة الفرنسية وحدها يحكمها الدستور الفرنسي، وقوانين المستعمرات التي سنها فقهاؤها ورجال القانون فيها. صارت تفكّر في نظم وأساليب مرنة للإبقاء على علاقة ودية ومصلحية مع هذه البلدان الإفريقيّة، بدلا من اعتبارها بلدانا تقع تحت هيمنتها.

الثانية: أكد فانون في هذه المناسبة على أنّ الكفاح الوطني في الجزائر ينبغي أن لا يكون منفصلا عن الكفاح في البلدان الإفريقيّة الأخرى، لأن الإتّحاد في المقاومة وفي النّظرة إلى المستقبل بين هذه الشعوب، هو الكفيل وحده بإرغام فرنسا على الإذعان إلى مطالب هذه الأمم المكافحة.

وهكذا إذن تابع فانون كل التحركات السيّاسية والعسكرية التي كانت تحدث في إفريقيا من انشقاقات وخيانات ودسائس ومحاولات للاتّحاد، وفشلها لأسباب مختلفة. إذ شهد عن كثب التّجربة الفاشلة التي تجسّدت في "اتّحاد مالي" الذي تأسّس في 21 حزيران–جوان 1960م وجمع كل من (السنغال والسودان الفرنسي، وفولتا العليا) ولكنه لم يدم إلاّ ثلاثة أشهر فقط، إذ سعت السلطات الفرنسية بمساعدة هفويت بوانييه، على تحطيم هذا الإتّحاد وضغطت على فولتا العليا وهددّتها بمنع مرور صادراتها من ساحل العاج، ذلك أنّ فولتا العليا بلد داخلي ليست لها سواحل ولا موانئ بحرية، فانسحبت هذه الأخيرة من الإتّحاد مرغمة، وبذلك فشلت هذه المحاولة. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فقد تابع فانون محاولة الإتّحاد التي دعى

إليها الزّعيم نكروما، بين غانا ونيجيريا، إذ صرّح بكل تفاؤل قائلا: "منذ اليوم يمكنكم أن تعتبروا غانا ونيجيريا شيئا واحدا".

ولكن ذلك لم يكن تصريحا واقعيا، لأن نيجيريا حتى هذا التاريخ لم تكن قد تحصّلت على استقلالها الفعلي، وكان الأولى بها أن توحّد أقاليمها الداخلية أولا بما تحتويه من تناقضات واختلافات بين خمسة وثلاثين مليونا من سكّانها[1]. ولكن فشل هذا الإتّحاد أيضا لم يثن من عزيمة نكروما الزّعيم الغاني، الاشتراكي الماركسي الذي تأثر هو الآخر على غرار فانون بهيجل وماركس وانجلز ولنين والمفكر الاشتراكي دي بوا Du bois [2] فراح يدعو مرّة أخرى إلى اتّحاد إفريقي عام يضم جميع الدّول المستقلة، وكذلك الدّول التي أوشكت على الاستقلال، وكان الهدف من هذا الاتّحاد هو العناية بالمصالح الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لهته البلدان.

وإذا كانت الظروف السيّاسية والتأثيرات الأجنبية لم تسمح باتّحاد هذه البلدان أو تلك في إفريقيا الغربية، فإنّ نوعا آخر من هذا الإتّحاد قد ولد فعلا على أرض الواقع في هذه الأقاليم الإفريقيّة، حيث ظهر تيار عُمّالي نقابي يجمع كل النّقابات العمّالية في إفريقيا الغربية، والذي أنشأ في كوناكري سنة 1960م أثناء مؤتمر عمّالي أُنتخب فيه الزّعيم الغيني أحمد سكوتوري رئيسا لذلك الإتّحاد[3].

والحق أن تلك المحاولات الوحدوية التي عرفها هذا الجزء من القارّة السمراء لم تكن إلا محاولات للمّ شمل القارّة، ولكنها بالتأكيد قد باءت بالفشل من جرّاء المناورات الاستعمارية الخارجية، وبعض المؤامرات الداخلية التي كانت نتاجا حتميا للعنصريّة والعصبيّة التي كرّسها الاستعمار في هذه البلاد منذ أمد بعيد. ولكنّها في نفس الوقت

---

[1])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص ص. 99-100.

[2])- بيتر لويد : إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي، ترجمة شوقي جلال، العدد 28، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أفريل 1980م ، ص. 279

[3])- محمد عبد العزيز إسحاق: المرجع السابق، ص. 154.

كانت الشّرارة التي تفطّنت من خلالها البلدان الإفريقيّة إلى ضرورة الإتّحاد والتعاون لتحقيق الاستقلال الكامل في جميع المجالات، والتخلص للأبد من ربقة المحتل.

وهذا ما دعى إليه فانون دائما، إذ كان يؤيد فكرة الّتضامن والوحدة الإفريقيّة وكتب مقالا بعنوان: "الوحدة والتضامن الفعال شرط لتحرير إفريقيا"، نشر في العدد الثامن والخمسين من جريدة المجاهد الّصادرة في الخامس من كانون الثاني–جانفي 1960م، وقد قال فيه واصفا محاولات الاستقلال: "إن هذا التفاؤل ليس وليد سلوك جديد عن المستعمر (بكسر الميم)جعله يبدوا في مظهر أقلّ وحشيّة وأكثر إنسانيّة، إن التفاؤل الموجود بإفريقيا اليوم، هو نتيجة مباشرة للعمل الثّوري سياسيا كان أو مسلحا أو يجمع بينهما كما هو الحال في أغلب الأحيان للعمل الثوري الذي تقوم به الجماهير الإفريقيّة... إنّ الإفريقي الواقع تحت السيطرة الفرنسية ليس عدوه هو الاستعمار الذي يتسلط على حدود وطنه فقط، ولكنه أيضا هو كل أشكال الاستعمار ومظاهره مهما كانت الراية التي يستظل بها".

وقد خاطب فانون الأمم الإفريقيّة في هذا المقال: "... على الشعوب الإفريقيّة أن تتذكّر بدورها أنّها واجهت شكلا من أشكال النازيّة ونوعا من أنواع استغلال الإنسان كما واجهت محاولة التصفية المادية والروحية للشخصيّة الإفريقيّة... ويجب عليها أن تلتزم بمواجهة هذا الشرّ بوصفه شرّا فوق كامل التراب الإفريقي..."[1] .

نستخلص من هذا المقال أّن فانون لم يركّز هذه المرّة على وحشيّة الاستعمار وأساليبه الجشعة في استغلال الشعوب فقط، بل فقد حاول أن ينبه أيضا قادة القارّة وشعوبها إلى ضرورة الاهتمام بالهويّة الوطنيّة التي مسخها الاستعمار في جلّ مقوماتها وخصائصها، داعيا إلى مواجهة الاستعمار الذي وصفه "بالشرّ" على

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 178 .

أديم هذه القارّة قاطبة لأن الاستعمار هو الشرّ المشترك بين جميع الدّول الأجنبيّة المحتلّة لأراضي غيرها.

ومن خلال احتكاك فرانتز فانون بالشعوب الإفريقيّة عن كتب أدرك أن هذه القارّة قد كتب عليها الاستغلال والهيمنة، وإن كانت قد تحرّرت من قيد الاستعمار فإنّها وقفت من جديد في قبضة الطبقة البرجوازية التي لا تقل وحشية واستغلالا عن الاستعمار الذي طالما رزحت تحت هيمنته[1].لقد كان فانون يرى أنه لابّد من إغلاق الطريق أمام البرجوازية بعد الاستقلال لتجنّب انتشار الفساد والانهيار الاقتصادي وظهور الطغيان والعنف والإرهاب، وهو الطريق الوحيد في رأيه للتقدم الوطني [2].

كما حذّر من البرجوازيّة الإفريقيّة الفتيّة التي يرى أنها مستغرقة في محاولة الحصول على الثّروات. غير قادرة بأيّ شكل من الأشكال على صدّ الأخطار التي تحيط بها، ومن ثم سيطرة الجيش على الحكم، وقد حذّر من ذلك في بداية الستّينات وقبل مدة طويلة من الفترة التي بدأت فيها الانقلابات العسكرية في إفريقيا[3] .

وقال: "إنّ صفوف المنتفعين المحتالين الذين ينتزعون بأيديهم الجشعة أوراق النّقد من بلد فقير، سيصبحون عاجلا أم آجلا رجالا من القشّ في أيدي الجيش الذي يوجّهه الخبراء الأجانب بمهارة وبهذه الطريقة يمارس البلد الأمّ السابق حكما غير مباشر عن طريق كل من البرجوازيّة التي يؤيّدها الجيش القومي، الذي يقوده خبراؤه الذين يقمعون الشّعب ويشلّونه ويرهبونه"[4]. وبالفعل فقد كانت نظرة فانون ثاقبة في هذا المجال ففي عام 1963م حدث انقلاب عسكري ضد الرئيس "أولومبي" رئيس

---

[1])-دافيد كوت : المصدر السابق، ص. 100.
[2])- فرانتز فانون: معذبوا الأرض، المصدر السابق. ص. 143
[3])- جاك ووديس: تعريب محمد مستجير مصطفى، نظريات حديثة حول الثورة(فانون والثورة في إفريقيا)، دار الفارابي، بيروت: 1978م، ص. 24.
[4])- فرانتز فانون: معذبوا الأرض، المصدر السابق. ص. 140.

جمهورية توغو وحتى نهاية عام 1968م كان قد وقع أربعون انقلابا أو على الأقّل أزمة حكم في إفريقيا[1].

لقد كان فانون يعتبر دائما أن الطّبقة العاملة هي الجزء البرجوازي من الأمّة ويشعر بالاحتقار والعداء تجاه البرجوازيين من سكان البلاد الأصليين، لأنّه لا يرى فيها إلا عقبة كؤود في طريق الاستقلال[2] وحليفا للإمبريالية، ولعبة هشّة في يد الاستعمار. كما حذّر كذلك من نظام الحزب الواحد في البلدان الإفريقيّة، وكيف يصبح هذا الأخير وسيلة لتحقيق الأطماع والأغراض الشخصيّة والامتيازات بكافة أشكالها، وأداة في يد البرجوازية لدعم جهاز الدّولة، وكيف يكون حاجزا بين الشّعب والسلطة، بدل أن يكون أداة الوصل بينهما.

ويتحدث فانون عن كيفية إنشاء نظام الحزب الواحد، الذي يرى أنّه وليدا للبرجوازية فيقول: "... إن البرجوازية العاجزة اقتصاديا، وغير القادرة على أن تكوّن علاقات اجتماعية متماسكة المستندة إلى مبدأ سيطرتها كطبقة تختار الحلّ الذي يبدو لها أسهل الحلول، أي الحزب الواحد... إنّ نظام الحزب الواحد هو الشكل الحديث لدكتاتورية البرجوازيّة بلا قناع وألوان أو وازع أو حياء"[3]. ويؤكّد على عدم جدوى النظّام الأحادي: "يصبح الحزب وسيلة للمغانم الشخصية"[4]. إن فانون على الرغم من أنّ أفكاره كانت يسارية أقرب إلى الأنظمة الاشتراكية في العالم، فإنه يحذّر من حكم الحزب الواحد، وهي الظاهرة المنتشرة والمؤكّدة في البلدان الشيوعيّة ذات النظّام الشمولي.

---

[1])- جاك ووديس: المرجع السابق، ص ص. 25-45.
[2])- المكان نفسه.
[3])- المرجع نفسه، ص. 43.
[4])- فرانتز فانون: معذبوا الأرض، المصدر السابق، ص. 138.

ولعلنا نفهم من الموقف الذي سجّله فانون تجاه البلدان الإفريقيّة المستقلة حديثا أو التي هي في طريق الانعتاق من ربقة الاحتلال، أنّه كان متأثرا بالأنظمة الديمقراطية في الغرب، ولم يكن الفكر اليساري سوى نهجا اتبعه لمقاومة الاحتلال والدّفاع عن الإنسان المضطهد في أي بلد من العالم، لاسيما تلك الأوطان التي كانت له بها علاقة معيّنة كجزر الأنتيل، التي ولد فيها أو القارّة السمراء التي ينتمي إليها في أصوله الأولى، فهو بهذه الازدواجية شبيه تماما ببعض الزعماء الوطنيين في البلدان المستعمرّة التي كانت تخوض حرب الاستقلال ضد الدّول الاستعمارية، فهو شبيه عندنا في الجزائر بمحمد بوضياف، عباس فرحات، وعبد العزيز بوتفليقة(1937–حي 2009) الرئيس الحالي للجمهورية الجزائريّة وغيرهم من الذين كانوا يحملون أفكارا يساريّة، ولكنّهم يفضلّون الأنظمة الليبيرالية لحكم شعوبهم.

والحق أن مسيرة التاريخ بعد الحركات الاستقلالية في إفريقيا قد أثبتت تنبؤ فانون وتحاليله للأنظمة السيّاسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة في إفريقيا، إذ أدرك أنّ هذه البلدان التي انفلتت حديثا من الاستعمار، ستصبح بالتدريج فريسة سهلة للطبقة البرجوازيّة المحليّة المتعاونة مع السلطة الوطنيّة، التي تعتمد في علاقاتها مع فئات المجتمع على الجيش الوطني الشّعبي ذاته، بحجّة الحفاظ على الوحدة الوطنية والاستقلال السياسي والاقتصادي للأمّة، أو ربّما تعاون هذه الطبقة البرجوازيّة مع أعداء الأمس أنفسهم، كما وقع في بلدان إفريقيا الغربيّة.

المبحث الرابع: فرانتز فانون من التنظير إلى التنفيذ.

انطلاقا من آراء فرانتز فانون وتنظيراته المختلفة حول الاستعمار وتنظيم الحكم في القارّة الإفريقيّة، اختارته الحكومة الجزائريّة المؤقتة ليكون سفيرا للجزائر في

غانا[1]، فعرّج على أرشيف الشؤون الخارجية بتونس في عهد كريم بلقاسم واطلّع هناك عن السياسة الجزائريّة في إفريقيا قبل أن يلتحق بمنصبه[2]. وبدأ احتكاكه المباشر بالقارّة والاطلاع على أمورها عن كذب، ومن ثم فقد أخذ يكتشف أسباب مختلف الأزمات التي تنهشها من الدّاخل، فتأكّد أنّ النهج الاشتراكي وحده قادر على تحقيق الثّورة الفعلية الأصيلة ضد كلّ أشكال الاستعمار.

لم يكن فانون شيوعيا أو ماركسيا قحّا، ولكنّه كان واضحا تماما في تحيّزه للاشتراكيّة إذ يقول: "إنّ نظاما يتّجه بوضوح نحو الشّعب بأسره، ويقوم على مبدأ أنّ الإنسان هو أثمن الممتلكات يتيح لنا أنّ نمضي إلى الأمام بسرعة وانسجام أكبر... فمن أجل أوربا ومن أجل أنفسنا، ومن أجل الإنسانيّة أيّها الرفاق ينبغي أنّ نبدأ صفحة جديدة وأن نصوغ مفاهيم جديدة، وأنّ نحاول خلق إنسان جديد"[3] .

ولكن فانون الذي كان يرى أنّ النظّام الاشتراكي هو الحلّ الأمثل للشعوب المستقلة حديثا، فإنّه وكما رأينا من قبل لم يكن يفضّل نظام الحزب الواحد، فهو يريدها اشتراكية في إطار التعدّدية الحزبيّة يهدف إلى سدّ الطريق أمام الطبقة البرجوازيّة التي تتحالف مع الطبقة العسكريّة في البلاد. وكان فانون يرى أن الإتّحاد السوفياتي قدّم مساعدات هامّة وفعّالة للعالم الثالث في حربه ضد الاستعمار والامبرياليّة، ويبدي تحيّزه الكامل للمعسكر الشرقي.

ولقد أكدّ هذا التحيّز، في مقال كتبه في شهر كانون الثاني–جانفي 1960، وممّا جاء فيه: " عندما نقول نحن الأفارقة أننا محايدون بالنسبة للشرق والغرب، فإننا نعني أنّ القضيّة التي تهمنا في الحالة الراهنة، هي قضيّة كفاحنا ضدّ الاستعمار ...

[1])- Rédha Malek: Op.Cit., p.73.
[2])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 211.
[3])- فرانتز فانون: معذبوا الأرض، المصدر السابق، ص.83.

لا نستطيع أنّ نكون محايدين تجاه حرب الإبادة التي تقودها فرنسا في الجزائر، أو اتجاه الميز العنصري في جنوب إفريقيا، إنّنا في نطاق كفاحنا ضد الاستعمار لا نقرأ حسابا إلاّ لصرامة التزامنا وللتّأييد الذي يبذله لنا هذا البلد أو ذاك، وفي هذا النطاق نستطيع القول أنّ الشعوب التي يطلق عليها اسم (البلاد الشرقية) تساندنا بكيفية حازمة، بينما تَلزم الدّول الغربية جانب الغموض"[1] .

وكان فانون يطمح في زيارة كوبا ولكن الموت كان أسرع منه، ولم يحقق ذلك الأمل، وقد كتب عن فدال كاسترو، وقال: "لقد استولى كاسترو على زمام الحكم في كوبا ثم سلّمه للشعب"، وهذا هو السبب الذي جعل الولايات المتحدة الأمريكية تتدخل فتحاول أنّ تساعد في قيام ثورات معاكسة لقلب نظام الحكم هناك[2] .

وقد كان لفانون مشروع كتاب أكثر عمقا وتفصيلا لأوضاع القارّة السمراء بعنوان: "الجزائر الوجهة Alger le cap ". وضع له خطّة في سبعة فصول، حرب المغرب وتحرير إفريقيا، ملاحظات حول الشجاعة في الجزائر، الثّورة والأخلاق في الجزائر ملاحظات تقنية عن الحرب، العنف في إفريقيا، علم النفس والتاريخ الزنوجة والحضارة الزنجية (الإفريقيّة).

وراسل بشأنه صاحب دار النشر ماسبيرو، ولكن فانون لم يكتب هذا الكتاب ولم يخرجه إلى حيّز الوجود، لأنّ انشغالاته في القارّة من جهة، وعمره القصير لم يمنحه من جهة أخرى الكثير من الوقت لتحقيق أمله، ويبدوا أنّ هذا المشروع كان الخطّة الأوليّة لكتابه: "معذّبوا الأرض"، لأنّه احتوى على بعض المحاور منه[3].

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص. 178.
[2])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 102.
[3])- Alice Cherki : op. Cit., p. 215.

والحق أن فرانتز فانون كان مركّزا كلّ اهتمامه في هذه الفترة حول القارّة الإفريقيّة ولم يبد الكثير من الاهتمام تجاه العديد من الأحداث في العالم، فهو مثلا لم يعر محاكمة أعضاء شبكة جونسون أي اهتمام، عندما حوكموا غيابيا من قبل المحكمة الفرنسية[*] في شهر أيلول–سبتمبر سنة 1960م، على الرّغم من أهمية هذه الشبكة في حياته كما سلف الذكر[1].

بينما اهتم مثله الأعلى سارتر اهتماما كبيرا بالموضوع، وأخبر أعضاء شبكة جونسون في رسالة له قبل سفره إلى البرازيل أنّه بإمكانهم أن يستعملوا اسمه في أيّ ظرف يرونه مناسبا، ولمّا جرت المحاكمة الغيابية لأعضاء الشّبكة أرسل سارتر من البرازيل تأييده الكامل لها في رسالة خاصة، وقد علّق فانون على موقف سارتر هذا بقوله: "كان من الأجدر به أن يكون هنا"[2].

وربما كان فانون يعتبر وجود سارتر في فرنسا أكثر إيجابية في معالجة هذا الحدث، وأنّ الموقف الذي اتخذه وهو في البرازيل لم يكن ذا قيمة كما لو أنه كان في فرنسا، وشهدت هذه المرحلة استيقاظ الرأي العام في فرنسا، وحدثت العديد من المظاهرات التي تطالب بإيجاد حلّ نهائي للقضية الجزائريّة، علاوة على صدور ما يسمى ببيان(121) الذي جمع العشرات من المثقفين من كافة الأطياف، ندّدوا بالحرب والتقتيل في الجزائروقالوا، بحق الجيوش الفرنسية المتواجدة في الجزائر بإعلان العصيان والتمرّد والانسحاب[3] .

---

[*]- بدون حضور جونسون الذي كان ما يزال هاربا.

[1])- Dominique Vidal : "les (traitres) qui sauvèrent l'honneur de la France", le monde diplomatique, septembre 2000, PP. 28-29.

[2])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 215.

[3])- محمد الأمين بلغيث: تاريخ الجزائر المعاصر (دراسات ووثائق)، ط1، دار البلاغ، الجزائر العاصمة، ودار ابن الكثير، بيروت- لبنان،2001، ص. 192.

ولم يبد كذلك فانون أيّة ردّة فعل حول بعض محاولات التقارب التي كانت تحدث في العلاقات الجزائريّة الفرنسيّة كاللّقاء الذي حدث بين "الإتّحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين(UGEMA)"، و"الإتّحاد الوطني لطلبة فرنسا" في لوزان بسويسرا في جوان 1960م، وكذا المؤتمر الذي انعقد في شهر أيار–ماي 1960م الذي جمع كل من "فيدرالية الطلبة السود الأفارقة" في فرنسا و"جمعية الطلبة الأنتليين الإفريقيين". حيث طالبوا فرنسا بفتح المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني[1].

ولما حدثت مفاوضات مولان الأولى "Melun"[*] في نهاية شهر حزيران–جوان 1960م، والتي كانت تعبيرا فعليا عن اعتراف ديغول بالحكومة الجزائريّة المؤقتة لم يتدخل فانون في أي شيء ولم يشارك في تلك المفاوضات[2] . ويبدوا أن غياب فانون عن هذه الأحداث كلّها يعود إلى عدّة عوامل أهمها:

- انشغاله بالقضايا الإفريقيّة.
- تخصيص شخصيّات معيّنة من جبهة التحرير الوطني للقيام بمهمة التفاوض مع فرنسا. ولعلّ شيئا آخر يضاف إلى ذلك كلّه، المرض الذي باغته في أواخر عام 1960م.

كما أن فانون قد عانى كثيرا من المشاكل السياسية والمؤامرات الاستعمارية أثناء أداء مهمته في إفريقيا لولا العلاقات الطيّبة مع أشخاص شاركوه انشغالاته أمثال عمر أوصديق الذي كان مندوبا للجزائر في باماكو، وبوعلام أوصديق، الذي كان ممثّلا للحكومة المؤقّتة في كوناكري، وإضافة إلى ما شهده في هذه القارّة المعقدّة من بيروقراطية ورشوة وحبّ القادة الجدد للسلطة[3] ، فإنّه شهد كذلك مصرع صديقه ورئيس الحكومة الكونغولي باتريس لومبا، ذلك القائد الذي حاول توحيد

---

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., pp. 222-223.

[*]– انتهت مفاوضات مولان الأولى في 25-29 يونيو 1960م.

[2])- Mohamed Harbi: Op. Cit., p .227.

[3])- Alice Cherki: Op. Cit., p. 213.

الكونغو خاصّة بعد استقلال بلده في شهر حزيران– جوان 1960م. حيث تحرّكت الحركات الانفصالية في هذه المنطقة وتمكنت القوى المعادية للوممبا من عزله من منصبه كرئيس للوزراء في الكونغو ومحاصرته في منزله في أيلول–سبتمبر من عام 1960[1] .

وكانت الحكومة المركزية في الكونغو تسيطر على مقاطعة ليوبولدفيل وأجزاء من مقاطعتي الكونغو الاستوائية وكاساي، ولكن استطاع الانفصالي موريس تشومبي أن يستقل بالجزء الجنوبي من منطقة كاتانجا المنجمية، بدعم من البلجيكيين وكوّن لها جيش وعملة وإذاعة وأسطول جوّي. ووقفت الأمم المتحدّة موقف المتفرّج من هذه الأحداث، بل فقد تآمرت وعقدت الاتفاقيات مع المتمرّد تشومبي، وحتى قوات الأمم المتحدة التي أُرسلت إلى الكونغو بدعوى الحفاظ على استقلال البلد، لم تحرك ساكنا لإنفصال كاتانجا، وانحصرت مهام تلك القوى في دعم الإقطاعيين والسيطرة على الكونغوليين وفشلت كلّ الصيحات التي نادت بضرورة احترام قرارات مجلس الأمن واستخدام تلك القوات لحماية الكونغو.

وقد كان هذا البلد الإفريقي يخدم المصالح الاستعمارية البلجيكية في إفريقيا مع أن مساحته تزيد عن مساحة بلجيكا نفسها باثنتين وسبعين مرّة[2] . وبذلك استطاع الانفصالي تشومبي بالتآمر مع القوى البلجيكية أن ينفذ اغتيال لوممبا في شهر شباط–فيفري عام1961م[3]. وقد تأثر فانون كثيرا بمقتل هذا الرجل، وكتب مقالا بعنوان "موت لوممبا هل كان بإمكاننا أن نفعل شيئا آخر"، نشر في العدد التاسع والعشرين في مجلّة أفريك أكسيون الصادرة في 20 فبراير 1961م، شرح فيه بعض المعطيات السيّاسية في الكونغو وخيوط المؤامرّة التي أودت بحياة لوممبا،

[1])- Benjamin stora: Op. Cit,.

[2])- محمد عبد العزيز إسحاق: المرجع السابق، ص ص. 212-213.

[3])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 102.

فقال: "أعلنت عملية كاتانجا... ماذا كان هدفها؟ طبعا كانت تهدف إلى الاحتفاظ بالإتّحاد المنجمي، لكن الهدف الكامن وراء ذلك هو الدفاع عن المفهوم البلجيكي للاستقلال الكونغولي، لأن قيام كونغو موحد على رأسه حكومة مركزية محترمة تتعارض مع المصالح البلجيكية ... وتمثلت سياسة بلجيكا ... في إثارة المطالب الانفصالية وتأييدها وتغذيتها"[1].

وأكدّ فانون في هذا المقال أنّ لومومبا قد أخطأ في دعوة الأمم المتحدة للتّدخل فقد ثبت أنها عميلة للقوى المناوئة للاشتراكية ولقوى الاستعمار الجديد، إذ يقول: "شيئا فشيئا بدأت تتجسد فكرة التدخل بواسطة الأمم المتحدة، لذلك كان من الواجب عدم توجيه أيّة دعوة لها ... لأن الأمم المتحدة لم تنجح في حل أي مشكل من المشاكل التي تواجه ضمير الإنسان بسبب الاستعمار..."[2]. فلومومبا في نظر فانون كان من الأفضل له ولبلاده أن يبتعد عن الأمم المتحدة ويحاول الإستعانة بالقوى الحرّة وبأصدقائه في العالم،بدلا من أن يجري وراء سراب الهيئة الأمميّة.

حقا لقد كان لفانون تعاليق ضافية حول لومومبا في إدارة بلاده التي كانت واقعة بين مطامح الدّول الإستعماريّة والقوى الرجعية الإنفصاليّة من الداخل، وتأسّف كثيرا عن أن صديقه الزّعيم لومومبا قد رحل قبل أن يتم رسالته الحضارية في خدمة وطنه الذي تركه فريسة للأطماع الأجنبية والعناصر الداخيلة الطفيلية. فكان خطأ لومومبا في رأي فانون هو أنه آمن بنزاهة الأمم المتّحدة ونسي أنّها كانت عبارة عن جمعية لخدمة الدّول الكبرى من أجل تقسيم العالم.

ولم تقتصر ملاحظات ونصائح فانون على الزّعيم الكونغولي ومن حوله من قادة البلاد. بل فقد كان خطابه موجها لكلّ القوى الحرّة في إفريقيا من البلدان

[1])- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص. 200.
[2])- المصدر نفسه، ص ص. 202-203.

المستقلة حديثا، إذ حذّرها جميعا من الاستغاثة بالأمم المتّحدة، ونصحها بالاعتماد على البلدان الصديقة فقط، التي كانت قادرة في رأيه على دعم تلك البلدان والأخذ بيدها في تحقيق استقلالها السياسي والاقتصادي، وهما ركنان أساسيّان في بناء الدّول[1] .

ولقد أكّد فانون في هذا المقال أن سبب المؤامرات التي أودت بحياة الزّعيم الكونغولي ليس فقط وقوفه ضد الاستعمار والإمبريالية، ولكن لكونه وقف وقفة شجاعة ضد العنصرية التي كانت تعاني منها جنوب إفريقيا منذ بداية حركة الاستعمار الحديث، وقال في ذلك: " من الواضح أن قيام كونغو موحد على رأسه مناضل ضد الاستعمار يشكّل خطرا حقيقيا على إفريقية الجنوبية... لكن لوممبا تعهد باسم شعبه أن يساهم مساهمة مادية في قتل النظّام العنصري بإفريقيا الجنوبية..."[2].

ولكن الشيء الذي أذهل فانون وأسفه كثيرا هو خيانة بعض الأفارقة الذين تبنوا السيّاسية الإمبريالية في الكونغو، وقاموا بدور الوسطاء وأيّدوا نشاط الأمم المتحدة وسكوتها الغريب عن كل ما يجري من مؤامرات في الكونغو[3] .

ويبدوا أن فانون قد تأثر كثيرا بقضية لوممبا، وراح يسرد في مقاله السّالف الذكر كل التحركات والاتّصالات، التي كانت بين لوممبا وبين بعض الدّول غير بلجيكا والبرتغال، وكيف تقرر القضاء عليه بعد زيارته إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ويوضّح فانون بالتفصيل الهدف الذي اغتيل من أجله لوممبا والتواطؤ الذي وقع بين الدّول الاستعمارية الرامية إلى تأييد سيطرتها على القارّة وبعض

[1]- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص.204.
[2]- المصدر نفسه: ص ص 202-203.
[3]- المصدر نفسه: ص. 205.

الزعماء الأفارقة الضعاف الذين انساقوا مع أهواء تلك الدّول الأجنبيّة وهم لا يعلمون ما الذي سيحيط بهم مرّة أخرى من أخطار استعماريّة[1] .

لقد بلغ تفكير فانون حول إفريقيا إلى درجة التنظير والتأسيس في المجالات السيّاسية والإيديولوجيّة والاقتصاديّة والثقافية، لقد سيطرت قضايا إفريقيا على فكر هذا المناضل الأديب سيطرة تامّة جعلت قلمه لا يتوقف عن الكتابة حول انشغالات القارّة السمراء، إنّ الذي لا يقرأ التفاصيل الضّافية التي وردت في كتب ومقالات فانون عن إفريقيا لا يكاد يصدّق من قال أنّ إفريقيا قد ملكت روح فانون وسيطرت على عقله، كما لو أنّه كان الزّعيم الوحيد الذي يدافع عنها بكلّ ما أوتي من قوة فكريّة وجسديّة.

وإلاّ كيف يتصوّر المرء أن رجلا من جزر الأنتيل درس في جامعات فرنسا وعمل في مؤسساتها الاستشفائية بالوطن الأم وفي الجزائر على التوالي يغادر ميدانه الأصلي ليلتحق بثورة كانت ما تزال في منتصف الطريق، لم تصل حتى إلى اعتراف الأصدقاء بها ولا حتى العدو للتفاوض ووقف إراقة الدماء ووضع تصوّر مستقبلي بين الطرفين لإعادة بناء العلاقات الجزائريّة الفرنسية من جديد، مع ذلك كلّه يلتحق بها فانون وعلى جناح السرعة ومن خلالها يتحوّل إلى خدمة كل القضايا الإفريقيّة العادلة بإخلاص وحماس كبيرين، لم يسبق لهما مثيل لدى بعض الزعامات الأجنبية إزاء قضايا شعوب أخرى.

إنّ تتبّع ما كتبه فانون حول إفريقيا قد لا تتسع له مثل هذه المذكرة المحدودة الصفحات والمرتبطة ارتباطا عضويا بمنهجية البحث العلمي، الذي لا يخرج عن الخط المرسوم في الإشكالية ومحاور الرسالة، غير أن المؤكّد هنا هو أن الباحث لا

[1])- المصدر نفسه: ص. 202 .

يستطيع مهما أوتي من قوّة عقلية أن يتمالك نفسه مع انسياب الأفكار التحرريّة والإنسانية التي امتلأت بها مؤلفات ومقالات فانون، فهو لا يشعر في بعض اللحظات أنّه يحاول توظيف كلّ ما كتبه هذا الرجل حول قضايا القارّة السمراء، والتي لا يفرق فيها فانون بين الشمال والجنوب أو بين الشرق والغرب، بل فإنه ينظر إليها كوحدة متماسكة ينبغي أن تتحرّر من النير الاستعماري عاجلا أو آجلا.

وها أنا أعود مرّة أخرى مع فانون للحديث عن باتريس لومبا، الذي اعتبر اغتياله اغتيال لإفريقيا الحرّة، إفريقيا المستقلة. نعم لقد علّق فانون على هذا الرجل الكثير من الآمال لإخراج إفريقيا من النّفق الاستعماري إلى الأبد، ولكن أيادي الغدر والخيّانة قد عجّلت بموته لكي يترك الباب مفتوحا على مصرعيه للمتكالبين على هذه القارّة التي يريدون إعادتها مرّة أخرى إلى الاستعمار والاستغلال والعبودية[1].

حقا لقد كان فانون مدركا تمام الإدراك لما تشكله بعض الشخصيّات الوطنيّة من أهميّة في حماية استقلال بلدانها والسير بها نحو التحرّر والانعتاق، وبناء دول حديثة مناهضة للاستعمار والإمبرياليّة العالمية، ولكنّه لم يكن متأكدا من ظهور شخصيات أخرى مماثلة لشخصية لومبا. وإذا كان فانون قد تأثر كثيرا باغتيال لومبا، فإنه تألم كثيرا أيضا لاغتيال صديقه القائد الكاميروني فليكس موميي.

وقد كتب عنه كتابة أصيلة في مذّكراته أثناء رحلته إلى إفريقيا عام 1960م ممّا جاء فيها على سبيل المثال: "قال لي فليكس موميي سنشهد في ظرف ثلاثة أشهر تقلّصا هاما للاستعمار في الكاميرون". ولكن بعد أيام "وصلتنا برقية تقول أنه يوجد في المستشفى، ثم قيل لنا أنّهم سمّموه، ووصلنا النبأ بعد أيام مات موميي... لم

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 213.

نحس بهذه الميتة، نعم إنّه اغتيال، لكن لم تصاحبه طلقات رشاشة أو دوي قنبلة إنه سمّم بمادّة التاليوم... إنّها ميتة مجرّدة، تضرب أكثر الرجال وجودا وحيوية..."[1].

إذن كان فانون يتّبع خطوات اغتيال الزّعيم الكاميروني فليكس موميي، مؤكّدا أن وفاته كانت كوفاة سائر الزعماء الكبار في العالم، إنّها ليست بطلقات الرصاص ولا بدوي المدافع أو أزيز الطائرات، ولكن بالموت المدسوس في الطعام والشراب وهي ظاهرة تميّزت بها الاغتيالات السيّاسية عبر التاريخ، وقد وصف فانون فليكس موميي وصفا دقيقا في كلامه في لهجته في أسلوبه في جسده: "... لقد كانت لهجة فليكس موميي دائما عالية، عنيفة، ساخطة، محبّة لبلدها، بغوضة للخونة والمناورين كان صلبا غير قابل للفساد، إنّه عبارة عن وقود ثوري يوجد داخل ستين كيلوغرام من اللحم والعظم"[2].

من هنا يدرك الباحث بوضوح مدى حب فانون لإفريقيا وتعلّقه بها وبزعمائها المخلصين والاستماتة من أجلها، إنّه زعيم ليس ككل الزعماء، إنّه رجل مفكّر كما أنه رجل عمل واستقصاء عن الحقائق والملابسات التي تحيط بكل قضية من قضايا إفريقيا. ومن القضايا التي سيطرت على فكر فانون في هذه المرحلة هي تدعيم الكفاح المسلّح في أنغولا، أحداث الكونغو، تكوين جبهة في الجنوب على الحدود مع مالي[3] .

ولقد لقي هذا المشروع القبول والدّعم من الحكومة الجزائريّة المؤقتة، واختير من الجزائر للإسهام في تنفيذ هذه المهمة شخصان مقرّبان من قيادة الأركان[4]، هما هواري بومدين(محمد بوخروبة) وهو أحد مسؤولي قيادة العمليات في وجدة بالمغرب،

---

[1])- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص. 186.
[2])- المكان نفسه.
[3])- Benjamin Stora: Op. Cit.
[4])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 102.

وعبد العزيز بوتفليقة[*] الرئيس الحالي للجمهورية الجزائريّة، الذي كلّف بالإعداد عسكريّا لهذه القاعدة في جنوب الصحراء.

وتذكر كلودين شولي[**] التي كانت معهم في البعثة، أنّه كان من بين الذين كتبوا لفانون بالآلة الراقنة كتابه "معذّبوا الأرض"، وكان بوتفليقة من الذين أحبّوا فرانتز فانون كثيرا وتأثروا بشخصيته وأفكاره إلى حدّ كبير[1] .

والحق أن هذا المشروع الذي اقترحه فانون كان في وقت كانت فيه الثّورة الجزائريّة تعيش مرحلة خانقة، خاصّة بسبب خطي شال وموريس اللذين أقامتهما السلطات الاستعماريّة على الحدود الجزائريّة التونسية والحدود الجزائريّة المغربية لمنع مرور الإمدادات من هناك[2].

وقد كتب فانون في مذكراته مقالا بعنوان: "إفريقيا المستقبل" سنة 1960م بخط يده أثناء رحلته في إفريقيا عن المشروع الذي اقترحه مقالا بعنوان"إفريقيا المستقبل" شرح فيه الملابسات المختلفة التي أحاطت به وممّا جاء في هذه المذكرات: أن قادة ولايات جيش التحرير الوطني قد عقدوا اجتماعا في الشمال القسنطيني في نهاية عام 1958م، أفضى إلى التحذير من الخطر التدريجي الذي أصبح يهدّد الثّورة في الداخل بسبب الأجهزة التي وضعها العدو الاستعماري في مختلف المناطق من البلاد، مثل: المناطق المحرّمة ومراكز التجمع أي المحتشدات التي تهدف إلى عزل جيش التحرير عن السكان.

(*)- عبد العزيز بوتفليقة: كان أثناء الثورة قد استعار اسم عبد القادر المالي، كما هو الحال بالنسبة للقادة الثوريين.

(**)- كلودين شولي: مناضلة من أجل القضية الجزائرية وزوجة بيير شولي.

1)- Alice Cherki : Op. Cit., p. 217.

2)- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 105.

وقد تقرّر في هذا الاجتماع إيفاد العقيد عميروش إلى تونس لشرح حقيقة الوضع للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائريّة، من أجل تحديد الوسائل التي تمكن من تموين الداخل بالسّلاح والذخيرة والمال.

وتضيف مذكرات فانون وكما هو معروف، أنّ العقيد عميروش قد استشهد في الطريق مع رفيقه سي الحوّاس بمنطقة بوسعادة في شهر مارس 1959م. ويواصل فانون في مذكراته حديثه عن الثّورة ووضعية الجزائر على الحدود: "بما أن الجيش الفرنسي كان قد عزّز خطوطه على الحدود فقد أصبح من الصعب تموين الداخل عن طريق تونس والمغرب..."[1]. وفي شهر آذار–مارس 1960م عُيّن فانون ممثلا للجزائر في أكرا كما سلف الذكر، وخلال إقامته هناك لاحظ وجود إمكانية أخرى لتدعيم الداخل عن طريق حدود جنوب الصحراء وبالضبط عن طريق مالي[2] .

وقد رسم لنفسه مجموعة من الأهداف في هذه الفترة، لعلّ أهمها تنشيط إفريقيا الإعانة على تنظيمها وتجميعها وراء المبادئ الثورية، الإسهام في حركة القارّة[3].

ويتحدّث فانون باسمه كجزائري سنة 1960م، فيقول: " كانت الوضعية واضحة بالنسبة لنا نحن الجزائريين، وإن كان الميدان صعبا فيتعيّن علينا... أن نقيم الدليل على أنّ هذه القارّة تتشكل كلا واحدا بواسطة قيام مظاهر ملموسة، كما يتعيّن علينا أن نبرهن أنه في الإمكان أن نحدّد من وراء الاختيارات العامّة للمسيّرين، النقاط المعنية التي يمكن أن تلتقي فيها الشعوب وتتعاون وتتبنى بناءا مشتركا..."[4] .

---

[1]- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص.183.
[2]- المكان نفسه.
[3]- المصدر نفسه، ص. 184.
[4]- المصدر نفسه: ص. 185.

وكانت خطة فانون المتعلقة بفتح جبهة جنوبية مع الثّورة الجزائريّة، تتمثل في جلب الأسلحة والذخيرة من باماكو عبر السنغال وغينيا وساحل العاج وغانا ونيجريا وتوغولاند وصولا إلى النجود الجزائريّة [1] مع توعية سكان الصحراء والاستعانة بهم لتحقيق هذه الخطة، وكان يأمل في تطبيق خطّة شاملة في إفريقيا كلّها مع بعضها البعض عن طريق إنشاء مسالك كبرى وأجهزة مواصلات عبر الصحراء، ومن ثم الوصول إلى الوحدة الإفريقيّة[2].

ولكن هذه الخطة كما اعترف بذلك فانون نفسه كانت صعبة التحقيق تتطلب إمكانات ضخمة ومجهودات جبّارة لتنفيذها في الميدان، ويذكر فانون أنهم كانوا ثمانية أشخاص مكلّفين بهذه المهمّة يختلفون في اختصاصاتهم ما بين (فرق كومندوس جيش اتصالات لاسلكية، محافظون سياسيون، السلك الصحي)، وقد ذكر فانون من بينهم ثلاثة هم: كلودين شولي، عبد العزيز بوتفليقة، وفانون كما كان يحب أن ينادوه عمر الجزائري أو عمر فانون–[3].

انطلق فانون وفرقته لتحقيق هذه الخطة في الميدان عن طريق الجو، ولكن المخابرات الفرنسية التي كانت تتّبع خطاهم أجبرتهم على سلوك الطريق البري لأنها كانت تريد القبض عليهم عن طريق موظّفي الطائرة، الذين كانوا يريدون تنويمهم كي تسهل قيادتهم إلى ساحل العاج الدّولة العميلة لفرنسا[4]. وعندما وصل فانون وفرقته إلى باماكو عاصمة مالي لاقوا ترحيبا كبيرا من قائدها موديبوكيتا الذي أبدى استعداده لتقديم أيّة مساعدة ممكنة وغير مشروطة[5].

---

[1])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 102.
[2])- المرجع نفسه، ص. 187.
[3])- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص. 187.
[4])- محمد شرقي: المرجع السابق، ص. 183.
[5])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 107.

وقد كتب عن ذلك فانون قائلا: "ها نحن في باماكو عاصمة مالي، إنّ موديبوكيتا الذي لم يتخل عن صفته كمناضل يفهم القضية بسرعة، فلا حاجة للخطب الطويلة، إنّ جلسات العمل تسير بسرعة..."[1]. توجّه فانون ورفاقه بعدها إلى طريق خطر وطويل إلى "جاو" ومنها إلى تمنراست حيث أجرى اتصالات مع الزعماء المحليين وجمع معلومات مهمّة عن الظروف المحلية هناك[2].

وعلى الرغم من طول الطريق ومعاناة السفر، فإن فانون كان شغوفا كعادته بالقراءة ولا يستطيع التوقف عنها حتى في أصعب الظروف، فقرأ بعض الكتب حول تاريخ السودان واطلع على تاريخ الإمبراطوريات القديمة في غانا ومالي وجاو[3] .

ولكن على الرغم من كلّ تلك الجهود التي استُنفذت في تطبيق ذلك المشروع فإنّه لم يتحقق، ذلك أن فانون سقط فريسة للمرض فخاب ذلك الأمل الذي كان سيجسده ويجسّد من خلاله الوحدة الإفريقيّة الفعلية[4]، فعاد إلى تونس منهك القوى ولم يستطع بعدها العودة إلى إفريقيا أبدا.

وبعد هذه التّجربة الإفريقيّة التي كانت فاصلا فعليا في حياته، بقي فانون على اتصال مع جبهة التحرير الوطني من خلال لقاءات هيئة تحرير المجاهد، غير أن الملاحظ أن فانون تراجعت طاقته في هذه الفترة، في تزويد صحيفة المجاهد بملاحظاته وانتقاداته العالية المستوى، واقتصرت على لقاءات هيئة التحرير[5].

المبحث الخامس: وفاته

[1])- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص. 190.
[2])- المكان نفسه.
[3])- المصدر نفسه: ص. 192.
[4]) - Alice Cherki: Op .Cit., pp. 214-218.
[5])- Benjamin Stora: Op. Cit.

عاد فانون إلى تونس في نهاية شهر كانون الأول–ديسمبر 1960، منهك القوى نحيل الجسم، فقرّر إجراء بعض التحاليل المخبرية الروتينية لمعرفة سبب ذلك التعب فاتصل بصديقة شارل زيرا(Charle Zerah) مختص في البيولوجيا، فأجرى له تلك التحاليل وعاد يوما آخر لاستلامها بنفسه، فوجد من خلالها أنه يملك 18000 كريّة بيضاء. لاسيما وأنه طبيب يعرف جيدا تكاثر هذه الكريات، ومن ثم فقد أدرك أنه سرطان الدم (leucémie) وفي هذه المرحلة كان هذا المرض سريع الإماتة، فلم يكن الأطباء قد تقدّموا في إيجاد دواء له بعد[1] .

ويؤكد أحد أصدقاء فانون[*] أن هذا المرض كان منتشرا جدا في المارتينيك في هذه الفترة[2] ويؤكد بنجامين ستورا، أن فانون من الممكن أن يكون قد اكتشف المرض في أكرا في ديسمبر 1960م، وعاد إلى تونس العاصمة ليتأكّد من الأمر.

ذاع هذا الخبر في الأوساط الجزائريّة بالطبع وتأثر الكل بهذا النبأ المريع سواءً من الأصدقاء أو الأعداء، والكل كان مستعدا لفعل أيّ شيء من أجل شفاءه ولكن فانون على الرغم ممّا عرفه عن مرضه من خطر إلاّ أنه لم يضعف. لقد كان يتعامل مع الموت وكأنّه سينتصر عليه، كان يعيشه ولكنّه يرفضه.

ولما تقدم به المرض أرسلته جبهة التحرير الجزائريّة إلى العلاج بموسكو في منتصف جانفي 1961م، فلقد تم اختيار الإتّحاد السوفياتي بالذات نظرا للاعتقاد الذي كان سائدا آنذاك، أنها رائدة في الطب الوقائي، كما كانت رائدة في اكتشاف الفضاء ولكن ذلك لم يكن صحيحا على الإطلاق، فذهابه إلى موسكو أو إلى أي بلد

---

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 225.

[*]– أحد اصدقاء فانون: موريس ديسبنوي (Maurice dispinoy) عمل مع فانون في مستشفى سان البان Sain Alban حوالي سنة 1951-1952.

[2])- Maurice Despinoy : Op. Cit. PP. 105-114.

آخر لم يكن ليغير بالأمر شيئا. فمرضه كان قاتلا في كل الأحوال. بعدما عاد من موسكو تحسنت حالته قليلا، وقيل له أنه سيعيش خمس سنوات أخرى[1].

في هذه الفترة طلب فانون الالتحاق بالجبل حتى يكون لموته معنى، فلقد فضّل النضال على أن يموت على سريره، ولكن طلبه ووجه بالرفض طبعا خوفا على صحته[2]

كان يريد النضال من أجل الجزائر حتى النهاية، وكان يقول: "الجزائر يجب أن لا تسقط أبدا"، وعلى الرغم من ظروفه الصحية المخيفة، عمل على إعطاء دروس وطنية لجيش التحرير الوطني بغارديماو على الحدود الجزائريّة التونسية [3] . الأمر الذي أثّر على صحته، فزادت تدهورا وأصبحت ظاهرة للعيان، ومع ذلك واصل نشاطه وبدأ في تأليف كتابه الجديد، ساعده في ذلك شابات فرنسيات، كان فانون يملي عليهن وهنّ يسجلن على الآلة الراقنة[4].

لقد كان هذا المُؤَلَّف تحليلا تاريخيا وسوسيولوجيا على مستوى العالم ترجم إلى سبعة عشر لغة[5] ، اختار له عنوان "معذّبوا الأرض". قال عنه سارتر: "إن العالم الثالث يكتشف نفسه ويتحدّث إلى نفسه من خلال هذا الصوت"[6].

التقى فانون مع سارتر في شهر آب-أوت 1961م في روما، وطلب منه التقديم لكتابه ووافق هذا الأخير على ذلك. كانت لديه كذلك مشاريع أخرى لكتب جديدة، كالكتابة حول مرض السرطان في الدم، وحول تاريخ جيش التحرير الوطني ولكن في خريف 1961م تدهورت حالته الصحيّة، وبدأ يعاني من النزيف، فاضطر

---

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., pp. 236-224.
[2])- Ibid, p. 225.
[3])- Benjamin Stora: Op.Cit., p. 5.
[4])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 217.
[5])- Joseph Mormet :" Sartre et Fanon", N°89, VST, 2006,p. 149.
[6])- عبد المجيد عميراني: المرجع السابق، ص. 158 .

أخيرا قبول الذّهاب للعلاج في واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، مع أنّه كان رافضا، لأنه كان يرى في الولايات المتحدة الأمريكية تجسيدا للاستعمار الجديد ورمزا آخر من رموز الاضطهاد لشعوب أمريكا اللاتينية وإفريقيا[1].

تكفّل محمد يزيد بدفع ثمن التذاكر ذهابا وإيابا، وأوصله إلى مطار العوينة بتونس مع بعض الأصدقاء، فقال لهم مودّعا: "إنكم محظوظون لأنكم ستحضرون استقلال الجزائر... أما أنا فلا". كما أوصاهم قبل ذهابه بدفنه في الأراضي الجزائريّة إذا مات [2] وكانت هذه أوّل مرّة اعترف فيها فانون بالموت، فقال: "الموت دائما معنا والمهم هو ليس معرفة كيف يتم تفاديها، ولكن يجب أن نعمل من أجل أفكارنا إلى أقصى درجة، ما يصدمني وأنا في هذا السرير وقواي تذهب ليس أن أموت، ولكن أن أموت في واشنطن وبسرطان الدم، على الرغم من أنه كان يمكن أن أموت قبل ذلك بثلاثة أشهر في مواجهة العدو، لأني كنت أعلم أنني مريض"[3].

ثم يضيف قائلا: "إننا لا شيء على هذه الأرض، إذا لم نكن أوّلا عبيدا من أجل قضية الشعوب، قضية العدالة والحرية، إنني أريد أن تعلموا أنّه في الوقت الذي فقد فيه الأطباء الأمل، كنت مازلت أفكر في الشّعب الجزائري، في شعوب العالم الثالث، فإذا تماسكت فبفضلهم"[4]. لقد قال: "إن إخوتي الجزائريين طلبوا مني الاعتناء بصحتي"[5].

في هذه الفترة حضرت زوجته وابنه أوليفي، الذي كان سنّه ستة سنوات لزيارته في المستشفى، كما زاره ممثل الجزائر في منظمة الأمم المتحدة، وبعض

---

[1]) – Ibid., p. 5.

[2])- بيار و كلودين شولي : المصدر السابق، ص. 57.

[3])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 236.

[4])-Ibid., pp 236-237.

[5])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 108.

المندوبين الأفارقة وأحد المسؤولين الأمريكيين[*] . وقبل وفاته بثلاثة أيام وصلته من دار النشر ماسبيرو نسخة من كتابه "معذّبوا الأرض"[1].

توفي يوم السادس من كانون الأول–ديسمبر 1961م، في ولاية "ماريلاند" بالقرب من واشنطن في عيادة تابعة للحكومة الأمريكية تسمى "المعهد الوطني للصحة ليبديستا "Bethesda" ونقل جثمانه بطائرة رسمية إلى مقر الحكومة المؤقتة بتونس في الحادي عشرة من الشهر ذاته، وقرأ كريم بلقاسم خطاب الوداع، ومما قال فيه: "مثلك سيبقى دائما حيا، نم في سلام، الجزائر لن تنساك أبدا"[2].

كان الجو مهيبا محتشدا بحضور غفير للناس ولأعضاء الحكومة الجزائريّة المؤقتة ولصحافة المجاهد[3]. ثم نقل جثمانه إلى غارديماو على الحدود الجزائريّة التونسية استقبل في ساحة المستشفى التابع لجيش التحرير، ثم نقل إلى مقبرة الشهداء الكائنة بعين الكرمة وألقى هذه المرّة خطاب التأبين، علي منجلي[*]، ذكر فيه بعض مناقب فانون وحياته النضالية، ومما قال فيه: " كان فانون مثالا حيا للإلتزام واحترام المبادئ في جميع الأوقات والمهام، التي أوكلت له"، وختم خطابه: "نعدك ببناء جزائر حرّة مستقلة ديمقراطية اجتماعية، تحترم فيها حقوق الإنسان"[4].

وفي حدود الساعة الرابعة ووري فانون التراب، وبذلك تحققت وصيته، عندما طلب من الرفاق أن يدفنوه إذا مات في أرض الثّورة. وهكذا أحبّ فانون الجزائر وسخّر كلّ طاقاته الفكرية والجسدية لخدمة قضيتها. وقد أحبّته الجزائر ومنحته

---

[*]– أحد المسؤولين الأمريكيين هو: روبارتوهولدن.

[1])- Alice Cherki :Op,Cit, p..238.

[2])- Ibid., pp. 136-139.

[3])- المجاهد: العدد 88، الصادر في 21 ديسمبر 1961م.

[*]– علي منجلي: عقيد في جيش التحرير الوطني .

[4]) - Alice Cherki: Op .Cit., p. 241

اسمها، وحققت أمله في الحرية والاستقلال وهزيمة المستعمر(بكسر الميم)، الذي طالما ناضل لكسر شوكته في كل مكان من العالم[1].

أما زوجته ماري فقد توفيت بعده بتسع وعشرين(29) سنة يوم الثالث من تموز–جويلية 1990م، بالجزائر العاصمة عن عمر يناهز الستين عاما.ولقد كتب عنه الكثيرين مودّعين له من بينهم سيزار الذي كتب عنه مقالا في صحيفة " Jeune Afrique " كما خصصت له مجلة الحضور الإفريقي عددا خاصا به سنة 1962م[2].

وقد قالت عنه سيمون دي بوفوار، التي التقته سنة 1961م: " من أجل مستقبل الجزائر وإفريقيا تمنينا لو أن المرض يمنح له وقت طويل، لأنه كان رجلا استثنائيا عندما تقترب منه تبدو لك الحياة مغامرّة تراجيدية في أغلبها رهيبة، ولكن بثمن غير مقدّر"[3]. وقال عنه مارسيل مانفيل: " يعتبر فانون مثقفا من بين خمسين شخصية الموجهة لفكر القرن العشرين"[4].

كما كُتبت رسائل وأطاريح في فرنسا وفي الشرق الأوسط، وكتب عنه أصدقاؤه الجزائريون كتابات ضافية، أشادوا فيها بمواقفه وأفكاره الثورية التي بثّها في كل إفريقيا والعالم، وخاصّة الأستاذ محمد الميلي، إذ كتب عنه كتاب بعنوان "فانون والثّورة الجزائريّة"، وترجم له كتابه "من أجل إفريقيا". وتحدّث عنه رئيس الجمهورية الجزائريّة السيد عبد العزيز بوتفليقة في مناسبات عديدة، وأشاد بإخلاصه وحبّه للجزائر. ونظمت حول حياته وأفكاره ملتقيات وندوات في مختلف أرجاء العالم. وشكّلت النوادي حوله في جميع أنحاء المعمورة، في الأنتيل، الجزائر، إيران إفريقيا

[1])- عبد الكريم حساني : المرجع السابق ، ص ص 97-98.
[2])- Alice Cherki : Op .Cit., p242.
[3])- Simone de Beauvoir : La force des choses, , Gallimard, paris, 1965, p. 624.
[4])-Marcel manville : Op. Cit., pp.16-17.

الجنوبية، والكثير من الجامعات الأمريكية تدرس كتاباته. وأصحاب السيناريوهات الأنجلو ساكسونيين أخرجوا عنه أفلاما وكتب الكثير من الفلاسفة سيرته[1].

وأقيم مركز وصدرت صحيفة باسمه في إيطاليا. وفي فرنسا لقيت كتاباته انتشارا واسعا، نستطيع أن نتبين أثرها في مجلّة الحضور الإفريقي. وفي بريطانيا صدرت أربعة مجلّدات لمؤلفاته، وتشكلت في اكسفورد حلقة لدراسة أعماله[2].وفي الجزائر أطلق اسمه على عدد من المؤسسات والشوارع والساحات العمومية تكريما له، إنّه ذلك الرجل المارتينيكي الأنتيلي الفرنسي الجزائري الإفريقي، الذي عشق الجزائر وإفريقيا. ومات من أجلها ثائرا ومنظرا، بل ومجاهدا مع جيش التحرير.

نقد واستنتاج:

نستخلص من هذا الفصل إذن أن فرانتز فانون كان احتكاكه بإفريقيا جنوب الصحراء من خلال القضية الجزائرية في العديد من المؤتمرات هناك، ومن ثم زاد تعمقه بقضايا القارّة بمختلف أشكالها وبكل تعقيداتها، وتعرّف على معظم القادة الأفارقة ككوامي ونكروما فليكس موميي، باتريس لومبا، روبارتو هولدن.

وشهد محاولات هؤلاء الزعماء في لم شمل القارّة من خلال التحالفات المختلفة للوصول إلى وحدة إفريقية شاملة، ولكنّه في نفس الوقت أدرك أن القارّة تتخبط في مشاكل كثيرة وأن استقلالها السياسي غير كاف لتحقيق تحريرها من قيود الاستعمار الإمبريالي.

---

[1])- Alice Cherki : Op. Cit., p. 9.

[2])- جاك ووديس: المرجع السابق، ص. 125.

هذا الأخير الذي ظهر بأوجه وأشكال جديدة ومتعدّدة، خاصّة ممّا رآه في القادة الأفارقة الجدد من جري وراء مصالحهم الشخصية، بل وتواطؤ بعضهم مع المستعمر (بكسر الميم) كهفويت بوانييه قائد ساحل العاج مثلا. كما شاهد فانون عن كثب ما يحصل في البلدان الإفريقيّة من بروز للبرجوازية وسيطرة الحزب الواحد وحياكة الدسائس والمؤامرات بتواطؤ مع أطراف خارجية، وقد أدّى بعضها إلى تصفية بعض القادة الأفارقة، كباتريس بلوممبا وفليكس موميي.

ونظرا لكلّ هذه الأوضاع المعقدة وغيرها في القارّة حاول فانون تقديم بعض الاقتراحات لعلّ أهمها ضرورة عدم عزل الكفاح الإفريقي عن الكفاح الوطني في أي بلد إفريقي، ومن ثم البحث عن وحدة إفريقية فعلية، والتي حاول هو بنفسه تجسيدها من خلال محاولة إنشاء جبهة جنوبية لدعم الثورة الجزائرية، لأنّه كان مؤمنا تماما أنّ هذه الأخيرة هي السبب الرئيس الذي عجّل وتيرة الحركات التحريرية في القارّة الإفريقيّة قاطبة.

ولكن مشروع فانون ذلك لم يكتب له النّجاح خاصّة بعد إصابته بمرض سرطان الدم الذي توفي على إثره في السادس من كانون ألأول–ديسمبر 1961م عن عمر يناهز السادسة والثلاثين عاماً.

الفصل الرابع: تنظيرات فرانتز فانون في بعض القضايا الحاسمة

المبحث الأول: الاستعمار

المبحث الثاني: العنف

المبحث الثالث: العنصرية

المبحث الرابع: المرأة

الفصل الرابع: تنظيرات فرانتز فانون في بعض القضايا الحاسمة

بعد ما درست في الفصل الثالث مختلف التحولات التي حدثت في القارة الإفريقية، وتتبعت نشاطات فانون في هذه القارة وأفكاره حول الكثير من الموضوعات الهامة، وصولا إلى وفاته في سنة 1961م.

سأعالج في هذا الفصل إنتاج فانون الفكري والسياسي والأدبي، ذلك أن مسيرته كانت حافلة بالعطاءات الفكرية والأدبية والسياسية، على الرغم من قصر مدتها، جلب أنظار واهتمام الرفاق والأصدقاء والمختصين في مختلف المجالات على حد سواء، ولكن الشيء الذي لا سبيل إلى نكرانه هو أن أعمال فانون لا يمكن أن يلم بها إلماما تاما أي باحث أو دارس متفرد لأنها ذات أبعاد واختصاصات عميقة متنوعة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن أعماله الفكرية كلها تستحق إعادة القراءة على ضوء التطورات الجديدة في الثقافة والسياسة والمجتمع لأنها ثقافة جديدة ومتجددة على الدوام، على الرغم من ظهورها في فترة زمنية محددة، خاصة وأنه كتب حول الكثير من الموضوعات(الاستعمار، العنف،العنصرية المرأة).

المبحث الأول: الاستعمار

لقد درس فانون ظاهرة الاستعمار دراسة عميقة خاصّة وأنّه شاهد تأثيراتها المباشرة على الإنسان والبيئة الاجتماعية والجغرافية منذ أن كان شابا يافعا حينما انخرط في الجيش الفرنسي، ثم من خلال انخراطه في صفوف جيش التحرير

الوطني، لما كان طبيبا في مستشفى البليدة، وكانت هذه الأخيرة معقلا من معاقل الثورة الجزائرية، التي كانت تعيش أوج تطوّراتها. ثم من خلال تنقلاته في القارّة الإفريقيّة وما شهده من تحركات للتخلص من الاستعمار الأجنبي[1]، ولا شك أن قارئ كتب فانون عامة وكتابه "معذّبوا الأرض" خاصة. يدرك أنه يكن حقداً كبيراً للاستعمار، ممّا جعله يتميز عن غيره من الكتاب بتنظيرات خاصّة حول الظاهرة الاستعمارية .

وتعني كلمة الاستعمار لغة عمّر، ومن الناحية اللغوية عموما هذه فان هذه الكلمة لم توجد في كتاباتنا العربية، ولكن مدلولاتها مشتقة فقط من كلمة استعمار في القرآن الكريم، مما يعني أن هذه الكلمة عرّبت حديثا من كلمة "Colonisation ".

أما اصطلاحا، فقد وردت تعاريف كثيرة، وضعت لتحديد مفهوم هذه الظاهرة فهناك من يرى أنها فتح، وهناك من يقول أنها غزو، وهناك من يعتقد أنها قهرا وإخضاعا من دولة قوية لدولة أضعف منها بقصد احتلالها مباشرة، واستغلال مواردها وثرواتها. وهناك رأي آخر يقول أن هذه الكلمة تعني إرغام دولة ضعيفة على الانضمام إلى دولة قوية لتحقيق مصالحها الذاتية.

وهناك من يعرّفها على أنها التجاء دولة قوية لاستخدام قوّتها العسكرية في تجريد شعب من الشعوب من مصادر ثروته، وإحلال بعض رعايا الدولة القوية محل رعايا الدولة الضعيفة بهدف ضمان السيطرة[2]. وكل هذه التعاريف هي محاولة لإيجاد معنى حقيقي لهذا المصطلح، وعلى العموم فان هذه الكلمة لها مدلولات متعددّة ومختلفة.

---

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص ص 53-54.

[2])- جاك ووديس: المرجع السابق، ص6.

وقد تجسدّت هذه الظاهرة خاصّة بعد الثورة الصناعية التي عجلّت باستفحالها وتكرّست أكثر في إفريقيا بعد مؤتمر برلين (1884–1885م)،وبعد الحرب الكونية الثانية، اضطرت الإمبراطوريات الاستعمارية إلى استخدام الأسلوب غير المباشر مع مستعمراتها، ثم ظهرت أمريكا وريثة للدول الاستعمارية[1].

وقد قال السيد عبد العزيز بوتفليقة(الرئيس الحالي للجمهورية الجزائرية) عن هذه الظاهرة: "... جميع شعوب الكرة الأرضية قد أصدرت حكما على المستعمر (بكسر الميم)، وهو حكم جامع متفق عليه، حكم ينص على ضرورة القطيعة معه دون تلّمس أي عذر له"[2].

أما سيزر أكبر مناهض للاستعمار[3]، فلقد ألقى سنة 1953م خطابا حول هذه الظاهرة أشارفيه إلى أن الاستعمار عنده هو الاستدمار[*]، ويقول أن هذه الكلمة عنده تساوي قبر المَدَنية، وأنّها ليست أبدا مشروعا إنسانيا، وأنّ الاستدمار يدّعي الحضارة ولكنّه يبني رفاتها على أنقاض القتل وتدمير حضارات الشعوب المقهورة والقضاء عليها، وكبت غرائزها. وكل تلك الممارسات البربرية سكتت أوربا عنها، وغضت النظر لأنها لا تمارس على الأوربيين.

ومما قال سيزر في خطابه أيضا: أن أوروبا هذه الدول التي تدعّي الحضارة في الحقيقة هي عاجزة عن التغلّب على مشكلين أساسيين لا يمكن غض النظر عن وجودهما، إنّهما مشكلتا الاستدمار والبروليتاريا ويرى أن الدولة الاستعمارية في هذه الحالة متهمة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تبرئتها من ذلك معنويّا وأخلاقيّا.لأنها

---

[1])- عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي: التاريخ المعاصر أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت: بدون تاريخ، ص 217.

[2])- إيمي سيزر: خطاب حول الاستدمار، ترجمة ميشال سطوف، منشورات ANEP، الجزائر:2007، ص ص 6-12.

[3])- أحمد لخضر بن سعيد:" وداعا أيمي سيزر الرّمز(أحد أعظم مناهضي الاستعمار والعنصرية في القرن العشرين) "، الخبر الأسبوعي، العدد 515 ، الصادر من 7 إلى 13 جانفي 2009، ص 19 .

[*]– اشتهر عندنا في الجزائر بهذا المصطلح الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم في مؤلفاته وفي محاضراته ولقاءاته المختلفة.

سبّبت الكثير من الاضطهاد والظلم والمعانات لشعوب إفريقيا السوداء، وجزر الأنتيل والهند الصينية...الخ[1].

ويدللّ على ذلك بقوله:" أن الفيتناميين كانوا يملكون ثقافة أصيلة متجذرة قبل أن يدخلهم الاستدمار، وأنهم كانوا فنانين وشعراء وإداريين". ولكن مانوني يعارضه في ذلك ويصرّح أن المستعمر الأبيض ليس هو المسؤول في نهاية الأمر بل أبناء المستعمرات[2].

أما ألبير مامي، فهو يشير كذلك إلى الاستعمار بمصطلح الاستدمارويقول: أنه مجرد مغتصب يدرك حقيقته، كما يدركها تماما أبناء المستعمرات، وأنه لم يعد هناك من يؤمن بالرسالة الثقافية والأدبية التي كان يدّعي المستدمر حملها على عاتقه[3].

وحتى كارل ماركس(1818–1883م) في أواخر أيامه أنصف الشعوب المضطهدة، وأشار في كتابه "كوفالفيسكي عن أشكال الملكية الجماعية للأرض" أن المستعمرين(بكسر الميم) لم يعودوا عنده هم جالبو الحضارة والتقدم ،بل هم ليسوا إلاّ لصوصا وأبناء آوبا محتكرين ناهبين[4] .

أمّا مترجمنا فقد اقتصر وصفه للاستعمار في شهر كانون الأول–ديسمبر سنة 1957،على أنه: "غزو منطقة وظلم شعب ما هذا كلّ ما في الأمر"[5].ولكنه فيما بعد أدرك أنّ النظام الاستعماري هو نظام أساسه العنف يستخدمه لتحقيق

---

[1])- إيمي سيزر: المرجع السابق، ص ص 6-12.
[2])- المرجع نفسه: ص ص 32-42.
[3])- ألبير مامي: صورة المستعمر، ترجمة ميشال سطوف، منشورات ANEP، الجزائر: 2007، ص 7.
[4])– قاليسو رنيه وباديا جلبير. الماركسية والجزائر، ترجمة جورج الطرابيشى، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت،1978 .ص8

[5])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص86.

مصالح سياسية واقتصاديةويؤكّد ذلك بالحديث عن علاقة الإفريقي بالمستوطن التي قامت على "حشد كبير من الحراب والبنادق"[1].

ولكن فانون في الأساس لم ينشغل في البحث والتقصي عن جذور الاستعمار السياسي أو الاقتصادي، وإنما نظر إلى هذه الظاهرة كحالة "Position " أو ربما "كموقف" مجرّد من كل أشكال الإنسانية ومتمحور أساسا حول الذات الأوربية، ونفي الآخر[2]. وهو الرأي الذي يؤيده فيه أستاذه سيزر. إذ ينظر الى المستعمر(بفتح الميم) كشيىء[*] ليس له أية قيمة إنسانية. وليس هناك أي شكل من أشكال التفاعل الإنساني بين المستدمر وأبناء المستعمرات، لا توجد إلاّ الضغوط والإهانة والاستغلال وتحويل ابن المستعمرة (بفتح الميم) إلى شيء لخدمة مصالحه[3] .

إن فانون الذي كان يشبّه الاستعمار بالهتلرية[4] قد أدرك جيّدا ماهية الاستعمار، وربما يعود ذلك أساسا إلى تطوره المنهجي في الدراسات النفسية والميدانية داخل المستعمرات الإفريقيّة ذاتها انطلاقا من الجزائر. كما أنه أدرك أيضا معنى الاستعمار الجديد وأساليبه. وتحدّث عن الاستعمار الاستيطاني الذي يمارس التفرقة العنصرية بشكل صارخ والذي عايشه عن كثب خاصة أثناء وجوده في الجزائر[*] [5].

---

[1])- فرانتز فانون: معذبو الأرض، المصدر السابق، ص30.

[2])- حيدر صفوان ." لأجل الثورة الإفريقية، زمن الأحلام المثالية بتوحيد المستعمرين في العالم" ، مقال على الموقع http://www.maaber.org/issue_february07/books_andreadings2.htm تاريخ الاطلاع في 2009/02/02

[*])– الشيء: أي جعل الإنسان مجرد شيء من الأشياء.

[3])- إيمي سيزر: المرجع السابق، ص ص 6-15.

[4])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص73.

[*])- ويذكر الدكتور بوصفصاف عبد الكريم في كتابه: حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس وأبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسية 1849-1940م، أن عملية الاستيطان في الجزائر منذ سنة 1830 إلى غاية 1947م، وكان الجنرال بيجو Bugeaud يشجعها، ويقول: "إن الدولة إذا رغبت في إقامة حكم ثابت في إقليم خارجي يجب ألا تكتفي بإخضاعه عسكريا وسياسيا فقط، بل لابد من نشر عنصرها فيه"، ص101.

[5])- محمد شرقي: المرجع السابق، ص186.

ولقد تحدث فانون عن العلاقة بين المستعمر (بفتح الميم) والمستعمر (بكسر الميم) وعبّر عنها بدّقة وقوّة، فقال: " إن مدينة المستوطن مدينة راسخة، بنيت كلّها بالحجر والصلب... غطيت شوارعها بالاسمنت... وقدم المستوطن لا تكاد ترى...إلا عند شاطئ البحر ... إنّ قدميه يحميهما حذاء متين، على الرغم من أن شوارع مدينته نظيفة مستوية، ليس بها حفر أو أحجار، إن مدينة المستوطن مدينة حسنة التغذية مدينة ميسورة، معدتها مليئة بالخيرات، إنّ مدينة المستوطن مدينة للبيض".

ثم يورد فانون النموذج المقابل لمدينة الرجل الأبيض، وهي مدينة المستعمر(بفتح الميم)، فيصفها قائلا: " أما مدينة الشعب المستعمر (المعزل) فهي مكان سيء السمعة، يقطنه أناس سيئو السمعة لقد ولدوا هناك، ولا يهم كثيرا أين أو كيف، وهم يموتون هناك ولا يهم أين أو كيف، ... والناس يعيشون هناك فوق بعضهم البعض، وأكواخهم يبنى أحدها فوق الآخر، ومدينة الوطنيين مدينة جائعة تتضوّر بلا خبز أو لحم أو أحذية أو فحم أو ضوء، إنّ مدينة الوطنيين قرية جاثية مدينة تركع على ركبتيها قرية تتمرّغ في الوحل"[1].

ومن خلال هاتين الصورتين المتناقضتين يستخلص الباحث مدى عمق فكر فانون حول الاستعمار، والدقة اللامتناهية في وصف الفروق الخفية و الماثلة للعيان بين مدينتي المستعمر(بكسر الميم) والمستعمر(بفتح الميم)، فلم يكتف فانون بوصف همجية الاستعمار وتعامله المتوحش مع الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) في إفريقيا وآسيا، وأمريكا اللاتينية، وإنما راح يغوص في تلك الفروق الصارخة بين حياتين متناقضتين ومتعارضتين، وهما حياة الرجل الأبيض الغازي المحتل، والإنسان الإفريقي أو الآسيوي أو حتى الأمريكي، الذي كان عرضة للاستغلال والقهر والحرمان.

[1])- فرانتز فانون: معذبو الأرض: المصدر السابق، ص5.

لم يترك فانون موضوعا من موضوعات العلاقة بين الرجل الأوروبي الأبيض والرجل الإفريقي الأسود، دون إخضاعها للدراسة والتحليل والنقد والمقارنة مما يجعل الباحث مهما كانت جنسيته بل وهويته أن يعتبره المفكرّ المتميز في مجال الاستعمار والاستيطان. ولكننا نتساءل عما يقصده فانون في الفقرة الأخيرة من جملة "مدينة تركع على ركبتيها"، هل كان هنا يقصد أنّها مستسلمة لقدرها قابلة للاستعمار؟ وهو إذا قصد ذلك فإنه يتفق مع نظرية المفكر الجزائري مالك بن نبي "قابلية الاستعمار" الذي يقول: "إن الاستعمار ينتهي حين تنتهي القابلية له"، ويعتبر أن الشعوب الإفريقيّة والآسيويّة لم تبدأ سيرورتها التاريخيّة مع الاستعمار، وإنما مع بداية القابلية له[1].

ولكن لا شك أن شخصية فانون الثائرة المناهضة للاستعمار والاضطهاد طيلة حياته لا يمكن أبدا أن تتفق مع هذا الطرح، وربما يعني بتلك العبارة ما وصلت إليه المدينة المستعمرة (بفتح الميم) من التسلط والقهر والحرمان حتى تصير غير قادرة على رفع رأسها تجاه المستعمر (بكسر الميم) ومواجهته. لأنه سلبها كل مقومات الحياة وغذّى بها قرية تلك الجماعات البشرية التي تفد على المستعمرة من أصقاع أوربا كلّها، وهي جماعات غير مرغوب في بقاءها بوطنها الأصلي، ومما قاله فانون في تشويه المدينة الأهلية من قبل المحتل الأجنبي: "إنه يحطم كل ما يقربه، وهو عنصر مخرب شوّه كل ما له صلة بالجمال والأخلاق، إنّه مستودع قوى شيطانية إنه أداة لقوى عمياء لا وعي لها ولا سبيل لإصلاحها"[2].

والحق أن فانون يؤكد دائما على أن الاستعمار عملا من أعمال العنف الشامل ولا يواجهه إلاّ العنف الثوري والعنف العفوي عنف الانعتاق والتحرر.

---

[1])- مالك بن نبي: مشكلات الحضارة فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر باندونغ)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة، القاهرة، بدون تاريخ، ص5.

[2])- محمد شرقي: المرجع السابق، ص186.

ولقد شكّل مؤتمر أكرا 1958م عاصفة حقيقية على الحلول السلمية ضد المحتل. كانت الدعوة فيه خالصة للعنف الثوري كحل وحيد للتخلص من ربقة الاستعمار[1]، هذا الأخير الذي أصدرت هيئة الأمم المتحدة في 14 كانون الأول– ديسمبر 1960 قرارا بتصفيته في جميع أرجاء العالم، بجميع صوره ومظاهره. ومن ثم الإقرار على مبدأ منح شعوب العالم غير المستقلة حق تقرير مصيرها بنفسها[2] وكان هذا القرار إذن تدعيما لكل كتابات فانون حول هذه الظاهرة، والتي كانت في مجملها دعوة إلى ضرورة التخلص منها بجميع أشكالها.

وكتب أيضا فانون عن الاستعمار وما يتركه من آثار نفسية واستلاب "Aliénation " للشخص عن ذاته البشرية[3] وفجّر أفكارا جديدة حول المريض المستعمر(بفتح الميم) والطبيب المستعمر(بكسر الميم)، وفي مقال "أعراض الشمال الإفريقي" "syndrome nord africain "، والذي نشر كما سبق القول لأوّل مرّة في مجلّة "إسبري" "esprit "سنة 1952م، كان دراسة سريرية عن تشييء المريض واعتباره مجرّد مرض من قبل المستعمر(بكسر الميم)[4] . وقد كتب فانون عدّة مقالات حول الاستعمار، لعل أهمها مقال "ثقافة وعنصرية" شارك به في أول مؤتمر للكتاب والفنانين السود، الذي انعقد في باريس في شهر أيلول–سبتمبر 1956م كما سبقت الإشارة.

وقد تحدث فانون في هذا المقال عن الاستعمار الغربي الذي ينفي ثقافة مجموعات من الناس (شعوب المستَعمرات)، وأكّد على أنّ نزع "الوجود الثقافي" إنما هو جزء من عملية الاستعباد الاقتصادي والبيولوجي، ومن خلال ذلك تنشأ العنصرية

---

[1])- أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 163.

[2])- عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج1، ط4، الؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،لبنان، 1999.ا

[3])- ميشال مان: موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهوّراي وسعد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، مصر،1990، ص48.

[4])- Alice Cherki, op. cit, p24.

وهذه الخصوصية الثقافية عند جنس دون آخر، كما يقول فانون: هي التي تؤدي إلى العنف والعنصرية عنده، وبالتالي فهو منظم لتمييز ثقافة المقهور، وأن الثقافة الاستعمارية قد لا تعني بالضرورة نفي الثقافة المقهورة، ولكن تعني تجميدها أو تحنيطها، ومن ثم تجميد اختبارات الناس.

وكان هذا المقال هو أوّل مقال تحدّث فيه باستفاضة عن الاستعمار من وجهة نظر الطب النفسي أوّلا، وعلاوة على ذلك فقد كتب فانون عن الاستعمار مقالا بعنوان "أحلام الاستعمار الفرنسي أمام حرب الجزائر" نشر في العدد العاشر في جريدة المجاهد الصادر في شهر أيلول–سبتمبر 1957م، ومقال آخر عنوانه "بين الاستقلال وزوال الاستعمار"، نشر في جريدة المجاهد أيضا في العدد الثاني والعشرين الصادر في 16 نيسان–أفريل 1958م، ومقال ثالث بعنوان: "حقائق أولية تتعلق بالشكل الاستعماري "، نشر كذلك في المجاهد في العدد السابع والعشرين الصادر بتاريخ 22 تموز–جويلية 1958م، وكلّ هته المقالات تحدثّت عن الاستعمار وأساليبه وتأثيراته على الشعوب[1].

إنّ هذا الاستعمار هو نفسه الذي ولّد البرجوازية المتعسفة التي لا تعدّ سوى شكلا من أشكال الهتلرية الظالمة، وكل برجوازي هو هتلر في أعماقه كما يرى فانون، والحقيقة أن النّظام الرأسمالي الذي يعمل على البقاء الدائم، هو من يمارس تلك الأعمال الهتلرية ولكن ضد شعوب يرى أنها أقل منه وأضعف منه، شعوب وأعراق بعيدة عنه خلقت لتكون في خدمته[2] ويشجب فانون بل ويحتقر مضطهدي الإنسانية، مسببي الآلام، ويرى أن هناك نماذج كثيرة تتلذذ بالقتل وسفك الدماء وربما عرف فانون بعضها عن قرب من خلال الثورة التحريرية الجزائرية أمثال:

---

[1])- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص ص 41-122.
2)- ماتيو آن: المرجع السابق.

الكولونيل دومونتانيه "demintagne "، وهو أحد السفاحين في الجزائر، كان يقول: " كي أطرد بعض الأفكار التي تقيدني أحيانا فإنني أقوم بقطع رؤوس... الرجال".

والكونت هرسيون "herison "، الذي اعترف قائلا: "صحيح أننا نجمع برميلا عامرا بالآذان المحصودة، أزواجا أزواجا من السجناء، أصدقاء وأعداء".

والمارشيل بيجو "Bugeaud "، الذي قال: " يتوجب علينا القيام بغزوة كبيرة لإفريقيا..."[1].

نعم لقد لاحظ فانون بعض أولئك المجرمين في حق الإنسانية وهم يذبحون الآلاف من الأبرياء في الجزائر، وشهد كيف كان يتعامل المستوطنون مع الجزائريين بازدراء ورغبة جامحة في الظلم والسيطرة[2]، وبالتالي زادت معرفته بالنظام الاستعماري، واكتشف حقيقته عن قرب ومن ثم حاول البحث عن الحل الأمثل لمواجهته، ولم يجده إلاّ في الثورة[3] .

ولقد منح فانون الثقافة أهمية كبيرة من أجل تكوين الإجماع الوطني الداخلي في مواجهة الاستعمار، بل اعتبر أن الكفاح المسلح العادل يصبح أداة ومقدمة للتجديد الثقافي[4] . خاصة مع محاولات الاستعمار المتواصلة في بث الشقاق والتفرقة من الداخل. وإيمان فانون هذا لم يأت من فراغ، وإنما ينطلق من دور المثقّف وممارساته في المجتمع، ففانون يرى أنّ الأشخاص العاديين يعيشون حياتهم اليومية ببساطة وروتينية، غير آبهين بثقافة المستعمر(بكسر الميم)، ولا متأثرين بها ولا منجذبين إليها، على خلاف الطبقة المثقفة (الأنتلجنسيا)، فهي الأكثر عرضة

[1]- إيمي سيزر: المرجع السابق، ص 18.
[2]- دافيد كوت: المرجع السابق، ص75.
[3]- فلاديمير ماكسيمنكو: المرجع السابق، ص 147.
[4]- المكان نفسه.

للتأثر بالمستعمر (بكسر الميم). ذلك أن هذا الأخير يعمد إلى ضرب الثقافة الوطنية من خلال هذه الطبقة التي تتأثر بخطاباته وتروّج لها، وبالتالي يكتسب ذلك المستعمر (بكسر الميم) شرعية من خلال دعم من الأنتلجنسيا [1].

ويؤكّد فانون على هذا الطرح في كتابه "بشرة سوداء أقنعة بيضاء" إذ يتحدث عن الاغتراب (الاستلاب) الذي يهيمن على فئة المثقفين، ويرجع ذلك إلى عُقد سيكولوجيّة متعدّدة، إذ يزيد تعلق هذه الفئة بالثقافة الأوروبية، وعلى العكس يزيد إحساسهم بالغربة والدونيّة تجاه ثقافتهم المحليّة[2] .

ويحاولون التشبه بالآخر في جميع النواحي(أسلوب، اللّغة، ترتيب البيت اللباس، أنماط السلوك...الخ)، ويعطي فانون نموذجا حقيقيا عن هذه الحالة من خلال أبناء وطنه في المارتينيك، عندما يتأثرون بالمتروبول، إذ يقول:" الأسود الذي يعرف المتروبول هو نصف إلاه... وأنه إذا عاش بعض الوقت في فرنسا، يعود منها وهو متحوّل جذريا..."[3].

ويوضّح لنا فرانتز فانون مسألة اللّغة كعنصر أساس من مقومات الانتماء التي يحاول المستعمر القضاء عليها، وكيف أن البرجوازية في الأنتيل لا تتكلم الكريول (اللهجة المحلية في المارتينيك) إلا مع الخدم، بل حتى الأمهات يتّهمن أولادهنّ بأنّهم أبناء شوارع، إذا سمعوهنّ يتحدثون بها، ويقول فانون كذلك: " في أي مجموعة شبّان أنتليين من يحسن التعبير بالفرنسية ويمتلك ناصية اللّغة يخشونه للغاية، يجب الحذر منه، فهو شبه أبيض..."[4].

---

[1])- سلمان عبد العظيم صالح ." خمسون عاما على رحيل فرانز فانون" ، مقال على الموقع http://www.diwanalarab.com/spip.php?890 auteur. تاريخ الاطلاع في 2009/03/03

[2])- فلاديمير ماكسيمنكو: المرجع السابق، ص 74.

[3])- فرانتز فانون: بشرة سوداء، أقنعة بيضاء، المصدر السابق، ص 23.

[4])- المكان نفسه.

أمّا في الجزائر فلقد أدرك فانون المحاولات التي قام بها الاستعمار الفرنسي في القضاء على الهويّة الوطنيّة، ولكن محاولاته باءت بالفشل، وبقي الكيان الجزائري حيا في نفوس الجزائريين، يقول فانون في ذلك: " الشعب الجزائري لم ينس ماضيه... واستطاع أن يلوذ بقيمه الوطنية كما يلوذ بقلعة حصينة"[1] .

ولقد ترك فانون وصية سياسية أخلاقية قال فيها: "يجب أن نضع جلدا جديدا تطوير فكر جديد محاولة وضع إنسان جديد على الأرض، حتى تتوقف وإلى الأبد عبودية الإنسان من طرف الإنسان"[2]. هكذا إذن كان فرانتز فانون المارتينيكي المولد الجزائري الانتماء معاديا للاستعمار حتى آخر يوم في حياته، عبّر عنه بفكر نيّر وأسلوب أدبي ممتاز وبليغ وفضح جرائمه ومخلّفاته، ووصفه بالنظام العنيف الذي لا يمكن القضاء عليه والتخلص من قمعه ومحاولاته في قبر الثقافة المحلية، إلاّ بالعنف الذي يرى فيه فانون الحل الوحيد والخيار الأمثل للقضاء على الممارسات العنيفة والوحشية للاستعمار.

المبحث الثاني: العنف

إن العنف كمفهوم ليس موجودا، ولكنه كممارسة هو قديم قدم الإنسانية ولكن الحديث عنه بدأ في القرن التاسع عشر، وأوّل من تحدث عنه ونظّر له هو جورج سوريل في كتابه "تأملات حول العنف"، ولكن قبل ذلك لم يكن ينظر للعنف في ذاته ولذاته، بل كان ينظر إليه كنتيجة فقط، ولقد تناوله المنظرون من أوجه متعددّة، منها:

[1])- محمد الميلي: المصدر السابق، ص 148.

[2])- Marcel Monville : Op. Cit., pp 16-17.

أولا/ الوجه النفساني: أي من حيث أنّ العنف يمثّل الخروج عن الحالة الطبيعية والوصول إلى اللا معقول.

ثانيا/ الوجه السياسي: من حيث أن العنف هو استخدام القوّة بهدف الإستلاء على السلطة أو الوصول إلى أهداف غير مشروعة، وإن كانت هنا الشرعية وغير الشرعية غير محددّة[1] .

لقد كان العنف محلّ خلاف بين المنظّرين، فمعجم لالاند الفلسفي مثلا، يعرّفه على أنّه الاستخدام غير المشروع أو على الأقل غير الشرعي للقوّة.

وجون جاك روسو يرى أنّ العنف الشرعي هو عنف الدولة التي تكتسب شرعيتها ومشروعيتها منه "العقد الاجتماعي" الذي يقيمه المواطنون فيما بينهم، إذ يتنازلون بموجبه عن حق استخدام العنف ضد بعضهم البعض، والعنف في مجمله ممارسة ملازمة للطبيعة صعب إلغاؤه، ولكن يمكن السيطرة عليه[2] .

أمّا مترجمنا، فإنّه عبّر بقناعة خالصة عن إيمانه أن العنف هو الخيار الوحيد الذي يجب أن تسلكه الشعوب المقهورة والمغلوب على أمرها للتحرر من ربقة الاستعمار، وأنّ إرادة الكفاح والتحرّر تستوجب سلوك أسلوب أنجع بعيدا عن الخطاب الأجوف. لقد اعتبر فانون ممارسة العنف ضد المستعمر (بكسر الميم) وممارساته الوحشيّة تطهيرا نفسيّا ينهي حالة الإحساس بالخوف والدونيّة، ويحقق بلا شك المعادلة الإنسانيّة في حياة المقهورين والمظلومين، وتحقيق قدر من الثقة بالذات والإيمان بها[3] .

---

[1])- عبد الوهاب الكيالي وآخرون: موسوعة السياسة، ج4،ط4، بيروت، لبنان، 1999، ص ص 255-256.
[2])- المرجع نفسه، ص256.
[3])- فرانتز فانون: سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق، ص8.

ولعل ماركس يوافقه في هذا الرأي، فلقد عرّف العنف في فترة الستينات والسبعينات من القرن الماضي على أنه: "القابلة التي يصنع التاريخ مواليده على يديها"، وهذه إشارة واضحة من ماركس على دعمه للعنف في هذه الفترة، ويدعّمه ماوتسي تونغ في ذلك حينما يرى أن الامبريالية[*] التي شهدت الصراع الطبقي أكدّت على أن الطبقة العاملة الشغّيلة لا يمكنها أن تقهر البرجوازية والملاّكين العقاريين، إلاّ باستخدام قوّة السّلاح، إذ يقول: " إذا كنت تريد ألاّ تظل هناك بنادق فَتَنَكَبْ بندقيتك"[1].

إنّ حدة فانون الرجل المعادي للاستعمار بلغت أقصاها، إلى درجة أنّه لم يجد إلا العنف كأسلوب للتعامل معه، فهو يقول مثلا: "العنف هو الباب الوحيد الذي يستدرك منه المستعمر(بفتح الميم)، إنسانيته المفقودة المهانة، المذلّة، وما إن يقف الرجل المستعمر (بفتح الميم)، موقف العنف من رجل الاحتلال ويهّب مزمجرا في وجهه حتى يدرك أنّه يفوقه إنسانية"[2] .

ويقصد فانون هنا العنف الجماعي المنظم، لا العنف الفردي الذي يرفضه رفضا تاما، وبمجّد العنف ويقدّسه بوصفه الحل الذي لا بديل له، فيقول: "العنف وحده الذي يمارسه الشعب، العنف الذي ينظمه ويغرسه قادته، هو الذي يمكّن الجماهير من فهم الحقائق الاجتماعية، ويزوّدها بمفتاح هذه الحقائق"[3]. والعنف الذي يقصده فانون هنا، هو العنف الذي أساسه الإنسان، تلك الطاقة البشرية بحماسها، وليست طاقة السّلاح فقط، كما يذكر انجلز، والذي يعتبر أن انتصار

---

[*]– الإمبريالية: أستخدم في عهد نابليون الثالث لأول مرة سنة 1830م، للتعبير عن سياسته التوسعية، وفي سنة 1870م انتقل إلى بريطانيا.

[1])- عبد الوهاب الكيالي وآخرون: المرجع السابق، ص 257.

[2])- فرانتز فانون: سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق، ص8.

[3])- فرانتز فانون: معذبو الأرض، المصدر السابق، ص42.

العنف يعتمد على إنتاج الأسلحة، وبالتالي على الطاقة الاقتصادية بصورة عامّة، إنّه مجرّد رأي طفولي بالنسبة لفانون[1] .

ويدعّم فانون حقيقة ميله غير المشروط إلى العنف، وفي رأيه أنّ الشعب الذي يختار الكفاح المسلّح، يعلن أنه لم يعد يثق بالنظام الاستعماري السافر، الذي اتخذ العنف وسيلة للتقتيل والتنكيل بمن سمّاهم فانون "معذّبوا الأرض".

ولعلّ القارئ لكتابات فرانتز فانون يعتقد أنّه يغذي العنف ويدعوا إليه بل ويروّج له بدون مبرّر. لا إن فانون يرى أنّ العنف هو مجرّد ردّة فعل على ممارسات قمعيّة ومستبدّة، وفي فصل من كتابه "معذّبوا الأرض"، "الحرب الاستعماريّة والخلل العقليّ"، وصف سلسلة من الحالات المرضيّة وخلص في النهاية إلى أنّ العنف العشوائي ليس سلوكا طبيعيا، إن فانون بوصفه طبيبا لا يكتب العنف وصفة للعلاج، وإنما يشخصّ الحالة ويسعى لتغييرها [2] . ويعلق سيزر عن عنف فانون، فيقول: "إنّ عنفه بدون مفارقة، هو عنف رجل غير عنيف وأقصد بذلك أنه عنف العدالة وتطهير النفس والعناد"[3] .

يرى فانون أنّ العنف والاستعمار يمضيان جنبا إلى جنب، فالاستعمار لا يستخدم فقط لإخضاع الشعوب المستعمرة (بفتح الميم)، ولكنّه أيضا يخرج السكان الأصليين عن السيطرة، ويحوّلهم إلى قوة ضاربة، وكما يعطي الاستعماريون لأنفسهم الحق في القمع والتقتيل، فكذلك للسكان حق الرد واستعمال نفس الأسلوب هذا ما يعنيه فانون، ويقول كذلك بوجود العنف كنتيجة حتميّة للإحساس بالفقر والتهميش اللّذين كثيرا ما يكونان سببا في العديد من الأمراض الاجتماعيّة والنفسيّة. ويبدو

[1])- جاك ووديس: المرجع السابق، ص9..
[2])- فرانتز فانون: معذّبوا الأرض، المصدر السابق، ص ص 217-278.
[3])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص 142.

بوضوح تأثر فانون الشديد بسارتر في هذا الرأي، هذا الأخير الذي يرى أنّ الحاجة والندرة من أهم أسباب العنف الاجتماعي من الوجهين التاريخي والاقتصادي[1].

ولعل ألبير مامي[*] يوافق فانون في ضرورة اللّجوء إلى العنف، إذ يقول "لا يوجد مخرج آخر أمام المستدمر (بفتح الميم) أيضا سوى النهاية التامة للإستدمار وحيث أن رفضه لا يمكن إلاّ أن يكون مطلقا بمعنى ألاّ يقف في حدود التمرد وبالتالي تجاوزه إلى إطار الثورة، وبذلك يؤكد ألبير على أن التّمرد هو المخرج الحقيقي والوحيد من الوضعية الاستعمارية"[2].

والملاحظ لأسلوب فانون في كتابه "معذّبوا الأرض" يستخلص أنّه يتحدّث كثيرا عن إفريقيا والإفريقيين، ولكنّه لا يتحدّث أبدا عن آسيا ومن هنا يدرك الباحث مدى تأثّر فانون بأرض أجداده التي يحاول بأفكاره وآرائه أن يجد لها حلاّ يعينها على التخلّص من كلّ أشكال الاستغلال، كما أنّ أفكاره في هذا الكتاب جاءت بأسلوب جازم وصارم لا يقبل النقاش[3].

وإن كان فانون يدعو إلى العنف المسلّح كوسيلة وحيدة للقضاء على الاستعمار فهناك من يعارضه الرّأي، فجاك ووديس يؤكدّ أن "نجوين نجي" في كتابه "فانون ومشكلات الاستقلال"، يؤكد أن فانون غير محق إلى حد ما في دعوته إلى الكفاح المسلّح الخالص. لأنه بذلك يهمل الجانب الآخر من الكفاح، وهو الجانب السياسي هذا علاوة على أنّ الكفاح المسلّح وحده غير مضمون دائما، وقد يخفق

---

[1])- دفيد أوستين: تشخيص فرانتز فانون. على الموقعhttp://www. . .org/06reports/061115daustin.html تاريخ الاطلاع في2009/01/26

[*])– ألبير مامي: كاتب وفيلسوف تونسي ولد سنة 1920م، اشتهر كمؤلف روايات وأعمال نظرية في الأدب وبحوث في التحليل النفساني، كتب كتابه المشهور "صورة الاستعمار" سنة 1957م.

[2])- ألبير مامي، المرجع السابق، ص150.

[3])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص115.

أحيانا، ومن ثم فنجوين نجي الذي أجرى دراسات عميقة حول فانون يؤكد على دعمه الكفاح السياسي بأسلوب وحيد لا خيار عنه للوصول إلى الأهداف المنشودة، ويقول في هذا الصدد: "الإمبريالية.... ستظل تنتصر حتى يواجهها كيان من الفكر السياسي أرقى من كيانها"[1] .

أما فرحات عباس فهو الآخر يعارض فانون، ويرى أن العنف هو آخر ما قد يلجأ إليه لحل معضلة معيّنة، وأنه توجد الكثير من الأساليب التي يعتمد عليها في الوصول إلى الهدف المنشود غير العنف[2].

أمّا نازع جيمس كونوللي، وهو أحد دعاة العنف الجسدي، وكما يؤكد جاك ووديس دائما، فإنه يقف في الوسط بين فانون ونجوين نجي وفرحات عباس. ويرى أن استخدام العنف وعدم استخدامه خاضع للحاجة، ، وفقا للأهداف المسَّطرة، ومن ثم فهو قد يستخدم وقد لا يستخدم، إذا كانت الحاجة إليه غير ضرورية[3].، وإذا ما عدنا إلى التجارب الإفريقيّة فإننا نستطيع القول أنّ معظمها احتاج إلى الكفاح المسلح للوصول إلى الاستقلال إن لم اقل كلها .

وقد تراوح بين الأعمال العسكرية القصيرة المدى كما حدث في السودان وليبيا والصومال سنة 1969م، أو الذي احتاج إلى ضربة عسكرية واحدة لإسقاط الحكم كما حدث في مصر عام 1952م وزنجبار عام 1964م، أو الكفاح الطويل المدى كما حدث في الجزائر، حيث استغرقت الحرب سبع سنوات ونصف للتخلّص من الاستعمار[4]. حيث كرّست البرجوازية اضطهادها على إخوانها من الفلاّحين

---

[1])- جاك ووديس: المرجع السابق، ص11.

[2])- عبد الحفيظ بوعبدالله: فرحات عباس بين الادماج و الوطنية(1919- 1962)، رسالة ماجستير جامعة باتنة، 2006،ص. 186.

[3])- المكان نفسه.

[4])- المرجع نفسه. ص13.

والطبقات العاملة، ولقد توّصل فانون إلى أنّ المرحلة البرجوازية غير مفيدة في البلاد المتخلفة[1].

ومن هنا تأتي قناعة فانون في التأكيد على الدور الذي يجب أن تلعبه طبقة الفلاّحين في إفريقيا التي يرى أنّها هي الطبقة الثوريّة الوحيدة في البلاد، إنه مقتنع أنّ الثّورة تبدأ عند طبقة الفلاّحين وتكرّس جذورها، ثم تتسلل شيئا فشيئا إلى المدن دائما من خلال أولئك الفلاحين المتشردين عن أراضيهم والذين يسكنون الأكواخ في المدن لأن هؤلاء الفلاّحين لم يكونوا بعد قد وجدوا فرصة العيش في استقرار، أو كما يقول فانون: "لم يكونوا قد عثروا على عظم يقضمونه في ظلّ النظام الاستعماري"[2].

وربّما خير دليل على رأي فانون هذا، هم سكان الأكواخ في حي القصبة الجزائرية، الذين استطاعوا أن ينقلوا معركة جبهة التحرير الوطني إلى كامل الأحياء إبّان الثورة التحريرية الجزائرية[3] . ويوافقه معلمه سيزر في ذلك إذ يرى أن الحل الوحيد لإنقاذ أوروبا من الاتهامات الموجهة إليها وخروجها من الظلمات التي طالما تخبّطت فيها ردحا من الزمن، هو تخليها كليا عن ذلك النظام البرجوازي الظالم المستبد، الذي طالما داس على كرامة الإنسان، وبالتالي يختفي ذلك النظام الطبقي في المجتمع، ويحلّ محلّ كل ذلك طبقة واحدة طالما عانت من قهر الطبقة البرجوازية، ألا وهي طبقة البروليتاريا[4].

ولكن هناك من يقول بإخفاق فانون في معالجة هذا الرأي في أقواله عن الفلاحين خاصة و تأكيده على أنّهم وحدهم يمكن الاعتماد عليهم في اتخاذ الكفاح المسلح سبيلا، لأنهم لا يملكون ما يخافون عليه أو يخسرونه، على عكس الطبقة

[1]- سعاد شيخاني: المرجع السابق، ص. 152.
[2]- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 123.
[3]- المرجع نفسه، ص. 124.
[4]- إيمي سيزر: المرجع السابق، ص. 60.

العاملة التي يرى فانون أنها الجزء البرجوازي من الأمّة، وأنّه لديها ما تخسره وتخاف عليه، وفي حين يباشر الفلاحون الكفاح في الأرياف تلزم الطبقة العاملة الصمت في المدن وكأن الأمر لا يعنيها.

كما أُنتقد فانون على أنّ إشارته إلى طبقة الفلاحين في إفريقيا جاءت عامّة غير محددة، فإلى أي بلد يشير ؟ وفي أي بلد إفريقي تتضح هذه الظاهرة؟[1].وهل يمكن اعتبار فلاّحي غانا أو نيجيريا أو ساحل العاج فقراء؟ وهم يتمتعون بمستوى معيشي أعلى بكثير من المستوى المعيشي للعمال في هذه البلدان[2] . ويواصل معارضو فانون في التساؤل، هل الفقر وحده كافي ليولّد النضال والوعي الثوري؟ و لنين أبو الثورة في روسيا مثلا يعارضه في هذه الرؤية.

فقد تحدث عن ثورة روسيا 1905م التي كان فيها عمّال المعادن الأعلى أجرا أكثر وعيا واستعدادا للقتال من عمّال النسيج الذين كان أجرهم أقل[3] . ونفس الشيء يؤكده موديبوكيتا في مالي، حينما قال: " ... أعتقد أن لدى الطبقة العاملة في ظل النظام الاستعماري أوضح فهما لاستقلالها، ونحن نعرف أنها لم تكن الطبقة الأكثر معاناة من الاستغلال، حين يكون لديها عمل– وإن كان لدينا قدر كبير من البطالة– لكن هذه ليست القضية، فالقضية هي مسألة الفهم السياسي"[4].

ويؤكد أملكار كابرال السكرتير العام للحزب الإفريقي لاستقلال غينيا على أنّه ليس صحيحا أن الوعي بالنضال من أجل التحرر الوطني يتولد من التعرّض للمعاناة

[1]- جاك ووديس: المرجع السابق، ص ص. 39-40.
[2]- المرجع نفسه: ص ص. 54-55.
[3]- ف.أ"لنين": محاضرة عن ثورة 1905، المختارات، المجلد الثالث، ص ص 5-7.
[4]- جاك ووديس: المرجع السابق، ص. 50.

فهو يرى أنّه في غينيا التي تعاني طبقة الفلاّحين فيها من الاستغلال الشبيه بالعبودية معاناة جمّة، ولكنهم لم يكونوا أبدا الأكثر تفهّما واستعدادا للكفاح المسلح[1].

ولقد انتقد الزعيم الشيوعي الفيتنامي نجوين نجي، رأي فانون هذا بحدة. إذ اعتبر أن الفلاّح كرجل بسيط لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يكون ثوريا واعيا من تلقاء نفسه، فهو يحتاج إلى المناضل القادم من المدينة حتى يلقنّه ويعلمّه، بل يعلم ويلقن الأذكياء منه فقط[2]، وكذلك لا يمكن الاعتماد على الفلاّحين كفئة منتجة قد تبني أمّة في المستقبل؟[3]. أما أرنستو شي جيفارا فيتعارض مع فانون أيضا، ويعلق كل آماله على القادة العسكريين والساسة، لا على فئة بسيطة في المجتمع[4].

أما العالم السوفييتي بوتخين، فيرى أن طبقة الفلاّحين وحدها غير قادرة على تحقيق مستقبل ناجح، وأنّه لا مناص من اتحادها مع طبقة العمّال، وقال في هذا الشأن: "إنه على الطبقة العاملة الإفريقيّة أن تحقق مهمّة تاريخيّة محدّدة، وأن تأخذ زمام المبادرة في ترسيخ نظام اشتراكي للإنتاج، وأن تتوّلى قيادة طبقة الفلاّحين في أداء هذه المهمّة"[5].

وفي اعتقادي أن فانون لم يحاول أبدا القيام بتحليل اجتماعي جدلي للطبقات كما يبدو، ولكنه طرح أفكاره في هذا السياق من خلال وعيه هو، وإيمانه بدور طبقة الفلاّحين تجاه الثورة. إنه ليس عالما اجتماعيا أو خبيرا في الاقتصاد السياسي، هو مجرد رجل ذو معرفة سوسيولوجية عميقة بتطوّر مجتمعات العالم الثالث، فهو من خلال هذا الطرح يتحدّث عن القوى الاجتماعية وليس عن التشكيل الطبقي.

---

[1])- المكان نفسه .
[2])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص. 121.
[3])- المرجع نفسه: ص. 124.
[4])- المرجع نفسه: ص. 143.
[5])- المرجع نفسه، ص. 122.

إنّ فانون في حديثه عن الثورة والعنف، إنّما يتحدّث عن ثورة الشعوب ضد النّظام الرأسمالي العالمي انطلاقا من واقع هذه الشعوب ذاتها، ذلك النظام يدركه فانون جيّدا إذ يرى أنه يقهر الشّعوب وينتزع الإنسانيّة، وإن كان فانون يتحدّث بحماس زائد عن العنف وضرورته، فإن ذلك راجع بالتأكيد إلى خوفه من الاستقلال الصوري الذي رضيت به بعض الدّول الإفريقيّة، واقتنعت وفتحت المجال للبرجوازيّة لتنهش بلدانها من الداخل.

وقد تحدث فانون في فصل كامل من كتابه "معذّبوا الأرض " بعنوان "مزالق الشعور القومي"، عن مشاكل الثقافة الوطنية التي كان يخشى أن تنزلق هي الأخرى وراء الثقافات الدخيلة المشوّهة وتفقد جوهرها[1] . إن فانون لم يقم بتحليل اجتماعي ديالكتيكي تقليدي، لأنّه كان يرى أنّه غير فاعل في العالم الثالث، إنّ ما كان يشعر به هو القهر الذي سبّبته الظّاهرة الاستعماريّة، وإن كان يرى أنّ المجتمع الإفريقي مجتمع طبقي فإنه يرجع تشكيل تلك الطبقات في إفريقيا إلى الاستعمار نفسه، ممّا ولّد صراعا مباشرا بين الفلاّحين والبرجوازيّين المدنيّين ، وصراع آخر غير مباشر بين الفلاّحين والعمّال، ولقد عارضه في هذا الرّأي القائد الغاني كوامي نكروما حين أعلن في شهر كانون الثاني–جانفي سنة 1963م أنّ المجتمع الإفريقي ليس فيه صراع بين الطبقات[2].

ولكن يريد فانون في النهاية أن يصل إلى عنف يصهر تلك الطبقات، يجعلها تذوب في بعضها البعض، لتّتحد كلّها ضدّ الطاغيّة الاستعماري، ولهذا عارض الزعيم الهندي غاندي، فلقد كان فانون يرى أنّ غاندي قاد صراعا جماعيّا ضد الاستعمار ولكنّه في نظر فانون صراع بدون عنف، فهو بالتالي صراع غير أصيل،

---

[1])- فرانتز فانون: معذبو الأرض، المرجع السابق، ص. 115.
[2])- دافيد كوت: المرجع السابق، ص.131.

لأنه كان مقتنعا بفعاليّة العنف الذي كان في نفس الوقت يرعبه، كما تؤكد لنا سيمون ديبوفوار [1].

ولقد حاول في آخر أيّامه تجسيد ذلك العنف أو الكفاح المسلّح من خلال فكرته حول تكوين جبهة جنوبية لتدعيم الثّورة الجزائريّة، كما سبق القول، ومن هنا يبدوا أن قناعات فانون هي قناعات يعقبها بتطبيق عملي لا مجرّد شعارات جوفاء[2]ولهذا فإنه بفكرته هذه حول العنف سيبقى حيّا، ما دامت الشعوب تعاني من القهر الاستعماري ولقد قال عنه الكاتب روبرت فولفورد في شهر شباط –فيفري 2002 "إن فانون مفكر مسموم يرفض أن يموت ... إنّه نبي العنف" [3].

المبحث الثالث: العنصرية

تعد ظاهرة العنصرية ظاهرة قديمة متجذرة عبر التاريخ، عرفتها الشعوب والأمم منذ الأزل، اختلفت حسب الأهداف والمصالح في التمييز بين بلد وآخر أو جنس وآخر أو جماعة وأخرى ...الخ. ومع بداية الحركة الاستعمارية استغلت العنصرية لخدمة أهداف الاستعمار في ظل الظروف الجديدة في المستعمرات [4]، إذ تكرّست هذه الظاهرة أكثر مع بداية تشجيع الاستعمار الاستيطاني، –وهو ظاهرة

[1])- Simone de Beauvoir : Op.Cit., p.622.

[2])-فرانتز فانون: معذبو الأرض، المصدر السابق، ص.III

[3])- صالح سلمان عبد العظيم ." خمسون عاما على رحيل فرانز فانون" ، مقال على الموقع http://www.diwanalarab.com/spip.php?890 auteur. تاريخ الاطلاع في 2009/03/03

[4])- نعيم قدّاح: التمييز العنصري وحركة التحرير في إفريقيا الجنوبية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر:1975م، ص7.

استعمارية ترجع جذورها إلى القرن التاسع عشر، وتعني وجود أشخاص غرباء أوربيين أساسا في محيط من سكان البلاد الأصليين–[1].

وإذا أردنا أن نعطي تعريفا واضحا للعنصرية نستطيع القول: "أنها نظام متكامل وممارسة قائمان على فرضية تقول بأنّ العامل المقرر في خصائص وقدرات البشر هو الانتماء العرقي، وأن العناصر العرقية تتفاوت نوعيا لا من حيث الشكل وحسب بل ومن حيث القدرة الفكرية والأخلاقية والاجتماعية"[2]. ومن ثم نقول بوجود عناصر بشرية أكثر تفوقا من أخرى، وبالتالي تكون هناك فروق للمعاملة حسب الانتماء العنصري.

ولعلّ أبرز مثال على العنصرية هي تلك النظم النازية في ألمانيا والامبريالية اليابانية–حتى سنة 1945م–، والصهيونية العالمية في فلسطين...الخ[3] ، وفي جنوب إفريقيا كانت تستخدم كلمة "أبارتايد" "Apartheid "، وهي كلمة تعني (الفصل بين الأجناس)، ولكن مهما اختلفت المسمّيات فإن سكان جنوب إفريقيا يعرفون جيّدا أنها تعني سيطرة الجنس الأبيض واستئثاره بالسلطة الحقيقية في البلاد[4] .

أما فانون فإنّه يعرّف العنصرية على أنها "حلقة ضرورية لسيرورة كل بنية اقتصادية تريد أن تثبت نفسها على حساب بنية أخرى"ومن ثم فهو يعارض ما قال به مانوني بأن: "العنصرية الاستعمارية تختلف عن سائر العنصريات"[5]. وقد مارست الجماعات المستوطنة في المستعمرات الحديثة ضروبا وأشكالا من العنصرية ونكرانا للوجود القومي للسكان الأصليين، الذين كانوا يرفضونهم. ولكن المستوطنين

---

[1])-المرجع نفسه: ص ص. 172-173.
[2])- عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، المرجع السابق، ص ص. 249-250.
[3])- المكان نفسه.
[4])- نعيم قدّاح: المرجع السابق، ص. 8.
[5])- سعاد شيخاني: المرجع السابق، ص. 33.

بما لهم من قوة مادية فرضوا أنفسهم على أولئك السكان وتحالفوا مع قوى خارجية للحصول على الأراضي التي تعدّ الأساس المادّي للمستوطنة[1]. وكان المستوطنون يشعرون بالتفوّق في جميع المجالات على السكان الأصليين الذين يرون أنهم متخلّفون.

وانطلاقا من استفحال هذه الظاهرة سارع العلماء والمختصون بتحليلها ودراستها من مختلف الجوانب ووضع النظريات وإيراد الحجج على إثباتها أو بطلانها. فاختلفت وجهات النظر حول العنصرية أو ما سمّوها كذلك بالتفوق العنصري أو العرقي، فهناك من يدعّمها ويؤيّدها، وهناك من يرفضها و ينكرها انكارا تاما، فمثلا في القرن الثامن عشر والتاسع عشرة، ظهر مجموعة من الفلاسفة أمثال دفيد هيوم "David Humé "، وتين "Taine "، ورينان "Renan "، اللذين أقروا بوجود العنصرية، وقالوا باختلاف القدرات والملكات العقلية، واستبعدوا أن يكون الزنجي أو الهندي أو الأمريكي مساويا للأ وروبي[2].

فها هو رينان الفيلسوف الفرنسي في كتابه "الإصلاح الفكري والأخلاقي" يؤكد على وجود شعوب حقيرة وأعراق سخّرها الرّب فقط لخدمة الأوروبي، فيقول: "إننا نصبوا ليس للمساواة، بل إلى الهيمنة، إنّ على بلاد الأعراق الأجنبية أن تصبح بلاد الرقيق، والعمّال الزراعيين والصناعيين، فالأمر لا يتعلق بإلغاء الفروقات بين الرجال، بل بتضخيمها وتحويلها إلى قانون... إن العرق المخصّص لخدمة الأرض إنّما هو العرق الأسود، وإذا كنت معه طيبا وإنسانيا، فإنّ كل شيء سيكون على ما

[1]- المكان نفسه.
[2]- نعيم قدّاح: المرجع السابق، ص. 7.

يرام، أمّا عرق السادة والجند فهو العرق الأوربي، إذا ما اختزلتم هذا العرق النبيل إلى خدمة سراديب الأرقاء كالعبيد أو الصينيين فإنّه يتمرّد"[1].

هكذا يرى رينان أن الشعوب غير الأوربية، هي شعوب سخرّها الله لخدمته وهي قانعة ومستسلمة لقدرها، وكل ما تحتاجه لتبقى مجمّدة على حالها، راضية بوصفها، هو شيء من المعاملة الطيبة لا أكثر، فهي شعوب مدركة تماما أنّ هذا ما خلقت له، وستبقى كذلك إلى الأبد.

أمّا الشعوب البيضاء فهي شعوب خلقت من أجل السيادة والزعامة والقيادة وهي شعوب ترفض بفطرتها القهر والاستعباد أو خدمة الآخر، ولو أجبرت على ذلك فإنّها تتمرّد وتثور فطبيعتها خلقت لغير ذلك وان وظيفتها الأساس هي كما يضيف رينان: "إنّ إعادة توليد الأعراق السفلى أو المنحطّة من قبل الأعراق العليا تقع في صلب النظام الربّاني للإنسانية، وإنّ رجل (الشعب) عندنا هو دائما تقريبا نبيل هبط في مستواه، تصلح يده الثقيلة لملاعبة السيف بدل أداة الرقيق، ويفضل القتال بدل العمل، فهو يعود إلى حالته الأولى"[2].

وتقوم النظرية العنصرية الحديثة على أساس الاعتقاد بوجود علاقات بين السمات العنصرية (الأرومية) والسمات الحضارية، أي وجود فئات بشرية أكثر تحظّرا وتفوّقا بطبيعتها من فئات أخرى وقاموس العلوم الاجتماعية الصادر عن منظمة اليونسكو يعرفّ العنصرية "Racisme" بأنها: "الاعتقاد أن إحدى الجماعات السلالية محكوم عليها من الطبيعة بنقص وراثي، بينما تكون مجموعة أخرى مقدّرا لها تفوّق وراثي"[3].

---

[1]- إيمي سيزر: المرجع السابق، ص ص. 14-15.
[2]- المرجع نفسه، ص. 15.
[3]- نعيم قدّاح: المرجع السابق، ص. 8.

ويقول فاجيه "Faget " وهو صحافي أوروبي: "ينتمي البربري –بعد كل شيء– إلى ذات العرق الروماني واليوناني، إنّه ابن العام، غير أنّ الأصفر و الأسود ليسوا أبدا أبناء عمومتنا، هنا يوجد فرق كبير، وهو مسافة واسعة وحقيقية من طبيعة أثنية على كلّ حال، لم يحصل التمدّن أبدا حتى الآن، إلا على أيادي البيض"[1].

إلا أن التاريخ قد اثبت خطا هذه النظرية فالإنسان الأصفر والإنسان الأسود كلاهما أصبحا من صانعي الحضارة الحديثة ولعل الروس والصنيين والهنود، خير دليل على ما حققه هذا الجنس من رقي وتطور حضاري في العالم الحديث بل فان رئيس أعظم دولة في العالم اليوم، هو رجل زنجي استطاع بفكره ولباقته وتحضره أن يقنع الشعب الأمريكي بانتخابه و تفضيله على المنافسين من البيض.

أن معظم النظريات التي صاغها المفكرون الغربيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى في القرن العشرين،كالنظرية النازية والفاشية مثلا كلها نظريات وآراء مرتبطة بالمصالح السياسية و الاقتصادية والاجتماعية لشعوب الغرب الذين تفوقوا تكنولوجيا على شعوب الشرق و سخروا كل ابداعتهم لخدمة الرجل الأبيض على حساب الأجناس الأخرى. ليس فقط في أفريقيا بل في آسيا و أمريكا اللاتينية.

أما جول فيري(1832–1893م)، فقال سنة 1885م: "يجب أن نقول بصراحة أنّ العروق العليا لها بالفعل الحق حيال العروق الدنيا..."[2]. وهناك من يقول أن الزنوج هم أطفال كبار، وفانون يذكر في كتابه "بشرة سوداء أقنعة بيضاء سنة 1952م أن: " الأبيض عندما يخاطب زنجيا ... يتصرف تماما كما يتصرّف راشد مع ولد".

[1]- إيمي سيزر: المرجع السابق، ص. 30.
[2]- محمد شرقي: المرجع السابق، ص. 168.

ولكن وخلافا لهذه الآراء أصدر مجموعة من العلماء والمتخصصين في علوم الوراثة وعلم الأحياء العام (البيولوجيا)، وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا بيانا عاما من مقر اليونسكو في باريس يشرحون فيه بطلان النظريات العنصرية[1]. أما فرانتز فانون فيقول: "أنّ العنصرية هي العنصر الأكثر بروزا والمتكرر يوميا، والأشد غلظة من عناصر جهاز معين". ويرى أنّ الاستعمار هو الذي كرّس هذه الظاهرة العنصرية الاستعمارية ودعّمها بممارسته[2]ويؤيدّه أستاذه سيزر إذ يقول: "إن أوروبا طعّمت الظلم القديم بتعسّف حديث والعنصرية الوقحة واللا مساواة العتيقة"[3].

وبالفعل إن تدخل أوربا في باقي القارات الأخرى عطّل مسيرتها وشّوه تاريخها، ولولا عرقلتها لمسيرة تلك الشعوب في (إفريقيا، آسيا،أمريكا اللاتينية)، لا أحد يدري ما كانت ستصل إليه من التطوّر المادّي فأوروبا ليست سوى حجر عثرة في تاريخ تلك القارّات، فأبناء تلك المستعمرات كانوا أصحاب حضارة وما يزالون دائما يندفعون نحو الأمام فيواجههم المستدمر لشدّهم للخلف، ويرى سيزر أن البربرية الأوروبية لا يفوقها عجرفة وبربرية إلاّ البربرية الأمريكية[4] .

أما ألبير مامي فيعرّف العنصرية على أنها: "تكوّن جزءا من جميع أصناف الاستدمار في كلّ المناخات، فليس صدفة أن تختصر العنصرية، وأن ترمز إلى العلاقة الجوهرية التي تربط بين الاستدماري وبين الأهالي"[5]. لقد كان أوّل اصطدام لفانون مع العنصرية عندما انخرط في قوات فرنسا الحرّة 1944م، وما شهده هناك من ضروب وأشكال عنصرية مختلفة لها وأدرك أن الإيديولوجيا التي اندفع من أجلها

[1]- عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق، ص. 250.
[2]- فرانتز فانون: من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص. 15.
[3]- إيمي سيزر: المرجع السابق، ص. 24.
[4]- المرجع نفسه، ص 25.
[5]- ألبير مامي: المرجع السابق، ص. 74.

لم تكن إلاّ خطابا سياسيا ينظر بنسبية إلى قضايا الحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها وكانت ممارسات القوات الفرنسية العنصرية في المارتينيك كذلك خلقت عند فانون وعيا وجوديا كان له دور حاسم في خياراته اللاحقة[1].

والحق أن مرارة وضغط التميز العنصري، كان شوكة نغصت حياة فانون حياته وسلبته الراحة والطمأنينة، فلقد كان يعاني من تأثير لونه الأسود على كل شيء في حياته،الأمر الذي أدى به إلى محاولة التغلب على تلك العقبة من خلال تطوير نفسه اعتمادا على ثقافته وقدراته الخاصة[2] .

وعندما انتقل للعيش في فرنسا لدراسة الطب هناك اكتشف بعد احتكاكه بالعنصر الأبيض أن الفرنسيين (البيض) يعتبرونه أسودا زنجيا على الرغم من كل شيء وقبل كل شيء، وقد عبر عن ذلك فقال " عندما أتحدث إلى من يحبونني يقولون أنهم يحبونني على الرغم من لوني، وحينما أتحدث إلى من يكرهونني، يعتذرون بأنهم لا يكرهونني بسبب لوني، وفي كلتا الحالتين أجد نفسي حبيس الحلقة اللعينة (العنصرية) [3] .

ويتذكر فانون أيضا الكثير من الأشخاص الذين مارسوا تجاهه العنصرية فأحد أساتذته في جامعة ليون بفرنسا سنة 1946م، وأثناء الامتحان خاطبه بلهجة ساخرة مستهينة، من أين أنت؟ آه من المارتينيك ! هناك موقف آخر واجهه فانون من أحد أساتذته عندما كان طالبا في ذات الجامعة ليون إذ أن المتعارف عليه في نظام الامتحان أن يختار الطالب بنفسه السؤال من خلال عملية القرعة، ولكن أستاذه لما لاحظ انه أسود، ترفق به وأبدى شفقته نحوه وسأله: عن أي سؤال تريد أن

[1])- Alice cherki : Op. Cit.,. pp. 20-24.

[2]) دافيد كوت: المرجع السابق ، ص. 9

[3]) المكان نفسه.

أسألك؟ طبعا لاعتقاده أن فانون غير قادر على الإجابة في الأسئلة المقترحة باعتباره أسود ولكن فانون رفض تلك الشفقة التي تحتقره وفضل أن يختار سؤاله شأنه شأن زملائه[1]. وعندما تزوج سنة 1952م من فتاة ليونية بيضاء إلا انه بقي اسودا في نظر الآخرين، وكانت عندما تسافر معه إلى أي بلد أوروبي هي التي تقوم بحجز الغرف في الفنادق [2].

والحق أن الإحساس بالتمييز لاحق فانون في كل مكان يحل فيه. وحتى في بلاد العالم الثالث الذي من المعروف أن وجود الاستعمار والكفاح للقضاء عليه قد وحّد الرؤية بين تلك الشعوب التي قهرها الاستعمار، ولكن في تونس مثلا لم تتركه العيون ينسى أنه أسود، ولأنه أسود، فإنهم عاملوه بعنصرية واضحة واتهموه عندما كان في مستشفى منوبة في تونس سنة 1958م بأنه صهيوني، وأنه كان ورفاقه يعذبون المناضلين الجزائريين.

ولكن الطبيب أحمد ناني بودربة أحد مسئولي مصلحة الصحة الجزائرية في تونس آنذاك، دافع عنه ورفاقه وهدد أولئك المدعين فسحبوا اتهاماتهم مكرهين لأنهم كانوا دائما يريدون إلحاق الضرر بذلك الرجل الأسود[3] . وفي غينيا سنة 1960م عندما كان فانون مناضلا من أجل القضية الإفريقيّة كان موضوع العنصرية أمرا حساسا، إذ كان أصدقاءه يتجنبون التحدث أو الخوض معه في أمور هامة عندما تكون زوجته الفرنسية البيضاء موجودة معه[4] .

وفي سنة 1952م صدر لفانون كتاب بعنوان "بشرة سوداء أقنعة بيضاء"[*]، لقد كان هذا الكتاب فضيحة، لأنّه في النهاية طرح مواضيع حول السود، انشغالاتهم

---

[1]) المكان نفسه.
[2]) المرجع نفسه ، ص. 10.
[3]) Alice cherki : Op. C it., P. 166.
[4]) دافيد كوت : المرجع السابق ، ص. 10.
[*]– صدر هذا الكتاب وكان عمر فانون 27 سنة، عن دار سوي Seuil ، وقام بالتقديم له:فرانسيس جونسون.

وضعهم معاناتهم، لقد طرح فكرة العنصرية وعالجها من منطلق سوسيولوجي سياسي اعتمد فيه على تجربته الشخصية، لتحليل وضع كان قائما، لقد تحدث في كتابه هذا عن كل شيء، عن السياسة، الاقتصاد، اللغة، الثقافة، الأساطير، وكلّ القيم التي نؤثر في الفرد ويؤثر بها الفرد في الحياة.

لقد كان هذا الكتاب فضيحة لأنه بكلّ بساطة كتب من قبل أسود بل ولأنه فضح الحضارة الغربية خاصة وان البيض تعودوا أن يطرحوا أوضاع السود هم بأنفسهم، بنظرتهم وتوجّهاتهم واختياراتهم، فلمّا كانت هذه المرّة بنظرة سوداء من رجل أسود عدّت فضيحة، ولكنّه بدون شك عدتّ مرحلة هامة في تغيير القيم الإنسانية [1].

لقد جاءت دعوة فانون من خلال هذا الكتاب إلى تحرير الرجل الأسود من الاستغلال، الذي جعله أسير ثنائية (السيد والعبد)، ثنائية منعته من رؤية وجوده ككائن مستقل فاعل بل أجبرته على فهم مصيره عبر عين الآخر (الأبيض). هذا الاستلاب يتحول كما يقول فانون إلى لاوعي جماعي مشترك بين المستعمر (بكسر الميم) والمستعمر (بفتح الميم)،الأمر الذي يؤدي إلى إعاقة أي عملية تحرر فعلية[2] .

ويؤكد هيجل ذلك إذ يقول: " لا يكون المرء إنسانا إلا بقدر ما يرغب في فرض نفسه على إنسان آخر، لكي يجعله يعترف به، ومادام فعليا لا يحظى باعتراف الآخر، فإن هذا الآخر يظل موضوعه هو فعلا، فقيمته وحقيقته الإنسانيتان تتوقفان

[1])- Alice cherki : Op. Cit., p . 44.

[2]) فرانتز فانون: بشرة سوداء أقنعة بيضاء، تعريب ، خليل أحمد خليل، ANEP دار الفارابي ،بدون تاريخ ،ص ص. 10- 13 .

على هذا الآخر، على اعتراف هذا الآخر به، إن معنى حياته يتكثف في هذا الأخر" [1].

لقد درس فانون من خلال هذا الكتاب علاقة الأسود بالأبيض والأبيض بالأسود ووصل إلى أن الأسود يريد أن يكون ابيضا، والأبيض يستميت لتأكيد وضعه البشري ،أي أن الأبيض منغلق في بياضه والأسود منحبس في سواده. ومن خلال ذلك حاول فانون مناقشة هذه الازدواجية والهواجس والعقد النفسية ورغبة الأبيض دائما في إظهار أنه أرقى من الأسود ورغبة الأسود في تأكيد غنى فكره وتساويه مع الأبيض.

ولقد كانت لفانون نشاطات متعددة ندد فيها بضرورة التخلص من هاجس العنصرية، ففي شهر رمضان سنة 1955م قام بندوة حول العنصرية في مقر الكشافة الإسلامية الجزائرية في الجزائر وفي شهر أيلول– سبتمبر من السنة ذاتها كتب مقالا بعنوان: "الاعتبارات العرقية النفسية" "considération ethno-psychiatrique " نشر له في مجلة الوعي المغاربي " Consciences Maghrébines"، سلمه لكلودين شولي حتى تطلع عليه ندد فيه بعنصرية أحد أطباء الأمراض العقلية الإنجليزيين وهو خبير تابع لمنطقة الصحة العالمية الدكتور" جي ساي كاروتارز" والذي يساند الأطروحات العنصرية للدكتور بورو[2] Porot. وفي شهر أيلول–سبتمبر سنة 1956م ألقى فانون كلمة في أول مؤتمر للكتاب والفنانين السود في فرنسا تحدث فيه بإسهاب عن هذه الظاهرة [3]. لقد توصل فانون إلى أنه يجب تحطيم تلك الهواجس والحواجز بين الأبيض والأسود ويقول في ذلك:"

---

[1]) المصدر نفسه، ص. 203.
[2])بيارو كلودين شولي: المصدر السابق، ص. 57.
[3]) فرانتز فانون : من اجل إفريقيا ، المصدر السابق، ص. 13 .

أنا أرغب حقا في أن أقود أخي الأسود أو الأبيض إلى أن يمزق العباءة البالية التي نسجتها عصور عدم الفهم والتفاهم"[1] .

هكذا إذن كان كتاب فانون دراسة عيادية سريرية تأثر فيه عند تحليله للعنصرية التي يواجهها الزنجي بالحجج التي استعرفها سارتر في بحثه عن "اللاسامي واليهود" [2]. ومثل فانون كافح أستاذه سيزر طيلة حياته للتخلص من صورة الرجل الأسود غير القادر على الأخذ بزمام نفسه وبناء مستقبله، وكان مناهضا للعنصرية حتى آخر يوم في حياته[3].

ولكن كتاب فانون " بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" كان العالم الخاص بالسود الخاضع لشروط الرجل الأبيض بصورة منهجية. وقد لامس فانون من خلال الجسد عن قرب شديد وتحدث عن رغبة الزنجي الأسود في الحصول على أوروبية بيضاء حتى يتخلص من خلال ملامستها ومضاجعتها من إحساسه بالدونية لأنه حين يلامسها يحس أنه يلامس كل الحضارة الفرنسية التي يتمنى أن يكون منها.

وهاهو فانون يتحدث على لسان زنجي وما يجول بخاطره تجاه أوروبية بيضاء وهو يتساءل عما قد يحدث له عندما يقترن بأوروبية إذ يقول:"أعلن ليس فقط كرهي لنساء عرقي، بل أكون منجذبا برغبة اللحم الأبيض،المحظور علينا نحن الزنوج الآخرين، منذ أن هيمن الرجال البيض على العالم،فأبذل جهدي،بعناية، لأنتقم لنفسي من أوروبية،ومن كل ما فعله أجدادها بأجدادي على مدى الأجيال" [4] .

---

[1]) المصدر نفسه ، ص. 15

[2]) محمد الميلي : المصدر السابق ، ص. 37 .

[3]) الخبر الأسبوعي : المرجع السابق ، ص. 19 .

[4]) فرانتز فانون: بشرة سوداء أقنعة بيضاء، المصدر السابق ، ص. 76.

ويقول كذلك فانون :" الزنجي الذي حاز على بيضاء يشكل إلاها بالنسبة إلى أبناء جلدته " [1]. لقد تحدث فانون كذلك في هذا الكتاب عن عنصرية " اللغة" إذ يرى أن المستعمر (بكسر الميم) فرض لغته الخاصة على المستعمر (بفتح الميم) ليس من منظور حضاري كما كان يدعي وإنما كي يشغله[2] .

ويقول في ذلك: "تستهدف كل شعب مستعمر – أي على لسان المستعمر (بكسر الميم)– كل شعب نشأت في صميمه عقدة الدونية بسبب دفن الأصالة والثقافة المحلية... فالمستعمر سيكون منفلتا من دغله على قدر ما يعتنق قيم المتروبول الثقافية، وسيكون أبيض على قدر ما يرفض سواده" [3] .

ولعل أكثر شعب مورست ضده العنصرية والقمع هو الشعب الجزائري الذي مارست فرنسا ضده كل أشكال القمع والعنف والاضطهاد والعنصرية بكافة أشكالها وفانون نفسه كان شاهدا على ذلك واعتبر الجزائريين من المعذبين المقهورين في الأرض، ودعاهم إلى استخدام العنف لأن القمع بالتأكيد يولد التطرف [4].

المبحث الرابع: المرأة

لقد كانت المرأة منذ القدم، محطّ اهتمام الكتّاب والمثقّفين والمنظّرين في مختلف أنحاء العالم.وفي البلاد العربية بدأ الاهتمام بها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ألّفوا حولها الكتب الضّافية المتنوّعة التي تناولوا فيها المرأة في جميع جوانبها وبمختلف اهتماماتها.

[1])- المصدر نفسه، ص. 78.
[2]) سعاد شيخاشي: المرجع السابق ، ص. 29 .
[3])فرانتز فانون : بشرة سوداء أقنعة بيضاء، المصدر السابق، ص ص. 20 – 21 .
[4])- ماتيو آن : المرجع السابق.

فكتب عنها المؤلف رفاعة رافع الطهطاوي(1801–1873م) سنة 1872م كتابا بعنوان" المرشد الأمين للبنات والبنين"، وكتب عنها حمزة فتح الله(1849–1918) سنة 1890م كتابا بعنوان" باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام"، أما قاسم أمين (1863–1908) فقد ألّف عنها كتابين" تحرير المرأة" سنة1898م وهو كتاب مشهور أثاّر الكثير من الجدل وآخر ألّفه سنة 1900م بعنوان" المرأة الجديدة".

أما في الجزائر فقد كتب عنها مصطفى الخوجة الجزائري(1865–1917م) كتابان لا يقلان أهميّة عن الكتب التي ذكرت هما" الإكتراث في حقوق الإناث" الذي كتبه سنة 1895م و" اللباب في أحكام الزينة واللّباس" سنة 1907م، ومن تونس صدر كتاب سنة 1930م بعنوان" امرأتنا في الشريعة والمجتمع" لصاحبه الطاهر حداد(1899–1935م)، وفي تونس كتب عنها المصلح عبد العزيز الثعالبي(1876–1944م) كتابا بعنوان "روح التحرير في القرآن"، كما أولاها اهتماما بالغا في أحاديثه وتصريحاته وخطبه[1] وربما يعد الأستاذين محمد عبده وعبد الحميد بن باديس هما أكثر من كتب عن المرأة العربية المسلمة واهتم بقضاياها على الإطلاق في البلاد العربية على الأقل [2] .

وإلى جانب الكتب ظهرت المقالات المتنوّعة التي تهتم بشؤون المرأة كذلك التي كان يصدرها عبد الحميد حمدي من مصر، كذا الشيخ محمد رشيد رضا الذي جمع مقالاته كلها في كتاب بعنوان " نداء إلى الجنس اللطيف". وظهرت الجمعيات والاتحادات السنويّة والمجلاّت الأسبوعيّة، وكلها رفعت لواء تحرير المرأة وضرورة الاهتمام بها، ولعلّ المرأة الأولى التي دافعت عن شؤون مثيلاتها ودعت إلى تحريرهنّ وتعليمهنّ هي السيّدة هدى الشعراوي[3] . وإنطلاقا من هذه المعطيات

[1]- عبد الكريم بوصفصاف: حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس ، المرجع السابق، ص. 498.
[2])المرجع نفسه، ص ص. 496- 499.
[3]) المرجع نفسه ، ص ص. 497- 498 .

تستطيع القول أن المرأة كانت دائما المحور الأساس في اهتمامات الكتّاب والمثقّفين والمنظّرين.

أما الأسباب التي جعلت فرانتز فانون يهتم بالمرأة الجزائرية خصوصا هي التحاقه بالعمل في مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة (1953–1956م) واحتكاكه بالأهالي المسلمين ومعرفته لظروفهم المأساوية كمناضل وطبيب، واهتمامه بأنترو–بولوجيا الجزائر لهذه الأسباب أولى فانون موضوع المرأة الجزائرية المسلمة عناية خاصة في كتبه ومقالاته التي ألفها خلال الخمسينات من القرن العشرين. ومن ثم معرفة الأبعاد الإنسانيّة والاجتماعيّة والروحيّة والاقتصاديّة لوحدة الشعب الجزائري والتفافه حول هويّته، وتمسّكه بشخصيّته التاريخيّة والحضاريّة.

ويعتبر كتابه " سوسيولوجية ثورة"، الذي نشر بعد وفاته بسنتين (1963م) خلاصة معرفة فانون بالجزائر فلقد أورد فيه تاريخ شعب وأبجدية أمّة ظلّت ترفض الأجنبيّ المحتلّ منذ عشرات القرون. استخدم فيه أسلوبا جديدا عليه هو استعمال مصطلحات العلوم الإنسانيّة وقد قيل عن ذلك الأسلوب" لقد أضاف فانون إلى أسلحة سيزر الخارقة أسلحة علمية تحلينفسيّة واجتماعيّة فالمعارضة– في رأيه تصبح– أكثر فاعليّة، إذا ما قامت على التحليل الشامل للواقع المعيش"[1].

وباعتبار المرأة عنصرا أساسا في المجتمع فلقد أولى فانون اهتماما كبيرا لها في كتاباته، مما يدل على أنه أصبح ملمّا بأحوال المجتمع الجزائري ومتغلغلا في أعماقه التاريخيّة والحضاريّة التي لطالما حاول المستعمر طمسها.

لقد كانت المرأة الجزائريّة كأيّة إمرأة تعيش في مجتمع تقليدي متمسّكة بتراثها وأصولها وشخصيتها الجزائرية العربيّة الإسلاميّة. فأدرك الاستعمار الفرنسي أنها

[1]) سعاد شيخاني: المرجع السابق ، ص. 40.

عماد الشخصية الجزائريّة والعمود الفقري في تقويتها، ومن ثم عمل على ضرب هذا الأساس المتين من أجل الوصول إلى مبتغاه وهو إخضاعها لمآربه وأهدافه الاستعماريّة، وكان يحاول باستمرار إقناع المرأة الجزائريّة بالتخلي عن الحايك (الحجاب) باعتباره مقوّما أساسيّا من مقوّمات الشخصيّة العربيّة الإسلاميّة[1]. وبالتخلي عن كل ما يغطيّها ويسترها، لأن الحايك في نظر المستعمر(بكسر الميم) هو صورة من صور التخلف وظلم الرجل لها بإبقائها في المنزل بين أربعة جدران فكان الأمل ينبعث لدى المستعمر (بكسر الميم) مع كل إمرة جزائريّة جديدة تتجرّد من الحايك، وكلّ إمرأة تصبح سافرة هي تعبير على أنّ الجزائر قد بدأت في فقدان شخصيتها– المتعصّبة– وتقبل اغتصاب الاحتلال لها .

ولقد عبّر فانون عمّا كان يجول في خاطر المستعمر (بكسر الميم) الذي كان يقول:" إذا أردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في صميم تلاحم أجزائه وفي خواص مقاومته، فيجب علينا قبل كل شيء اكتساب النساء، ويجب علينا قبل كل شيء اكتساب النّساء، ويجب علينا السّعي للبحث عنهنّ خلف الحجاب حيث يتوارين في المنازل حيث يخفيهنّ الرجل" [2] .

ولكن ردّ فعل الجزائريّات كان عكسيّا، فكلّما زادت فرنسا إصرارا على نشر السّفور داخل أوساط المرأة الجزائريّة، زادت المرأة الجزائرية تمسّكا بأصالتها. لقد كانت المرأة الجزائرية تحير المستعمر (بكسر الميم) فهي لا تستسلم ولا تسفر، ولا تعطي نفسها ولا تذعن له، تراه ولا يراها من وراء حجابها، فكانت تخلق له نوعا من الارتباك النفسي الذي لم يعرف كيف يتخلص منه.

[1]) عبد الحميد حيفري: المرجع السابق ، ص. 52 .
[2]) المرجع نفسه: ص. 54.

وقد عبّر محمّد الميلي عن زيادة وإصرار الجزائريّ على التمسّك بأصوله فيقول:" تؤدي هذه الحرب المطلقة التي شنها الاستعمار على الإسلام في الجزائر إلى رد فعل معاكس تماما، تمسك الشعب بالإسلام والعربية واللجوء إلى أسلوب القنفذ في الدفاع أي الانغلاق والتقوقع حتى لا يجد الاستعمار منفذا للنيل من الشخصية الوطنية>> [1].

لقد تحدث فانون عن كل هذه المظاهر في كتابه سوسيولوجية ثورة[*]. وكيف أصبح الحايك (الحجاب) آلية للمقاومة، إذ زاد إصرار الجزائريات عليه، بعدما أصر الاستعمار على نزعه، ويرى فانون أن جسم المرأة أصبح منذ الحرب الكونية الأولى في هذه الفترة حقلا لمعركة إيديولوجية حقيقية[2] لقد قال عن ذلك الصراع" إن الحجاب...أصبح مدار معركة ضخمة، تعبئ قوى الاحتلال من أجلها،أغزر مواردها وأكثرها تنوعا ويبسط فيها المستعمر (بفتح الميم) من الصمود قوة مذهلة..."[3] .

والحق أن المرأة الجزائرية كانت منذ البداية تحتل أهمية كبرى في الأسرة والمجتمع الجزائري، وكانت الدعوة إلى تعليمها والاهتمام بها دعوة جامحة،ولعلّ العلامة عبد الحميد بن باديس هو أول من نادي بضرورة تعليم المرأة وتثقيفها،فها هو يقول في إحدى محاضراته التي ألقاها في شهر أوت سنة 1929م" إذا أردتم إصلاحها الحقيقي– المرأة– فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها، قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها" لقد كان يعتبرها إحدى أهم مقومات الشخصية الجزائرية[4].

---

[1]) المرجع نفسه: ص. 57.

[*]) تحدث فانون بإسهاب عن تلك المظاهر في الفصل الافتتاحي الذي جاء في كتابه سوسيولوجية ثورة عنوانه " الجزائر تلقي الحجاب"

[2]) Annabelle Gollay, Op. Cit., p. 409.

[3]) محمد الميلي : المصدر السابق ،ص. 137.

[4]) المكان نفسه .

وبالفعل فلقد لعبت المرأة الجزائرية كما يرى فانون دورا فعالا في مسار الثورة التحريرية، هته الثورة التي أحدثت تطورات جذرية في المجتمع الجزائري ككل وفي حياة المرأة بصفة خاصة، والتي ظلت متمسكة بحجابها عندما أرادها المستعمر (بكسر الميم) أن تتخلى عنه. لكنها عندما اقتضت الضرورة أثناء الثورة نزعته وأدت دورها بكل مهارة حتى أن النساء الأوروبيات، أصبحن يخشينها نظرا لأناقتها ولطافتها وجرأتها. وهذا ما دفعهن أحيانا حتى للغيرة منها[1] .

لقد تحولت المرأة الجزائرية كما يري فانون إلى عنصر فعال في فترة الثورة الجزائرية، تقف جنبا إلى جنب مع الرجل في الجبال وأصبحت تعتمد على نفسها وتمشي وحدها، وتتحمل مسؤوليتها في قضاء أمورها، وتزور زوجها أو ابنها أو أخوها في السجن أو المعتقل دون خوف من المستعمر أو من الشارع، فتطورت الروابط الأسرية والقبلية وازدادت تفتحا على الحياة المعاصرة، وانصهر الكل في بوتقة واحدة وهي الثورة الجزائرية[2] .

لقد أصبحت المرأة الجزائرية تنقل البلاغات، وتوصل الأموال إلى المجاهدين في حقيبة يدها، وتنقل الأسلحة والقنابل اليدوية والخطابات[3] وتنظم القصائد والأغاني الشعبية التي ترفع من معنويات المجاهدين[4] وعبّر فانون عن قدرة المرأة الجزائرية على تمويه المستعمر (بكسر الميم) والقدرة على إظهار الاندماج فيه بقوله: "...تتطور المرأة الجزائرية السافرة كالسمكة في المياه الغربية،يبتسم لها العسكريون

[1]) عبد الحميد حيفري : المرجع السابق ، ص. 55.
[2]) محمد شرقي : المرجع السابق ، ص 201.
[3]) فرانتزفانون : سوسيولوجية ثورة ، المصدر السابق ، ص ص. 45. 51.
[4]) عبد الكريم بوصفصاف: جهاد المرأة الجزائرية في ولاية ميلة (1954-1962) ،دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، رمضان 1429هـ/ سبتمبر 2008م، ص. 73.

وتبتسم لها الدوريات الفرنسية وهي مارة...ولكن لا أحد يشك ان في حقيبتها يقبع المسدس أو الرشاش"[1].

أصبحت المرأة الجزائرية تقاوم جنبا إلى جنب مع أخيها الرجل بعدما كانت تتوارى وراءه، على الرغم من الحملات المستميتة التي قام بها المستعمر (بكسر الميم) على الرجل الجزائري لإشعاره بالمهانة لأنه يسجن النساء ويضطهدهن، ويبدأ الحصار عليه من كل مكان حتى في عمله يصبح موضع إنتقاذ من رؤساءه وزملائه الأوروبيين. إذ تتوالى عليه الأسئلة من كل نوع، هل زوجتك سافرة؟ لم لاتصطحب زوجتك إلى السينما والحفلات العامة...الخ؟.

وتستمر محاصرة الموظف الجزائري، فيدعوه مديره في أحد الأعياد كعيد الميلاد أو رأس السنة أو في مناسبة خاصة، بأعضاء الدائرة ويذكره أن يحضر رفقة زوجته [2] ويقف حينها الرجل الجزائري على المفترق، هل يحضرها معه؟ ومن ثم يعرضها للمهانة ويعريها أمامهم ويقبل الذل أم يمتنع عن إحضارها،الأمر الذي قد يعرضه للبطالة [3]. وفي المقابل زادت الجمعيات النسائية التي أسستها الأوروبيات للتضامن مع النساء الجزائريات ومساعدة المعسرات الجائعات. ومن خلال هذا الاحتكاك تحاول النساء الأوروبيات بث سمهن في نفوس الجزائريات، فتقدم لهن النصائح، وتحرضهن على رفض التبعية للرجل وخاصة نزع الحايك للتحرر من سجنه وبالتالي إيجاد مصير جديد أكثر حرية[4]. وقد قال أحدهم ممن يدعون الحداثة والمعاصرة لصديقه: "إنك لم تسبقني إلى المحطة يا صديقي لأنني أتوكأ على ذراع زوجتي، أما أنت فتحملها على ظهرك"[5].

---

[1]) فرانتز فانون: سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق، ص ص . 45-51 .
[2]) المصدر نفسه ، ص ص. 30-31.
[3]) ، المكان نفسه.
[4]) المصدر نفسه ، ص. 29.
[5])- جريدة النجاح ، العدد 500، 20 أفريل1926م.

ولكن الرجل الجزائري يزيد إصرارا على حفظ كرامة زوجته كما يقول فانون والمرأة الجزائرية بدورها تزيد تقوقعا على حجابها وترفض الرضوخ إلى الاستعمار لأنه فقط،أراد ذلك،ويتركز اهتمامها على الوقوف جنبا إلى جنب مع رفيقها الرجل خاصة وأن المعركة أصبحت أكثر حدة تستدعي الحرب الشاملة. وهنا كما يوضح فانون أصبح يطلب من المرأة أن ترفع معنوياتها وقوتها البسيكولوجية الاستثنائية[1] وكانت بالفعل كذلك حتى أن فانون أبدى إعجابه الشديد بكفاحها من أجل الاستقلال فقال: "السيطرة على النفس وانتصار خارق، أبعاد عظيمة حقا" [2] .ظهرت أبعاد جديدة في المجتمع الجزائري خاصة بعد عام 1955م حيث اندمجت النساء في الكفاح، فأصبحت المناضلة تعرف المناضل عن قرب، وقد تضطر للمبيت عند أناس لا تعرفهم،وتسافر وحدها من ولاية إلى أخرى،وقد تقتضي الضرورة فتأوي في بيتها مناضلا في غياب زوجها وبذلك تطورت شخصيتها،وأصبحت لديها وجهات نظر في الكثير من الأمور[3].

فأصبحت المرأة تشترط فيمن يتقدم لخطبتها أن يكون منتميا إلى جبهة التحرير الوطني، وتحضر عقد زواجها، وتوقع عليه بعدما كانت أحيانا لا تستشار حتى في قبوله أو رفضه، وباتت تعتمد على نفسها،وظهرت القوة الحقيقية الكامنة بداخلها كما يري فانون [4] . وهنا وفي هذه الظروف ظهر الرجل العصري الذي لم يعد يري في المرأة مجرد أنثى تنجب له الأطفال، ويقول فانون عن ذلك: "أصبح الزوجان هما الخلية الأساسية للمنزل والنواة الخصبة للشعب، وظهر المواطن الصالح والرجل الوطني، والزوج العصري في آن واحد"[5] .

[1]) فرانتز فانون: سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق ، ص. 40.
[2]) دافيد كوت : المرجع السابق ، ص ص. 84- 85.
[3]) المكان نفسه.
[4]) محمد شوقي: المرجع السابق، ص. 201.
[5]) Annabelle Gollay : Op. Cit. P. 408.

والحق أن تاريخ الجزائر الحديث حافل بالعطاءات النسوية اللواتي ستبقى أسماءهن مخلدة عبر التاريخ أمثال لالا فاطمة نسومر في القرن التاسع عشر أو بطلات القرن العشرين كالجميلات والحواسب والفواطم وغيرهن كثيرات[1] وعلى غرار النساء الجزائريات ظهرت الكثير من الأوروبيات اللواتي اقتنعن بالثورة الجزائرية أمثال جاكلين القروج، وهي معلمة فرنسية متزوجة من معلم مسلم انضمت إلى الثورة الجزائرية رفقة زوجها الذي كان أيضا عضوا في جبهة التحرير الوطني هنا بدأ الأمر يختلط على القوات الفرنسية بين الجزائريات فعلا اللواتي رفعن عنهن الحايك ومثلن دور الأوروبيات بمهارة،وبين الأوربيات الحقيقيات اللواتي انضممن إلى الثورة فراح يتخبط عشوائيا، وهنا فقط أدرك أن المرأة الجزائرية مثلت دورها ببراعة[2] .

هكذا إذن تحدت المرأة الجزائرية كل المعيقات والحواجز،ومثلت بحق الدرع الحصين للثورة، فتمكنت من تأسيس قاعدة للكفاح من أجل الحرية في بيتها وفي قريتها وفي مدينتها على حد سواء. من هذه القواعد بزغ فجر جديد في الجزائر حينما تحولت المرأة الجزائرية بكل أنوثتها الصارخة وروحها المتمردة،إلى امرأة تسابق الرجال إلى ميادين المعركة من أجل النصر والاستشهاد.

نقد واستنتاج:

وخلاصة القول أنّ فرانتز فانون توفيّ تاركا وراءه إرثا فكريا متنوعا برهن على فعاليته في الكثير من المواضيع، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على أنّه كان مثقفا واقعيا واعيا بما يكتب، متعمّقا في القضايا التي مسّت القارّة الإفريقيّة إلى حدّ القدرة على التنظير، فتحدّث عن الاستعمار واعتبره شكلا من أشكال القهر

[1]) عبد الكريم بوصفصاف : جهاد المرأة الجزائرية في ولاية ميلة (1954-1962) ، المرجع السابق ، ص. 69

[2]) Annabelle Gollay : Op. Cit. P.409.

والاستغلال ورمزا من رموز الاضطهاد، وأداة لتشيئ الآخر والإحساس بالدونية والاستلاب بداخله، ودعى إلى ضرورة التخلّص منه باستخدام العنف، لأنّه الوسيلة الوحيدة الناجعة للقضاء عليه. لقد كان فانون يرى أن العنف هو دواء للروح وشفاء لها من مختلف العقد النفسية التي يغرسها الاستعمار بداخله، هذا النظام الاستعماري العنيف الذي لا يمكن مجابهته إلاّ بالعنف، ويرى أنّ طبقة الفلاّحين هي الطبقة الوحيدة القادرة على أن ترفع على كاهلها هذه المهمّة، لأنّها طبقة تعاني الفقر والحاجة وليس لديها ما تخسره، وبالتالي فهي الوحيدة التي تستطيع استخدام العنف للتخلّص من العنف.

كما تحدّث فانون عن المرأة الجزائرية التي رأى أنّها كانت في فترة الثورة الجزائرية الحصن المنيع والدّرع الواقي الذي حافظ على الشخصية الجزائرية العربية المسلمة، على الرغم من محاولات الاستعمار المتكرّرة في كسبها إلى جانبه من خلال دعوتها إلى نزع الحايك (الحجاب) الذي كان يعتبره رمزا من رموز التخلّف، ولكن المرأة الجزائرية كما يرى فانون زادت تمسّكا بذلك الحايك الذي كان بالنسبة لها رمزا لجزائريتها وانتمائها العربي الإسلامي، لكنّها أيضا تخلّت عنه عندما احتاجت إليها الثورة ولبست كالأوروبيات وقلّدتهن لتقوم بمهام صعبة كإيصال القنابل والمناشير والأموال. فظهرت روح جديدة كما قال فانون في الشعب الجزائري وبرزت المرأة الجزائرية بقوّة ونفسيّة جديدة لم تكن معهودة فيها من قبل، وبرز من خلالها مجتمع جزائري جديد اكتسبت فيه المرأة كيانا جديدا.

كما تحدّث فانون عن العنصرية واعتبرها هي الأخرى رمزا من رموز احتقار الإنسان لأخيه الإنسان، وقال أنّها ليست إلاّ عنصرا من نظام استعماري يعتمد على احتقار الآخر وتشييئه وتجاهله، وتحدّث فانون كذلك عن العنصرية التي يمارسها

الأبيض على الزنجي، فيقول أن الزنجي يكافح لأن يكون أبيضا، والأبيض يناضل لأن يثبت تفوقه على الزنجي، ولكن يرفض هذه المعادلة بطرفيها ويدعوا إلى أن يتخلّص كل طرف من البوتقة التي وضع فيها نفسه.

وهكذا إذن يكون فانون قد تحدّث عن مواضيع كثيرة ومختلفة حلّلها وتتبّعها بدقّة ونظّر لها، فكان بحق المثقّف الأكثر وعيا بواقعه.

الخاتمة:

لاشك إن الدارس لمسار الطبيب النفساني والمفكر والمناضل والكاتب المارتنيكي فرانتز فانون ، يجد أنه رجلا ثوري تجاوز هويته الأولى التي ضاقت به إلى هوية أوسع تمتد نحو العالمية.لقد قالت عنه سيمون دي بوفوار أنه من بين أكبر الشخصيات البارزة في وقته.

والحق أن هذا البحث قد كشف لي أنّ الرجال الذين يضحّون بأنفسهم من أجل الآخرين، هم رجال موهوبون يجلّون ويحترمون من كافة أحرار العالم لأنهم ينظرون إلى الإنسان على أنه قيمة من القيم المثلى ينبغي أن يحترم في حريته وفي شخصه وفي وطنه.

وهؤلاء الرجال و النساء هم قليلون في هذا العالم إذا ما قورنوا بالعدد المهول للبشر على الأرض، ومن هذا المنطلق فقد أدركت أن فرانتز فانون عاش ومات من أجل المضطهدين من كافة الأجناس، دون أن يفضل الأسود على الأبيض، أو الأبيض على الأسود، فالناس عنده يتساوون أمام الحق والعدالة والحرية، ولذلك لم أعد أستغرب من أنّ إنسانا من شعب آخر ومن دماء أخرى ومن جغرافية أخرى يضحي من أجل الآخرين حيث وجد هؤلاء الآخرون في الشرق أو في الغرب، في الشمال أو في الجنوب.

كما استخلصت من جهة أخرى أنّ الثورة الجزائرية والثورة في إفريقيا بصورة عامة، كانت ثورات إنسانية قبل أن تكون ثورات العنف والنار والدماء، لأنها انطلقت بدافع استرجاع الحرية والكرامة لشعوبها قبل أن تجبر على الحرب، ولذلك استقطبت كل أحرار العالم من الإنسانيين و الديمقراطيين الحقيقيين في العالم.

ويمكن تلخيص النتائج الاخرى التي توصلت إليها في النقاط الآتية:

أولا: أن فرانتز فانون رجلاً تجاوز هويته الأولى الضيقة إلى هوية أوسع امتدت نحو العالمية، إذ انتقل من جزيرته الصغيرة المارتينيك إلى الجزائر من أمريكا الوسطى إلى القارة الإفريقية، من حياة الهدوء والاستقرار والرغد إلى حياة الكفاح والنضال والبحث عن الحرية.

ثانيا: لقد أدركت أن فانون طبيبا أعاد اكتشاف الإنسانية بطريقة أخرى ومضمون آخر وبشكل آخر، ولم تكن مهنته سوى طريقا لمعرفة الآخر وتحريره من عقده ومعاناته، لأنه كان يؤمن أن الحرية هي الطريق الوحيد لشعور الإنسان بكرامته، وخاصة بعد التحاقه بمستشفى البليدة بالجزائر في 22 من شهر أكتوبر سنة 1953م، حيث اندمج مع الجزائريين وعالجهم بعدما أدرك استفحال ظاهرة الجنون والأمراض النفسية والهيجان الذي كان يزداد يوما بعد يوم نتيجة للممارسات الاستعمارية العنيفة ضد الجزائريين.

ثالثا: لقد لمست أن فرانتز فانون لا يستند إلى التنظير فقط بل زاوج بين النظرية والتطبيق في كافة المجالات التي عاش خادما لقضاياها، ولعلّ خير دليل على ذلك فكرته حول إنشاء جبهة جنوبية سنة 1960م لتدعيم الجزائر بالسلاح والرجال من مالي

رابعا: عرفت أن كتابات فرانتز فانون قد أدحضت الكثير من آراء الأطباء الفرنسيين وعلى رأسهم بورو(porot)، التي تصف الأفارقة بالتخلف والبدائية والرجعية، وعدم القدرة على تقبل أي جديد وأن ذلك وراثي، فأكد فانون عدم صحّة هته النظريات من خلال كتاباته في مجلّة الوعي المغاربي سنة 1958م، وبرهن

على أنّ سبب تخلّف الأفارقة هي تلك الممارسات الاستعمارية الوحشية وبذلك صحّح فرانتز فانون صورة الأفارقة أمام العالم وعبّر عن إحساسه وانتمائه الإفريقي.

خامسا: لقد أدركت أن فانون قد فضح الاستعمار وتأكّد أنّه لا يمكن اقتلاعه بالإقناع وأكّد على ذلك خاصّة في كتابه" معذّبو الأرض"، كما أكّد في كتاباته الأخرى أن الاستعمار نظام أساسه العنف، وأنه استدمار، وهو يتفق في ذلك مع كل من سيزر وألبير كامي اللذين عبّرا في كتاباتهما عن الاستعمار بالاستدمار، ووضّح فانون في كتاباته الآثار الجسدية والنفسية والاجتماعية التي يخلفها هذا النظام الاستعماري الهدّام في نفوس المستعمرين، ودعى إلى ضرورة التخلّص منه بالعنف الثوري عنف التحرّر والإنعتاق، وأكّد أنّه الخيار الوحيد للقضاء على النظام الاستعماري الوحشي.

سادسا: لقد استخلصت من خلال هذا البحث أنّ فانون أدرك عمق الثورة الجزائرية وتأثيرها على الثورات في إفريقيا، إذ جذبته نحوها وأخرجته بقوة إشعاعها وصمود شعبها ووضوح مسارها من الدائرة الفرنسية، لتقذف به العمق الجزائري.

سابعا: لقد أكّد فانون في أكثر من مناسبة على التغيير الجذري الذي أحدثته الثورة الجزائرية في المجتمع الجزائري، خاصّة فيما يتعلق بالمرأة التي اندمجت وبشكل غير مسبوق في المجتمع من خلال مشاركتها في الثورة بكل الوسائل، حيث كانت الحجاب الواقي والحصن المنيع الذي دافع عن الهوية الجزائرية العربية الإسلامية كما سلف الذكر ووضح هذا الدّور خاصّة في كتابه" الثورة الجزائرية في عامها الخامس."

وجملة القول أن فرانتز فانون خدم الثورة في إفريقيا وخدمته وأحبّهاوأحبته لأنه كان واحدا من أبناءها، قبل أن يكون مناضلا من مناضليها ومفكّرا من مفكريها، وكانت البوابة الرئيسية التي فتحت له المجال لكي يعود إلى وطنه الأصلي ويتخطى حدود الإقليمية إلى العالمية ، هي الثورة الجزائرية بمبادئها الإنسانية وبروح العدالة فيها، لكيّ ينضم إلى صفوف الأحرار في القارة السمراء، فعاش مناضلا ومات مناضلا وثوريا مفكرّا وفاضت روحه في أمريكا ولكنه دفن في الأرض التي أحبّها وأحبته وأوصى بأن يوارى جثمانه في ترابها، ألا وهي الجزائر التي لم تنساه وقد خلّدت اسمه على لافتات مؤسساتها و شوارعها و ساحاتها.

المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

ا - الكتب

أ- باللغة العربية:

1. **الميلـي محمـد** . فرانتـز فـانون والثـورة الجزائريـة، الشـركة الوطنيـة للنشـرة والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ.
2. **فانون فرانتز**. بشرة سوداء أقنعة بيضـاء، الفـارابي، الطبعـة الأولـى، منشـورات ANEP، الجزائر: 2004.
3. **فـانون فرانتـز** . معـذبو الأرض، ترجمـة السـيدة منـور' مـوفم للنشـر، الجزائـر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية 1990.
4. **فـانون فرانتـز**. مـن أجـل إفريقيـا، ترجمـة محمـد الميلي،الطبعـة الثانيـة، الشـركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.1980 .
5. **فانون فرانتز**. سوسيولوجية ثورة، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ،1970.

ب- باللغة الفرنسية:

1- **Cherki Alice.** Frantz Fanon portrait, éditions du seuil, paris septembre 2000.

paris, 2- **De Beauvoir Simone.** La force des choses, Gallimard 1965.

3- **Malek Redha**. L'Algérie à Evian (histoire des négociations secrètes 1956-1962), éditions Dahlab, 1995.

II/ المقالات:

أ- باللغة العربية:

1- **المجاه**د: العدد 88، الصادر في 21 ديسمبر 1961م.

2- **المجاهد**: العدد 34, الصادر في 24 ديسمبر 1958م.

3- **شولي بيارو كلودين**. مداخلة في الملتقى الوطني الثالث" فرانتز فانون: الاستعمار جريمة ضد الإنسانية"، مديرية الثقافة لولاية الطارف ، مطبعة المعارف،عنابة.2006 .

ب- باللغة الفرنسية:

1- **Chaulet pierre**. Frantz fanon, si proche… », revue pratique psychologique, volume 1.N°23, édition institut national de la santé publique, Alger, 2003.

2- **Despinoy Maurice** .Entretien in Revue sud-nord, No 22, Edition ERES, 2008.

3- **Fanon Josie** .Entretien in Revue Révolution africaine, N° 1241, 11- 12- 1987.

4- Les cahiers de l’histoire de la 1re république française (1945-1958), N°48, aout 1965.

ثانيا: المراجع:

I/ الكتب:

أ- باللغة العربية:

1) **أدو بـواهن ألبيـر** . تـاريخ إفريقيـا العـام، (الفصـل الثلاثـون ، الاسـتعمار فـي إفريقيا، آثاره ومغزاه)، المجلد السابع ، يونسكو و أديفرا ، لبنان ، 1990.

2) **أزغيدي محمد لحسن.** مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962، للمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر,1989.

3) **اسـحاق محمـد عبـد العزيـز**. نهضـة افريقيـة، الهيئـة المصـرية العامـة للتـأليف والنشر، مصر، 1971 .

4) **الديـدي عبـد الفتـاح**. الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ،1966.

5) **الزبيـري العربـي**. المثقفون الجزائريون والثورة، منشورات المتحف للمجاهد، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1995.

6) **الشيخ سليمان**. الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين (دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلّحة)، ترجمة محمد حافظ الجمالي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.

7) **بخـوش الصـادق** . مـذكرات الرائـد سـي لخضـر بورقعـة، شـاهد علـى اغتيـال الثورة، ط2، دار الأمة، 2000.

8) **بوحـوش عمـار**. التـاريخ السياسـي للجزائـر مـن البدايـة ولغايـة1962، الطبعـة الثانية،دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005.

9) **بلحاج صالح** . تاريخ الثورة الجزائرية،دار الكتاب الحديث، 2008.

10) **بلغيث محمد الأمين** . تاريخ الجزائر المعاصر (دراسات ووثائق)، ط1، دار البلاغ، الجزائر العاصمة، ودار ابن الكثير، بيروت-لبنان، 2001.

11) **بن نبي مالك**: مشكلات الحضارة فكرة الإفريقية الآسيوية (في ضوء مؤتمر باندونغ)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة، القاهرة، بدون تاريخ.

12) **بوصفصاف عبد الكريم** . جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931-1945) دراسة تاريخية وإيديولوجية مقارنة، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1996.

13) **بوصفصاف عبد الكريم** . حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس وأبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسي1940-1949، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2007.

14) **بوصفصاف عبد الكريم** . جهاد المرأة الجزائرية في ولاية ميلة (1954-1962) دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، سبتمبر 2008م .

15) **حلمي محروس إسماعيل**. تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر من الكشوف الجغرافية إلى قيام منظمة الوطنية الإفريقية، ج1، ج2، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 2004.

16) **حمدي أحمد** . الثورة الجزائرية والإعلام، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر ،1995.

17) **حيفري عبد الحميد** . فرانتز فانون، بعض ملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته، الجزائر،2007.

18) **دحلب سعد**. المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر، منشورات دحلب، بدون تاريخ.

19) **رياض زاهر**. جنوب افريقيا، دراسة سياسية واقتصادية، دار المعرفة، بدون تاريخ.

20) **ستون جاك جولد وآخرون**: ثورات أواخر القرن العشرين، ترجمة وتحرير مالك عبيد أبو شهيوة، محمود محمد خلف، الطبعة الأولى،دار الرواد ليبيا.

21) **سعد الله أبوقاسم** . منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1976.

22) **سـزير ايميـه**. خطـاب حـول الاسـتدمار،ترجمة ميشـال سـطوف منشـورات ANEP، الجزائر،2007.

23) **شيخاني سعاد**. فرانتز فانون، رؤيته لدور الكاتب والأدب الإفريقي باللغة الفرنسية،الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي، بيروت،لبنان،1982.

24) **عبد العزيز سليمان نوار** ، عبد المجيد نعنعي: التاريخ المعاصر أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت: بدون تاريخ.

25) **عمراني عبد المجيد**. جان بول سارتر والثورة الجزائرية، مكتبة مدبولي، بدون تاريخ.

26) **فوتييه كلود**. إفريقيا للافرقيين، ترجمة احمد كمال يونس، دار المعارف،القاهرة، مصر.1978.

27) **قاليسو رنيه وباديا جلبير**. الماركسية والجزائر، ترجمة جورج الطرابيشي، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت،1978 .

28) **قداح نعيم**. التمييز العنصري وحركة التحرير في إفريقيا الجنوبية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.

29) **كوت دافيد**. فرانتز فانون، ترجمة عدنان كيالي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، طبعة الأولى،1971.

30) **رولف ايتا ليندر**. عشرة رجال من إفريقية حياتهم، أعمالهم، أهدافهم، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، بدون تاريخ.

31) **لنين فلادمير اليتش** . محاضرة عن ثورة 1905، المختارات، المجلد الثالث.

32) **لومومبا باتريس** . بلدي "الكونغو"، ترجمة ج هيث، لندن،1962.

33) **ماكسيمنكو فلادمير**. الانتلنجسيا المغاربية (المثقفون أفكار ونزعات)، ترجمة عبد العزيز بوباكير. الطبعة الأولى، دار الحكمة، دار النهضة، الجزائر 1984.

34) **مامي ألبير**. صورة المستعمر، ترجمة ميشال سطوف، منشورات ANEP، 2007.

35) **خالفة معمري**. عبان رمضان، ترجمة زينب زخروف، منشورات تالة، الجزائر، 2007.

36) **ووديس جاك**. نظريات حديثة حول الثورة، تعريب محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت, 1978

ب- **الرسائل الجامعية:**

1) **السمان غادة**. فرانز فانون، الازدواجية والاستعمار (جنوب افريقيا كحالة دراسة)، رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، فلسطين،2006.

2) **بوعبدالله عبد الحفيظ**. فرحات عباس بين الادماج و الوطنية(1919- 1962)، رسالة ماجستير جامعة باتنة، 2006.

د- المقالات:

1) **النجاح** ، العدد 500، 20 أفريل1926م.

2) **بن سعيد أحمد لخضر**. وداعا أيمي سيزر الرّمز(أحد أعظم مناهضي الاستعمار والعنصرية في القرن العشرين)، الخبر الأسبوعي، العدد 515 ، الصادر من 7 إلى 13 جانفي 2009.

3) **بيتر لويد** : افريقيا في عصر التحول الاجتماعي، ترجمة شوقي جلال، العدد 28، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، أفريل 1980م.

4) **بيوس ديالو** . " حوار مع آخر عمالقة الزنوجية الشاعر إيمي سيزير" مجلة جون افريك بالعربية، العدد، 2 اوت 2004.

5) **سعودي محمد عبد الغني**. قضايا إفريقية، عالم المعرفة، العدد 34، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت

6) **شرقي محمد**. كتاب مشروع المجتمع في تصورات النخبة السياسية الجزائرية المعاصرة، المجتمع الجزائري في تصور فرانتز فانون (1953-1961) الطبعة الأولى، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية،جامعة منتوري قسنطينة، ، مطبعة بغيجة،الجزء الثاني، 2008 .

هـ- الملتقيات:

1) **بورغدة رمضان**. ثورة التحرير الجزائرية والاستعمار الفرنسي، المنطلقات، الحقائق والأبعاد، أعمال الملتقى الدولي الأول حول تاريخ الثورة الجزائرية، جامعة 20 أوت 1955 ، 11 -12 ديسمبر 2006، سكيكدة .

2) **حساني عبد الكريم** . مداخلة أثناء الملتقى الوطني الثالث" فرانتز فانون ، الاستعمار جريمة ضد الإنسانية"، مديرية الثقافة لولاية الطارف ، مطبعة المعارف،عنابة.

و- ويبوغرافيا:webgraphie

1) **أوستين دفيد**. تشخيص فرانتز فانون ، مقال على الموقعhttp://www.org/06reports/061115daustin.html . تاريخ الاطلاع في2009/01/26

2) **حيدر صفوان** . لأجل الثورة الإفريقية، زمن الأحلام المثالية بتوحيد المستعمرين في العالم، مقال على الموقع

http://www.maaber.org/issue_february07/books_andreadings2.htm تاريخ الاطلاع في 2009/02/02 م.

3) **سلمان عبد العظيم صالح** . خمسون عاما على رحيل فرانز فانون ، مقال على الموقع 890 http://www.diwanalarab.com/spip.php؟auteur. تاريخ الاطلاع في 2009/03/03م.

4) **آن ماتيو** . من العبودية إلى العالمية فرانتز فانون : جواب المضطهدين، مقال على : http : www .alqabas.com.kw./temp/issus/355c3002.تاريخ الاطلاع في 2009/05/16م.

ج- **الموسوعات:**

1) **أبو حجر أمنة**. الموسوعة الجغرافية لبلدان العالم، دار أسامة للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، الأردن – عمان .2008

2) **الكيالي عبد الوهاب**. موسوعة السياسة، ج1، ط4، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1999.

3) **الكيالي عبد الوهاب**. موسوعة السياسة، ج4، ط4، بيروت، لبنان، .1999

4) **مان ميشال**. موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهوّراي وسعد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، مصر،1990.

ب- **باللغة الفرنسية**

أ- الكتب

1) **Gauchet et Alexis marie**. la France coloniale, A. mame et fils, tours, 1888
2) **Harbi Mohamed.** le FLN mirage et réalité des origines à la prise du pouvoir (1945-1962), éditions J.A, paris 1980.

3) **Hocine Nouara.** Les intellectuels Algériens Mythe, mouvance et anamorphose, éditions DAHLAB et ENAG, Alger 2005.3
4) **Ibrahimi Ahmed Taleb.** De la décentralisation à la révolution culturelle : (1962-1972), Alger : SNED.
5) **Janson Colette et Francis.** L'Algérie hors la loi, paris, éditions du seuil, 1955.
6) **Joseph Mornet.** Sartre et fanon, N°89, VST, 2006.
7) **Mahfoud kaddache**. Histoire du nationalisme Algérien ,2éme édition ; Tome 2, Enai, Alger.
8) **Lucas Philippe**. sociologie de Frantz Fanon contribution à une anthropologie de la libération, SNED, 1971
9) **Teguia Mohamed**. L'Algérie en guerre, office des Publications universitaires, Alger ,1988.
10) **Verger Françoise**. Abolir l'esclavage, une utopie coloniale, les ambiguïtés d'une politique humanitaire, Albin Michel, 2001.

1) ب-**المقالات**:

1. **Ayme Jean**. entretien In revue sud- nord. N 22, édition Eres, 2007.
2. **Chefai-salhi houria**. Un tragique destin, Revue Sud-Nord, N22, édition Eres , 2007.

3. **Gollay Annabelle**. Féminisme et post colonialisme (Beauvoir, fanon et la guerre d'Algérie), international journal of francophone studies, volume 10, numero3, 2007.

4. **Vidal Dominique** : les (traitres) qui sauvèrent l'honneur de la France, le monde diplomatique, septembre 2000.

ويبوغرافيا web graphie :

1- **Chaulet achour Christiane.** Le flamboyant et le guerrier silex aimé Césaire et Frantz fanon, disponible sur "htpp://www.christianeachour.net", consulté le 20/01/2009

2- **Stora Benjamin**. la vie de Frantz fanon, et la guerre d'indépendance Algérienne, in (pensé aujourd'hui avec Frantz fanon), actes du colloque fanon, CSPRP-université, paris 7, février 2008 édition on ligne disponible sur "http:// www.csprp.univ-paris-diderot.ffactes_fanon.html, consulté le 04/01/2009

3-**Murand Numa**. psychiatrie et politique, Frantz fanon a Blida, in (pensé aujourd'hui avec Frantz fanon), actes du colloque fanon, CSPRP-université, paris 7, février 2008 édition on ligne disponible sur "http:// www.csprp.univ-paris-diderot.ffactes_fanon.html, consulté le 04/01/2009.

فهرس الأعلام:

-أ-

- آزولاي: 25.
- الأشرف مصطفى: 42.
- البجاوي: 33.
- الثعالبي عبد العزيز: 146.
- الديدي عبد الفتاح: 24.
- السمان غادة: و.
- الشعراوي هدى: 146.
- الصالح محمد: 27.
- الميلي محمد: و، 14، 49، 50، 114، 148، 157.
- الوانشي صالح: 33.
- أمين قاسم: 145.
- انجلز: 74، 94، 129.
- أوري: 18.
- أوسرل: 24.
- أوصديق بوعلام: 102.
- أوصديق عمر: 72، 102.
- أوغستين: 52.
- أولومبي: 96.
- أوليفي: 19-32، 113
- آيت أحمد حيسن: 42.
- آيم جون:29، 32، 33.

-ب-

- بازي صفية: 41.
- بلحسن: 73.
- بلفرج أحمد: 58.
- بلقاسم كريم: 48، 55، 59،67، 72، 98.
- بلمهيدي العربي: 63.
- بلميهود مريم: 41.بومنجل أحمد: 21، 50، 86.
- بلونيس: 53.
- بن باديس عبد الحميد: 146، 149.
- بن بلة احمد: 42، 67.
- بن خدة بن يوسف: 21، 47، 49، 60، 73.
- بن صالح محمد: 47، 55.
- بن طوبال لخضر: 48
- بن نبي مالك: 122.
- بن محمد البشير :
- بن يحي محمد الصديق: 72.
- بوالصوف عبد الحفيظ: 48.
- بوحيرد جميلة: 51.
- بوخروبة محمد: 107.
- بورقيبة لحبيب: 48، 61.
- بورو: 29، 143.
- بوزيدة: 50.
- بومدين هواري: 72، 73، 107.
- بويا: 87.
- بيار بيلان ديسنامبوك: 02.

- بيتان: 08.
- بوانييه هفويت: 83،84،85، 94، 115.
- بوبوف: 28.
- بوتخين: 134.
- بوتفليقة عبد العزيز: 98، 107، 109، 114، 118.
- بودربة أحمد ناني: 142.
- بوضياف محمد: 42، 68، 98.
- بيجو: 125.

-ت-

- تريشين: 28.
- تشومبي موريس: 102، 103.
- تورتي: 09.
- توسكال: 18، 19، 24، 33، 50.
- توريس موريز: 51، 70.
- توشاي بان: 61.
- تونغ ماوتسي: 49، 61، 128.
- تيميست: 28.
- تين: 137.

-ج-

- جاك ديباركي: 02.
- جوبي: 07.
- جوزيف ماري: 32.
- جونسون فرانسيس: 33، 41، 44، 45، 47، 52،90، 97، 100.

- جيدنز: 35.
- جيفارا أرنيستوا شي: 13، 49، 134.

-ح-

- حداد الطاهر: 146.
-حمدي عبد الحميد :146 -خ-

- خان لمين: 73.
- خوجة مصطفى: 146.
- خيضر محمد: 42

-د-

- دافيز: 35.
-دباغين لمين: 60.
-دحلب سعد: 21، 61.
-دمونتانيه: 125.
-دوبلاي: 19.
-ديبوا: 94.
-دي بوفوار سيمون: 114، 47، 135،154.
-دي توكفيل: 34.
-ديسبينوي موريس: 18.
-ديشوم: 17، 18.
-ديغول: ل، هـ، ط، 09، 13، 59، 65، 68، 70، 71،80،81، 82، 83،84، 85، 86، 101.
-ديوب داوود: 15.
-ديوب غليون: 16.

-ر-

-رضا رشيد محمد: 146.
-روبار: 08، 09، 58،
-روسو جون جاك: 128.
-رينان: 137، 138.

-ز-

-زيرا شارل: 110.

-س-

- سارتر جون بول: 02، 14، 15، 16، 30، 46، 47،90، 100، 101، 112، 130، 144.
- ستورا بنجامين: 111.
- سنغور ليوبولد: 16، 19، 20، 78، 84 ،85.
- سوريل: 127.
- سونشاز فرونسوا: 25.
- سي الحواس: 108.
- سيزار إيمي: 02، 07، 12، 13، 14، 15، 16،82 ،83، 84، 114، 119، 120، 129، 132، 140، 144، 147، 155.
- سيكوتوري: 13، 78، 84،85، 86، 87، 94.

-ش-

- شاركي أليس: و، 09، 21، 41، 54، 73.
- شريط عبد الله: 50، شريف محمد: 61.
- شريف محمود: 61.
- شنتوف عبد الرزاق: 50، 72
- شولشر: 06، 07.

- شولي بيار: 32، 41،48، 50،52، 53، 54.
- شولي كلودين: 05، 107، 109، 143.

- شيني: 61.

-ص-

- صالان: 11، 65.

-ط-

- طهطاوي رافع رفاعة: 145.

-ع-

- عباس فرحات: 57، 59، 67، 98، 131.
- عبان رمضان: 21، 48، 49، 50، 65.
- عبد الرحمان عزيز: 28.
- عبد الناصر جمال: 67.
- عبده محمد: 146.
- عميروش: 108.

-غ-

- غايار فليكس: 70.
- غالليباردي: 13.

-ف-

-فاجيه: 138.
-فارس: 48.

-فانون: أ، ب، ج، هـ، و، ز، ح، ط، ي، 01، 04، 05، 06، 07، 09، 10، 11، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 28، 29، 30، 31، 32، 33، 35، 38، 39، 40، 41، 44، 45،47،48،49 84، 49، 50، 51،52، 53، 54، 55، 56، 57، 58،59، 60،61، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 70،71، 72، 73، 74، 75،76،77، 78، 79، 80، 81، 82، 83، 84، 85، 86، 87، 88، 89،90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 101، 102، 103، 104، 105، 106، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 115، 116، 117، 118، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 137، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 146، 147، 148، 149، 153، 154، 155، 156، 157.

- فتح الله حمزة: 145.
- فيري جول: 139.
- فيليكس : 09.

-ق-

-قاسي: 50.

-قروج جاكلين: 152.

-ك-

-كابرال أملكار: 133.

-كاترو: 42.

-كاروتارز جي ساي: 143.

-كاسترو فيدال: 99.

-كامي: 45، 46.

-كايتا موديبو: 109، 110، 133.

-كزمير: 05.

-كوت دافيد: و.
-كولمب كريستوف: 01.
-كونوللي: 131.
-كونيون جورج: 27، 42.
-كينياتا جومو: 78.

-ل-

-لاكاتون: 30.
-لاكوست روبار: 32.
-لدغم الباهي: 55.
-لوكا فيليب: و، 15.
-لومبا: ط، 79، 88، 89، 92، 102، 103، 104، 106، 115، 116،
-لينين ليونور: 04.
-:49، 95، 133.

-م-

- مارتان: 01.
- ماركس: 14، 34،94، 120، 128.
- ماري: 114.
- مالرو: 14، 82.
- مالك رضا: 50.
- مانفيل مارسيل: 07، 09، 10، 16، 114.
- مامي ألبير: 120، 130، 140.
- مانوني: 119، 137.
- مانيو لان: 55.
- مبويا توم :75.
- محمدي السعيد: 72.

- محمد الخامس: 61.
- مزهودي إبراهيم: 50.
- مسلي فضيلة: 41.
- مصالي الحاج: 53.
- مصطفاوي شوقي: 86.
- منجلي علي: 113.
- موريس أندري: 65
- موزول: 14.
- موساوي محي الدين: 50.
- موليه غي: 28، 42.
- موميي فيليكس: ط، 75، 78، 87، 106، 115، 116
- موني: 15.
- ميراي: 16.
- ميرلو بني: 24.

-ن-

- نجي نجوين: 130، 131، 133.
- نسومر لالا فاطمة: 152.
- نكروما كوامي: 14، 37، 75، 78، 87،89، 90، 94، 135.
- نيجار جليس: 87.
- نيتشه: 13.

-هـ-

- هتلر: 124.
- هوسفلد: 05.
- هولدن روبرتو: 75، 88، 115.

- هيجل: 14، 94، 143.
- هيرسون: 125.
- هيوم دافيد: 137.

-و-

-وديس جاك: 130، 131.

-ي-

- يزيد محمد: 21، 67.

فهرس البلدان والأماكن:

-ا-

- اثيوبيا: 79، 98.

- أديس أبابا: 91.

- آسيا: د، 68، 122، 139، 140، 155، 157.

- افريقيا: ب، د، ز، ح، ي، 02، 07، 08، 11،16، 37، 39،48،40،57، 58، 66، 68، 71، 73، 74، 75، 76 ،78،79،80، 81 ،84، 85، 86، 87، 89، 90، 91، 92، 95،96 ،97،98، 100، 102، 104، 105، 106، 107، 108، 109، 110، 112، 114، 115، 118، 119، 122، 130، 132،133، 135، 139، 140، 155 ،156، 157، 158.

- افريقيا الشمالية: 91.

- افريقيا الغربية: 85، 95، 98.

- افريقيا الوسطى: 97، 80

- افريقيا جنوب الصحراء: ط، ي، 91، 155 .

- الاتحاد السوفياتي: 11، 98.

- الأنتيل: ح، 1، 04، 08، 09، 11، 17، 62، 63،82 ،83، 84، 85، 89، 98، 105، 115، 119، 126 .

- أكرا: 75، 87، 88، 89، 91 ،92، 98، 108، 123.

- ألزاس: 11.

- ألمانيا: 09، 136.

- المحيط الأطلسي: 01.

- أمريكا: أ، د، و،56، 75، 118.

- أمريكا اللاتينية: 122، 139، 140،155.

- أمريكا الوسطى: ج، 01.

- أنغولا: 87.

- أوربا: ط، 24، 48، 75، 91، 119، 132، 140.

- إيران: 115.

- ايطاليا:09، 11 33، 34 .

-ب-

- البليدة: ب، د، ح، 20، 21، 29، 30، 31، 33، 39، 40، 41، 54، 55، 62، 66، 75،77 79، 80، 91،146، 155.
- باماكو: 102، 109، 110.
- باردو :55.
- باريس: 29، 32، 33، 44، 60 ،63، 64، 81، 123.
- بجاية: 11.
- برازفيل :80.

- برازيل: 100، 101.
- برتغال: 67، 104.
- برلين: 37، 78، 118.
- برست: 08
- بريطانيا: و، 34، 77، 115.
- بوسعادة: 108.
- بلجيكا: 102، 103، 104.

-ت-

- تنزانيا :87.
- تشاد: 79.
- تمنراست: 110.
- توغو: 79، 97.
- توغولاند: 109.
- تونس:44، 47،49،50 ،54،55، 57 ،59،63، 65، 68، 76، 77، 79، 80، 81، 91، 108، 110، 111، 112، 113، 141، 146، 155.

-ج-

- جابون: 79.
- الجزائر: ج، د، ز، ح، ط، 11، 20، 21، 22، 26، 30، 31، 32، 33، 39، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51،52 ،53، 54،55،56 57، 58، 59، 60 ،62، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 73، 76، 78،79، 80، 81، 82، 84 ،86، 87، 89، 93، 94، 98، 99، 100، 101، 102، 105، 108، 111، 113، 114، 115، 121، 124، 125، 126، 131، 143، 146، 147، 148،151 ، 152، 154، 156.

- جنوب إفريقيا:76 ،67، 99، 104، 115، 136.
- جاو: 110.

-ح-

-الحبشة:77.

-د-

- داهومي: 79.
- دول: 17.
- دومينيك: 01، 09.

-ر-

- روديسيا: 87، 92.
- روسيا: 77، 133.
- روما: 57 ،58 ،89،90

-ز-

-زائير: 79.

-زنجبار: 131.

-س-

-ساحل العاج: 79، 83 ،85، 109، 115، 133.

-ساقية سيدي يوسف: 73.

- سان بيار: 02.
- سان لوسي: 01.

- سنغال: 19،79، 85، 94، 109.
- السودان: 79، 85، 94، 110، 131.
- سويسرا: 33، 101.
- سيراليون: 79.

-ش-

- شمال إفريقيا: د، 20، 21.

-ص-

- الصحراء: ب.
- الصومال: 79، 131.

-ط-

- طنجة: 59.

-ع-

- عين الكرمة: 113.

-غ-

- غارديماو: 112، 113.
- غانا: ط، 74، 79، 86، 94، 98، 109، 110، 155.
- غينيا: 79، 86، 109، 133، 142.

-ف-

- فرنسا: أ، ج، د، 02، 03، 04، 06، 08، 09، 10، 11، 13، 15، 16، 17، 18، 20، 22، 25، 29، 30، 32، 33، 39، 42، 44، 45، 46، 55 53،54، 57،63 ،65،66،68 ، 69، 70، 71، 72،

76،77 78، 79، 80 ،81، 82، 83، 84، 86، 87،93 ،94، 99،
101، 102، 105، 109، 114، 115،126، 140، 141،
144،145 ،148، 154، 156.

- فلسطين: 136.
- فوردوفرانس: 02، 08، 10، 14، 82، 84.
- فولتا العليا: 79،94.

-ق-

- قرصيف: 11.
- قسنطينة: 21، 22، 71.
- قوادالوب: 04.

-ك-

- كاتانجا: 102، 103.
- كاساي: 102.
- الكاف: 54، 63، 115.
- كامرون: 79، 106.
- كرايبب: 01، 02، 61.
- كوبا99.
- كوت ديفوار: 83.
- كوناكري: 91، 94، 102.
- كونغو: 80، 83، 88، 102، 103، 104، 107.
- كونغو برازافيل: 79.
- كينيا: 87، 92.

-ل-

- لوزان: 18، 101.

- ليبيا: 79، 131.
- ليوبولد فيل:92 ، 102.
- ليون: 14، 16، 19، 62، 79، 141.

-م-

- مارتينيك: أ، ز، ح، 01، 02، 03، 05، 06، 07، 09، 11، 12، 40، 45، 62، 79 ،80، 83،111، 126، 140، 141، 156.
- ماريلاند: 113.
- مالي: 79، 94 ، 107، 109، 110.
- مدغشقر: 79.
- مستغانم: 71.
- مصر: 58 ،59، 79، 131، 146.
- المغرب: 11، 21، 32، 49، 50، 57 ، 58، 65، 79، 81، 100، 107، 108.
- منغوليا: 61.
- منوبة: 54، 55.
- موريتانيا: 79.
- موسكو: 61، 111.

-ن-

- نورموندي: 20.
- النيجر: 79.
- نيجيريا: 79، 94، 109، 133.

-و-

- الولايات المتحدة الأمريكية: 100 ،104،، 112.
- واشنطن: 112، 113.

- وهران: 11، 21، 22.

-هـ-

- الهند الصينية: 119.

-ي-

- اليابان: 77.

المقدمة ..... أ

الفصل الأول: فرانتز فانون البيئة والحياة ومفهوم الثورة

المبحث الأول: البيئة الجغرافية والاجتماعية.....01

المبحث الثاني: مولده ونشأته 04

المبحث الثالث: فانون من فرنسا إلى الجزائر 20

المبحث الرابع: مفاهيم حول الثورة في إفريقيا.....34

نقد واستنتاج:.....38

الفصل الثاني: فرانتز فانون والثورة الجزائرية

المبحث الأول: فانون واندلاع الثورة التحريرية الجزائرية.....40

المبحث الثاني: فرانتز فانون يلتحق بقيادة الثورة الجزائرية في تونس 47

المبحث الثالث: فانون يخدم القضية الجزائرية من تونس 55

المبحث الرابع: فانون والحكومة الجزائرية المؤقتة.....66

نقد واستنتاج:.....75

الفصل الثالث: نضال فرانتز فانون من أجل إفريقيا

المبحث الأول: التحاق فانون بالثورة في إفريقيا 78

المبحث الثاني: إسهامات فانون في المؤتمرات الإفريقية.....86

المبحث الثالث: فانون منظرا للثورة في إفريقيا.....92

المبحث الرابع: فانون من التنظير إلى التنفيذ.....98

المبحث الخامس: وفاته.....110

نقد واستنتاج:.....115

الفصل الرابع: تنظيرات فرانتز فانون في بعض القضايا الحاسمة

المبحث الأول: الاستعمار.....117

المبحث الثاني: العنف.....127

المبحث الثالث: العنصرية.....136

المبحث الرابع: المرأة.....145

نقد واستنتاج:.....152

الخاتمة:.....154

الملاحق:.....158

بيبليوغرافية البحث:.....167

الفهارس:

فهرس الأعلام:.....178

فهرس البلدان والأماكن:.....187

فهرس الموضوعات:..... 194